قصة مدينتين

A Tale of Twon Cities

دار الطلائع

مقدمة

"قصة مدينتين" هي إحدى القصص الشهيرة للكاتب الإنجليزى الأشهر "تشارلز ديكنز"، الذي ولد في بورتسماوث "Portsmouth" عالم 1812 وتوفى في عام 1870.

ولقد كانت حياة تشارلز ديكنز نموذجًا للإصرار والعزيمة! فقد واجه في بداية حياته العديد من صعوبات الحياة وعراقيلها، وعانى من شظف العيش وضيق ذات اليد. فكان تعليمه في مدارس بسيطة، ثم عمل في مكتب محاماة، ومنه تفجرت طاقاته، حيث ظهر لديه قدرة فائقة على التأمل والملاحظة، واكتسب خبرات عظيمة في فهم طبيعة الناس وسلوكياتهم من خلال متابعة الأحداث والنتائج في المحاكم ومكاتب المحاماة وما يفعله الشهود، وما إلى ذلك.

لقد أراد تشارلز أن يصبح كاتبًا، فأعد نفسه لذلك بتكوين حصيلة من المعلومات السياسية والأدبية والاجتماعية، ثم اشتغل بالصحافة عندما بلغ التاسعة عشر من عمره، وعمل محققًا في أكثر من جريدة ومجلة. ثم بدأ في كتابة القصص القصيرة التى سجل فيها بعض ملاحظاته ومشاهداته التى يحفظها في ذاكرته.

ثم اشترك مع الفنان "سيمور" لعمل اسكتشات وكتيبات شهرية عرفت باسم سلسلة "بيكويك" والتى جذبت إليها العديد من القراء، ثم بدأ من عام 1836 في كتابة القصص الناجحة التي لا تزال تقرأ حتى الآن.

وقد كتب تشارلز "قصة مدينتين" التي تطالعها الآن في عام 1859، وهي من القصص التي تتميز بالواقعية وتحتوى على شخصيات قد عايش أمثالها من خلال تجاربه في الحياة.

وقد نالت هذه القصة إعجاب القراء سواء كانوا نقادًا أو مثقفين عاديين تماما، كما نال تشارلز حب الناس في حياته وبعد مماته.

المترجم

الفصل الأول

عربة بريد دوفر

The Dover Mall

كان زمانا من أحسن الأزمنة (في نظر بعض الناس)، وكان زمانا من أسوأ الأزمنة (في نظر أناس آخرين). كان ذلك هو عصر الحكمة، وكان ذلك هو عصر الحماقة. وكان ذلك هو عهد الإيمان واليقين، وكان ذلك هو عهد الزيغ والفسوق وغيبة اليقين. كان ذلك هو وقت انتشار النور وسيادة الاستنارة، وكان ذلك هو وقت الظلام. كان ذلك هو ربيع الأمل، وكان ذلك هو شتاء اليأس. كان أمامنا كل شيء، وكنا نصعد مباشرة مقتربين من السماء، وكنا جميعا نتجه نحو الهاوية في الاتجاه المضاد لاتجاه الصعود. وكان هناك ملكٌ ضخم الفكَّيْن، وكانت هناك ملكة وضاءة الوجه في شحوب فوق عرش إنجلترا، وكان هنالك مَلِكٌ ضخم الفكين ومَلِكة وضاءة الوجه في شحوب فوق عرش فرنسا. كان ذلك في عام ألف وسبعمائة وخمسة وسبعين بعد ميلاد المسيح عليه السلام.

ولقد كان الطريق المؤدى إلى ميناء دوفر يمتد أمام أول الأشخاص الذين تتصل بهم أحداث هذه الرواية في ليلة الجمعة في أواخر شهر نوفمبر. كان الطريق المفضى إلى ميناء دوفر يمتد أمام عربة البريد وهي تصعد فوق جبل شوتر. وكان أول أشخاص روايتنا يمشى بجوار العربة كما كان يفعل

ذلك كل المسافرين، لا لأنهم كانت لديهم أي رغبة في رياضة المشى على الأقدام نزولا على مقتضيات ودواعى رياضة المشى على الأقدام، ولكن كانوا جميعا يمشون على الأقدام بسبب صعوبة صعود العربة فوق الجبل، وبسبب الوحل، وبسبب ثقل العربة لدرجة أن الأحصنة التي كانت تجرها كانت قد اضطرت إلى التوقف ثلاث مرات، وفي إحدى المرات كان من الضرورى، أن يشاركوا في جر العربة ودفعها إلى الأمام.

وكان هناك ضباب ملىء بالبخار ينزل فوق فجاج الجبل، وكان ذلك الضباب من الكثافة بحيث كان يحجب نور مصابيح العربة ويجعله لا ينفذ حولها في مساره إلا مسافة بضع ياردات قليلة.

وكان مسافران آخران يكافحان لمواصلة السير بجوار العربة. وكان الرجال الثلاثة قد غطوا كل عظام وجوهم وآذانهم، وكانوا يرتدون في أقدامهم أحذية ثقيلة ذات رقبة ولم يكن أحدهم يستطيع أن يقول أي كلمة عن مظهر أي شخص آخر وكيف كان يبدو للناظر إليه؛ وكان كل منهم متدثرا في ملابس ثقيلة تكاد تخفى كل ملامحه عن رفاقه. وفي تلك الأيام لم يكن أحد يستطيع أن يأمن على نفسه من أخطار الطريق؛ لأن أي شخص يظهر في ذلك الطريق كان يجوز أن يكون من اللصوص قطاع الطريق أو يمت بصلة إلى اللصوص وقطاع الطريق.

وقال سائق العربة: «يا .. هو! هكذا إذن، لم يبق إلا أن تستمرى أيها الخيل في جر العربة مسافة ضئيلة لكى تصلى إلى القمة والذنب ذنبى لأننى تسببت في هذه المتاعب- يا جو!».

وقال شخص آخر: «ماذا تقول يا توم؟ إننى أقول إن حصانا يركض صاعدا نحونا – يا جو» فقال توم: «أقول إن حصانا يجرى صاعدا نحونا، ايها السادة، أيها السادة قولوا إنكم تعملون لحساب جلالة الملك. كلكم تعملون لحساب جلالة الملك!».

وبهذه التوجيهات المتسرعة، امتشق بندقيته القصيرة ووقف في الجهة الآخرى مستعدا لمواجهة أي حدث طارئ.

وأفضى الصمت عن الكلام إلى وجود صوت عجلات المركبة وحده في سكون الليل، وازداد صوت وقع حوافر الحصان الذي يصعد الجبل وضوحًا في الآذان.

وزأر حارس مركبة البريد بأعلى ما يستطيع صوته أن يزأر وهو يقول: «أنت أيها الشخص أيا من تكون! قف! وإلا، سأطلق النار!» وهدأ صوت حوافر الحصان الذي كان يصعد الجبل، وصاح رجل تسلل صوته بين الضباب يقول: «هل هذه هي عربة بريد دوفر؟» وقال حارس العربة: «لماذا تريد أن تعرف؟» فقال الرجل الذي يمتطى الحصان: «أريد أحد المسافرين عليها لو كانت هذه هي عربة بريد دوفر. أريد السيد جارفيز لورى» وقال حارس العربة: «ابق في مكانك لأننى لو ارتكبت خطأ إطلاق النار، لن يمكن إصلاح الخطأ وأنت على قيد الحياة. يا سيدى الذي يحمل اسم «لورى» أجب الرجل». وقال السيد لورى: «ما الموضوع؟ من الذي يريدنى؟ أنا لورى. هل لورى هو المطلوب؟» فقال راكب الحصان: «نعم يا سيد لورى. أنت الشخص الذي أريده».

قال لورى: «ما الموضوع؟» فقال الرجل الذي يركب الحصان: «رسالة عاجلة لك من بنك تلسون وشركاه». فقال السيد لورى لحارس العربة: «أنا أعرف هذا الرجل أيها الحارس. يجوز له أن يقترب من العربة. لا خطأ في الموضوع ولا خوف ولا موجب للحذر». فقال الحارس: «أنا آمل ألا يكون ثمة خطر، ولكننى غير متأكد تمامًا. تعال أيها الرجل مترجلا، ولو كان معك سلاح على ظهر حصانك لا تجعلنى أنظر إليك ويدُكَ تقترب منه وإلا..»..

وظهرت ببطء هيئة حصان وهيئة رجل من بين الضباب الكثيف. وتوقف الرجل بجوار حصانه وأعطى السيد لورى ورقة صغيرة مطوية. كان كلا من الحصان والراكب ملطخين بالغبار والطين من حوافر الحصان حتى قبعة الرجل.

وقال السيد لورى بلهجة رجل الأعمال الواثق مما يقول: «أيها الحارس» فقال الحارس وهو يمسك بالبندقية في إحدى يديه ويستند بيده الأخرى فوق أحد البراميل ليتخذ منه ساترا: «نعم يا سيدى». فقال السيد لورى: «لا شيء يدعو إلى أي خوف. أنا أعمل لحساب بنك تلسون. وأنا ذاهب إلى باريس في مهمة تتعلق بالعمل. ويلزمنى أن أقرأ هذه الرسالة لاتصالها بمهمتى». فقال الحارس: «ما دام الأمر كذلك اقرأ رسالة البنك إليك بسرعة يا سيدى».

وفتح السيد لورى الرسالة في ضوء مصباح العربة وقرأ محتوى الرسالة لنفسه في صمت ثم قال بصوت عال: «انتظر الآنسة في دوفر» ثم أردف قائلا: «إن دوفر ليست بعيدة أيها الحارس. وأنت يا جيرى وهو يمتطى صهوة جواده: «هذه إجابة غريبة أيضا». فقال السيد لورى: «عد برسالتى

الشفوية هذه إلى البنك. وهم سيعرفون أننى قد تلقيت رسالتهم كما لو كنت قد أعطيتك ردًا مكتوبًا. صاحبتك السلامة وطاب مساءك».

واستمرت العربة في صعودها الطريق مرة أخرى وكان الضباب يزداد كثافة حولها وهى تشرع في صعود الطريق من جديد.

وعندما وصلت عربة البريد إلى دوفر بسلام عند الضحى، فتح كبير عمال فندق «رويال جورج» باب العربة كما اعتاد أن يفعل ذلك دائمًا وهو يُظهِرُ كثيرا من الحفاوة لأن وصول رحلة البريد من لندن في الشتاء كان إنجازًا يستحق أن يحظى بالتهنئة للمسافرين المغامرين الذين يقومون به.

ولم يكن يوجد إلا مسافر واحد يتلقى التهنئة بسلامة الوصول أمام كبير العمال لأن المسافرين الآخرين كانوا قد اتخذوا لأنفسهم أماكنهم خارج الفندق كالمعتاد. وقال السيد لورى لكبير العمال بالفندق: «هل يكون هناك قارب لحمل الامتعة إلى ميناء كاليه غدا؟» فقل الرجل: «نعم يا سيدى لو سمحت بذلك الأحوال الجوية وكانت الريح مواتية. وستكون حركة المد والجزر في أحسن حال في الساعة الثانية بعد الظهر يا سيدى. هل تريد سريرا يا سيدى؟» فقال السيد لورى: «لن أذهب إلى السرير حتى يجن الليل، ولكننى أريد حجز إحدى الحجرات وأريد أن ترسل لى أحد الحلاقين». فقال الرجل: «وهل أرسل الإفطار بعد ذلك يا سيدى؟ نعم، يا سيدى، تفضل من هذا الطريق لو سمحت. ارشد السيد إلى الطريق يا كونكورد، واحمل حقيبته، وجهز له حمام ماء ساخن».

وبعد قليل من الوقت، كان السيد لورى، وهو رجل في الستين من العمر يرتدى حلة بنية اللون قديمة إلى حد كبير ولكنها حظيت بكثير من العناية،

ولها غطاء كبير للجيوب، كان السيد لورى بهيئته هذه قد تبع العامل كونكورد ليتناول إفطاره.

ولم يكن يوجد أي آخر في المكان المخصص لتناول القهوة تلك الظهيرة فيما عدا السيد لورى الذى كان ترتدى بذلته البنية اللون. وكانت مائدة طعامه قد أعدت له بجوار الدفأة، وكان السيد لورى يجلس إلى المنضدة وضوء نيرانها ينعكس لامعا عليه، وكان ساكنا كما لو كان ينتظر رساما يرسم لوحة تحمل ملامحه.

وكان وجهه الذي اعتاد مواجهة الأمور بكل هدوء هادئًا تضيئه عينان لامعتان تدلان على أن صاحبهما كان قد تحمل كثيرا من الآلام لكى يكتسب الطابع الوقور للعاملين في بنك تلسون. ولكى يكتمل التطابق في الهيئة مع رجل يجلس أمام رسام، استغرق السيد لورى في النوم، وايقظه من النوم وصول إفطاره إلى المائدة. وقال السيد لورى للخادم وهو يقترب بكرسيه من المنضدة: «أنا أريد إعداد حجرة لإقامة سيدة شابة يجوز أن تأتي إلى الفندق هنا في أي وقت اليوم. وهي يجوز أن تسأل عن السيد جارفيز لورى أو يجوز أن تسأل عن أحد السادة العاملين في بنك تلسون. ولو حدث ذلك، أرجوك أن تخبرنى به».

قال الخادم: «وهو كذلك يا سيدى. بنك تلسون في لندن يا سيدى؟» فقال لورى: «نعم» فقال العامل: «وهو كذلك يا سيدى، لقد تشرفنا في أوقات كثيرة بتقديم الخدمات إلى كثير من زملائك أثناء سفرهم بين لندن وباريس ذهابا وغياب يا سيدى. إنه سفر بعيد المدى يا سيدى ذلك الذي يقوم به كثير من موظفى بنك تلسون». فقال لورى: «نعم، نحن بيت مال

فرنسى كما أننا بنك إنجليزى في حقيقة الأمر» فقال الرجل: «نعم يا سيدى، ولكنك لم تعتد السفر بين لندن وباريس بنفسك كثيرا فيما أعتقد يا سيدى؟» فقال لورى: «لم أعتد السفر في السنوات الأخيرة. كان ذلك منذ خمسة عشر عام عندما جئت إلى فرنسا آخر مرة».

وعندما كان السيد لورى قد فرغ من تناول وجبة الإفطار، ذهب للنزهة على ساحل البحر.

وبعد أن طوى الوقتُ معظم صفحة الظهيرة، وعندما كان الهواء صافيا في فترات متقطعة بحيث يسمح بمشاهدة الشاطئ الفرنسى (وراء بحر المناش) فلقد أصبح الهواء الآن محملا ببخار الضباب، وبدت أفكار السيد لورى تتبلد بالهموم أيضا. وعندما حل الظلام، كان السيد لورى يجلس بالقرب من المدفأة بحجرة تناول القهوة بالفندق نفس الجلسة التي كان يجلسها قبل تناول إفطاره.

وبعد أن تناول عشاءه، وشرب مشروبه المفضل، سمع صوت عجلات عربة تتقدم نحو مبنى الفندق ثم تقعقع الأصوات الصادرة عنها في فناء الفندق. ووضع الكأس من يده ولم يلمسه بعد ذلك وقال لنفسه: «هذه هى الشابة!».

وخلال دقائق قليلة دخل لخادم لكى يعلن أن الآنسة «مانيت» كانت قد وصلت من لندن. وكانت الآنسة مانيت ملهوفة أن تقابل موظف بنك تلسون فور وصولها إلى الفندق لو كانت مقابلتها له تحظى بقبوله. ولم يجد موظف بنك تلسون أمامه أي شيء يفعله سوى أن يحتسى مشروبه دفعة واحدة ثم أن يمضى في إثر الخادم نحو الحجرة التي أقامت بها الآنسة مانيت التي وقفت

لاستقباله ليجد أمامه شابة لم تتجاوز السابعة عشرة من عمرها، ترتدى ملابس السفر، وهي لا تزال ممسكة بقبعتها المصنوعة من الخوص المحلاة بشريط في يدها. ووقع نظره على فتاة قصيرة القامة، نحيلة القوام، وكمية ضخمة من الشعر الذهبى اللون، وعينين لونهما أزرق تقابلتا مع عينيه في نظرة تريد الاستفهام، وكان جبينها (ولنتذكر مدى شبابها ونعومته) مرفوعًا ينبئ عن شعور بعدم الارتباك أو الدهشة أو الانزعاج على الرغم من وجود ما كان يدعو إلى هذه المشاعر كلها – وإذا استقرت عينهاه على هذه الأشياء جميعها – اعتراه على الفور شعور دافق بالمحبة للطفلة التي كان يحتويها بين ذراعيه وهم يعبرون القنال الإنجليزى في الزمن الماضى الحافل بالبرودة عندما كان البرد وكرات الثلج البالغة الإنجليزى في الزمن الماضى الحافل بالبرودة عندما كان البرد وكرات الثلج البالغة الضآلة تتساقط بغزارة فوق مياه البحر العالية التدافع. وتخلص السيد لورى من مشاعر المحبة وانحنى انحناءة رسمية تحية للآنسة مانيت.

وقالت الآنسة مانيت: «أرجوك أن تتخذ لنفسك مقعدا يا سيدى. لقد استلمت خطابا من البنك يا سيدى بالأمس، يخبرنى أنه قد تم للبنك اكتشاف ملكية ثروة ضئيلة لأبي الذي لم أره أبدا – لوفاته منذ زمن طويل مما يحتم أن أذهب إلى باريس لكى أتصل بمبعوث من البنك يتجه هو أيضا إلى باريس لنفس هذا السبب. ولقد رددت على البنك يا سيدى أنه يسرنى كل السرور أن أضع نفسى تحت رعاية وحماية مندوب البنك طوال الرحلة. ولقد غادر مندوب مدينة لندن ولكننى أعتقد أنهم قد أرسلوا وراءه شخصا يخطره أن ينتظرنى هنا في هذا الفندق». فقال السيد لورى: «لقد أسعدنى تكليفى بهذه المهمة، ويسعدنى أكثر من ذلك أن أقوم بتنفيذها».

فقالت: «أنا بالفعل أشكرك يا سيدى. ولقد أخبرنى البنك أن مندوب البنك سيشرح لى تفاصيل الموضوع، وأننى يجب أن أعد نفسى لكى أجد أن هذه التفاصيل مدهشة في طبيعتها ومحتواها. وطبيعى إذن أن أكون في غاية التشوق لمعرفة هذه التفاصيل». فقال السيد لورى: «نعم، نعم، -إننى» وبعد أن توقف عن الكلام برهة استطرد قائلا: «من الصعب جدا أن أبدأ».

ولم يبدأ بالفعل، ولكن شعوره بعدم القدرة على البدء التقي بجبهة الشابة الذي ارتفع معبرا تعبيرا فريدا عن رغبتها في معرفة التفاصيل ولكنها كانت جبهة جميلة تدل على شخصية فريدة، ثم أضافت إلى ذلك أنها رفعت يدها كما لو كانت تحاول الإمساك بظل من الظلال ثم قالت: «هل أنت غريب عنى تماما يا سيدى؟ (ألم نتقابل من قبل؟) «فقال السيد لورى: «يا آنسة مانيت، أنا رجل من رجال الأعمال. وعندى مهمة عمل يتعين أن أقوم بإنجازها وخلال استقبالك لي لا تطلبى منى أكثر من أن أكون مثل آلة تتكلم في نطاق الوظيفة التي تؤديها هذه الماكينة – وفي حقيقة الأمر، أنا لست أكثر من ذلك. وأنا سأقص عليك – لو تسمحين لي بذلك– قصة واحد من عملائنا بالبنك. كان هذا الرجل سيدا فرنسى الجنسية، من المشتغلين بالعلم، وكان رجلا واسع المعرفة، كان طبيبا». فقالت: «من بلدة بوفيه؟» فقال: «لماذا؟ نعم، إنه من بلدة بوفيه. مثل السيد مانيت، والدك، كان الرجل من بلدة بوفيه، وكانت له شهرة عريضة في باريس. وكان لي شرف التعرف عليه في باريس. وكانت العلاقة بيننا هي علاقة عمل، ولكنها كانت علاقة وثيقة. وكنت أنا في ذلك الوقت أعمل في فرع البنك في فرنسا. ولقد كنت أوه – عشرون عام!».

وقالت الآنسة مانيت: «تكلم عن ذلك الوقت. هل يجوز لي أن أسأل عن أي وقت بالضبط تتكلم يا سيدي؟» فقال الورى: «إننى أتكلم عن عشرين سنة مضت يا آنسة. لقد تزوج هذا الرجل سيدة إنجليزية، وكنت أنا أحد الشهود على عقد الزواج. وكانت شئونه المالية شأنها شأن الشئون المالية لكثير من العائلات الفرنسية في أيدي بنك تلسون كلها. ويضاف إلى ذلك أيضا أنني كنت مسئولا عن قطاع معين من الشون المالية لعملائنا بالبنك – وهذه بطبيعة الحال مجرد علاقة عمل يا آنسة–»

فقالت: «ولكن هذه هي قصة أبي تلك التي تتحدث معي بشأنها يا سيدي. ولقد بدأت أفكر وأتذكر أنني عندما تركنى أبي يتيمة إبان وجود أمي على قيد الحياة وكان عمري سنتين فقط، كنت أنت الذي اصطحبتنى إلى إنجلترا. أنا متاكدة تقريبا أنك كنت أنت الذي اصطحبتنى إلى إنجلترا».

وأخذ السيد لورى اليد المترددة التي امتدت نحوه بين يديه ثم قال: «يا آنسة مانيت، لقد كنت أنا الرجل».

واستمر السيد لورى في الكلام ليخبرها في كثير من التردد وفي كثير من التركيز على حصر الكلام في حدود العمل أن أباها لم يكن قد مات. لقد كان قد اختفى فجأة بطريقة غامضة. وكانت زوجته تخشى أن يكون أحد أعدائه قد عمل على إيداعه في السجن بموجب «أمر اعتقال»، ومن أوامر الاعتقال التي كانت في سلطة النبلاء في ذلك الوقت. وبالغا ما بلغت محاولاتها، فلقد أخفقت في أن تعرف أي شيء عن حقيقة مصيره. ثم قال السيد لورى: «وعندما ماتت أمك – مكسورة القلب فيما أعتقد– لاعتقادها أنها لن توفق أبدا في محاولتها العثور على والدك فهي قد تركتك وعمرك

عامان لكي يتقدم بك العمر لتصبحى فتاة متفتحة الشباب، جميلة، سعيدة دون أن تكدر حياتك ظلمات الحياة وأنت غير متأكدة مما إذا كان والدك قد مات أم أنه لا يزال على قيد الحياة ولم يتوقف قلبه عن النبض داخل السجن تحت وطأة أعوام السجن الثقيلة». وارتسمت فوق جبينها الذي كان يجتذب اهتمامه علامات عميقة تنبئ عن الألم والفزع ثم استطرد قائلا: «ولكنه، ولكنه قد تم العثور عليه حيا. إنه لا يزال على قد الحياة. تغيرت هيئته كثيرا، ربما كان هذا جائزا، ربما أصبح حطام رجل على الرغم من أننا نستطيع أن نأمل خيرا، ولكن المهم أنه لا يزال على قيد الحياة. ولقد تم انتقال والدك إلى منزل خادمه القديم في باريس، ونحن ذاهبان إليه هنالك. وسأتولى «أنا» التعرف على شخصه لو استطعت ذلك «بحكم سابق معرفتى به) «وأنت» لكى تستردى فيه الأمل في الحياة ولكى تستعيديه إلى دنيا المحبة والشعور بالواجب والراحة والاطمئنان».

واحتوت كل جسمها قشعريرة، وقالت بصوت خافت واضح رغم امتزاجه بالفزع الشديد: «سأذهب إذن لكى ألتقى مع شبحه - وليس لكى ألتقى معه!»

ودخلت الحجرة في تلك اللحظة امرأة في مظهرها قوة عارمة لاحظ السيد لورى بالرغم من شدة انشغال خواطره أنها كانت محمرة الوجه، محمرة الشعر، ترتدى ملابس خشنة غير مألوفة، وألقت نظرة نحو الآنسة مانيت، ووضعت يدا قوية فوق صدر السيد لورى قال في نفسه إنه يظن أنها يلزم أن تكون رجلا) وهي تقول: «أنت أيها الرجل الذي ترتدى الملابس

البنية اللون، ألا كنت تستطيع أن تقول لها ما تريد أن تقوله دون أن تسبب لها الفزع لدرجة الموت؟».

ووجد السيد لورى أن سؤالها ذاك أكثر صعوبة من أن يجيب عنه لدرجة أنه لم يستطع سوى أن يقول: «آمل أن تتحسن حالتها الآن». فقالت المرأة: «أنت لا تستحق أي شكر ياذا الملابس البنية اللون لو تحسنت حالتها. آه، يا حبيبتى الجميلة!» فقال لورى: «أنا آمل أنك ستصحبين الآنسة مانيت إلى فرنسا، أليس كذلك؟» فقالت: «هذا شيء جائز الحدوث لو كان لي أن أعبر هذا الماء المالح في البحر. هل تعتقد أن اللّه سيقذف بي إلى إحدى الجزر (قبل الوصول إلى فرنسا)؟».

❊❊❊❊

الفصل الثاني

الحانة

Shop

كان برميل ضم من النبيذ قد سقط وتحطم في الشارع. كان هذا الحادث قد وقع أثناء إخراج البرميل من العربة. واندفع البرميل متدحرجا وقد تفككت الأحزمة المحيطة به ليستقر حطامه أمام محل بيع النبيذ مثل ثمرة جوز الهند المحطمة.

وترك كل الناس بالقرب من مكان الحادث كل ما كان يشغلهم أو كل ما كانوا يحاولون أن يشغلوا به أنفسهم أثناء تسكعهم في الشارع لكي يجروا إلى مكان الحادث ويشربوا النبيذ المسكوب على الأرض. وكانت أحجار الشارع غير المستوية قد حجزت كميات من النبيذ في منخفضاتها، وأحاط الناس بهذه المنخفضات بين الأحجار متزاحمين: وكانت كل مجموعة يتزاحم أفرادها حول حفرة.

وترددت في جو المكان أصداء الضحكات والأصوات المبتهجة في الشارع. بينما كان الناس رجالا ونساء وأطفالا يمارسون لعبة لعق النبيذ الأحمر المسكوب فوق أرضية ذلك الشارع الضيق في حي سانت أنطوان بباريس. وشاع اللون الأحمر في كل المكان الذي غطاه النبيذ، وتلوثت كل الأيدى باللون الأحمر، وتلوثت كل الوجوه أيضا باللون الأحمر، وتلوثت أقدام كثير من الناس الحفاة الأقدام باللون الأحمر، وتلوثت الأحذية الخشبية في أقدام أناس آخرين باللون الأحمر. وكل أولئك الذين كان نهمهم

شديدا وهم يلعقون النبيذ الأحمر من فوق أرضية الشارع تلطخت شفاههم وأفواههم وما حول شفاههم بخطوط حمراء كأفواه النمور المرقطة باللون الأحمر. وعَمَدَ رَجُلٌ طويل القامة إلى أحد الجدران بعد أن كان قد غمس أصابعه في وحل النبيذ الأحمر وكتب على الجدار كلمة: «**الدم**».

وسيحين بعدئذ الوقت عندما سينسكب النبيذ الأحمر فوق أرضية الشارع مرارًا وتكرارًا وسيلطخ اللون الأحمر كثيرا من الناس في الشارع على نطاق واسع.

وكان مصباح خابى الضوء معلقا في حبل يضيئه عامل الإضاءة ثم يعيد تعليقه لكي تتمايل ذبالات المصابيح المتباعدة المسافات فوق الرؤوس كما لو كانت تتمايل فوق بحر عظيم الاتساع. ولقد كانت بالفعل تتأرجح فوق بحر عاصف تتقاذف الريح فليه السفينة والبحارة.

ومرد ذلك كله إنما يرجع إلى أنه من الضرورى أنه سيأتى الوقت الذي يتجاوب فيه السواد الأعظم من الناس المنهوكى القوى مع أولئك الذين يشعلون فتائل المشاعل وهم يرزحون تحت وطأة البطالة والجوع زمانا طويلا إلى حد سيدفعهم دفعا إلى أن يدركوا فكرة أن يعملوا على تحسين أوضاع وظروف حياتهم بالطرق التي رسمها لهم حملة المشاعل ليجتذبوا قيادة الناس بتلك الحبائل وليربطوا مصائرهم بتلك الوشائج، ولكن ذلك الوقت لم يكن قد آن أوانه بعد.

وكان محل بيع النبيذ يقع على ناصية الشارع، وكان أفضل في مظهره ومستواه من معظم المحلات الأخرى، وكان صاحب المحل قد وقف خارج المحل وهو ينظر إلى الصراع على النبيذ المسكوب ثم قال وهو يهز كتفيه: «ليس هذا من شأنى. الناس فعلوا ذلك، فليحضروا برميلا آخر بدلا منه».

ثم تصادفت أن لمحت عيناه الرجل الطويل القامة الذي كان يكتب على الجدار مستخدما الوحل الممزوج بالنبيذ الأحمر، وناداه وهو في النحاية الأخرى من الشارع قائلا له، «قل لي يا جاسبار: ماذا تفعل عندك؟» وأشار الرجل للكلمة التي كان قد خطها على الجدار باعتداد كبير فاستطرد صاحب المحل يقول له: «ما هذا الذي تفعله الآن. هل أنت من سكان سراى المجانين؟» وعبر الشارع وطمس الكلمة المكتوبة على الحدار بالوحل وهو يقول: «لماذا تكتب في الشارع العمومى؟ قل النبيذ، النبيذ. واكتف بهذا النداء». ولدى انتهائه من إسداء هذه النصيحة، مسح يده في ملابس الرجل وهو مشمئز كما لو كانت ملابس الرجل قد لوثت يده، ثم كرَّ عائدا إلى المحل.

وكان صاحب المحل رجلا غليظ الرقبة في حوالى الثلاثين من العمر. ولم يكن يلبس معطفا. وكانت أكمام قميصه مطوية في ثنيات فوق ساعديه إلى ما فوق مرفقيه. كان رجلا داكن اللون عيناه جميلتان، وحاجباه متسعان، يوحيان بشدة الجرأة، وكان منظره حسنا على الإجمال كما كان مظهره يدل على الصرامة والإصرار على هدفه.

وكانت زوجته السيدة ديفارج تجلس إلى المكتب داخل المحل عندما دخل زوجها، وكانت سيدة ممتلئة الجسم في حوالى الثلاثين من العمر مثله. لها عينان تعودتا على المراقبة على الرغم من أنه كان يبدو أنها لا تتعمد النظر إلى أي شيء مما حولها. وكان يبدو على مظهر السيدة ديفارج ما يوحى بأنها لا تخطئ أبدا. وكانت خيوط الصوف التي تعمل فيها الإبرة موجودة دائما أمامها ولكنها كانت تركتها لكي تنظف أسنانها بعود رفيع من الخلة. وهكذا تشاغلت عن أن تقول أي شيء لزوجها عندما دخل المحل، ولكنها سعلت مرة واحدة. وكان ذلك معناه أنه يجب عليه أن يعنى بشأن بعض الزبائن

داخل المحل لسبب من الأسباب لقد كان بعض الزبائن الجدد قد دخلوا المحل أثناء انشغاله خارجه بما كان يحدث في الشارع أمام المحل.

كان رجل متقدم في السن وفتاة شابة قد جلسا في أحد أركان المحل. وكانت هنالك مجموعة أخرى من الزبائن. كان اثنان منهم يلعبان الورق بينما كان ثلاثة زبائن آخرين يقفون بالقرب من المكتب. وبينما كان السيد ديفارج يمشي بالقرب من المكتب سمع الرجل المتقدم في السن يقول للفتاة: «هذا هو رجلنا». ولكن السيد ديفارج صرف النظر عن الرجلين اللذين كانا يلعبان الورق واقترب من الرجال الثلاثة الواقفين بالقرب من المكتب، وقال أحدهم للسيد ديفارج: «ما الذي حدث يا جاك، هل كل النبيذ الذي انسكب قد شُرِب؟» فقال السيد ديفارج: «إلى آخر قطرة يا جاك». وبينما كان اسم «جاك» يتردد إذ كان كل منهم يسمى الآخر بذات الاسم جاك، سعلت السيدة ديفارج عدة مرات. وقال رجل آخر: «لا يحدث مرات كثيرة لمعظم هذه الوحوش البائسة أن عرفت مذاق وطعم النبيذ أو مذاق وطعم أي شيء لذيذ سوى طعم الخبز الأسود والموت. أليس كذلك يا جاك؟» فقال له السيد ديفارج: «الحال على هذا المنوال كما تقول بالضبط يا جاك».

وعند هذا الحد من ذلك الحوار الجارى بين الأشخاص الذين كان كل منهم ينادى الآخر باسم جاك، سعلت السيدة ديفارج مجموعة أخرى من مرات السعال وهي لا تزال ممسكة بعود الخلة بأصابع يدها.

وقال الرجال الثالث شيئًا ما وهو يضع كوب الشراب الفارغ من الشراب من يده.

قال الرجل الثالث: «آه! من سيئ إلى أسوأ! إن طعم المرارة هو العطم الذي تجده هذه الحيوانات البائسة في أفواهها، وحياة شاقة هي تلك الحياة

التي يعيشونها يا جاك. هل أنا على صواب يا جاك؟» وقال السيد ديفارج: «أنت على صواب يا جاك».

وعندما تحدث جاك الثالث وأقره السيد ديفارج على أقواله وضعت السيدة ديفارج عود الخلة من يدها وأصدرت صوتا خافتا من بين شفتيها فتمتم زوجها يقول: «كلامكم صحيح. يا حضرات السادة، زوجتى تطلب منى شيئا!» وخلع الرجال الثلاثة قبعاتهم تحية للسيدة ديفارج، وردت تحيتهم لها بأن أحنت لهم رأسها ونظرت نحوهم نظرة سريعة. ثم أجالت نظرها في أنحاء المحل متفقدة حالته العمومية ثم تناولت أشغال الإبرة بهدوء واضح وانهمكت من جديد تمارس أشغال التريكو.

وقال زوجها وهو ينظر إلى الفتاة الشابة بعينيه اللامعتين: «طاب ويومكم يا حضرات السادة. الحجرة مؤثثة بأثاث يناسب حياة شخص أعزب، وهي الحجرة التي تريدون رؤيتها وكنتم تسألون عنها عندما كنت مشغولا خارج المحل، وهي في الطابق الخامس من هذا الفندق. والباب الجانبى يطل على الفناء قرب الجهة اليسرى هنا».

ودفعوا ثمن شرابهم وغادروا المكان. وكانت عينا السيد ديفارج تفحصان وجه وزجته وهي تمارس أشغال الإبرة عندما تقدم الرجل المتقدم في السن من الركن الذي كان يجلس فيه وطلب الإذن في أن يقول شيئا للسيد ديفارج وقال له السيد ديفارج: «بكل سرور يا سيدى». ومشى معه بهدوء نحو الباب.

وكان حديثهما قصيرا للغاية. وشهق السيد ديفارج لدى سماعه أول كلمة تقريبا، وأوما برأسه موافقا وخرج. واستدعى الرجل المتقدم في السن الشابة التي كانت تجلس معه وخرجا وراءه. وكانت السيدة ديفارج مستمرة في الانشغال بأعمال الإبرة وكأنها لم تر شيئا.

وأنسل السيد جارفيز لورى والآنسة مانيت وراءه خارجين من المحل، وانضما إلى السيد ديفارج ماضين نحو الباب الذي كان قد وجه إليه الرجال الثلاثة من قبل. وفي مدخل درجات السلم الكئيب المنظر، جثا السيد ديفارج على إحدى ركبتيه أمام ابنة سيده السابق وأخذ يدها وطبع عليها قبلة بشفتيه. وكانت تلك بادرة لطيفة، وكلنها تمت بعنف أبعد ما يكون عن الرقة إذ كان تغييرا حاد قد اعترى مشاعره في ثوان قليلة. كان في تلك الأثناء قد أصبح رجلا غامض التصرفات غاضبا وذا خطورة.

وبينما كانوا يصعدون درجات السلم، قال السيد لورى: «هل هو قد تغيَّر كثيرا؟» فقال السيد ديفارج: «تغيِّر إلى حد كبير!».

وتوقف صاحب محل النبيذ عن المشى لكى يدق على الجدار بيده اليسرى وهو يسب ويلعن سبابا مقذعا. ولم يكن ثمة رد يمكن الحصول عليه بأقل من ذلك. وازداد قلب السيد لورى ثقلا فوق ثقل بين ضلوعه بينما كان يصعد السلم.

ومن خلال القضبان الحديدية التي كان يعلوها الصدأ لم يكن من الممكن مشاهدة شيء في مجال النظر يوحى بوجود الحياة أقرب من قمتى البرجين الشاهين في كنيسة نوتردام. لقد وصلوا إلى أعلى ذروة من ذرى القصة الآن. واستدار صاحب محل النبيذ هنا وأخرج من جيبه مفتاحا.

وقال السيد لورى وهو مندهش: «الباب مغلق عليه من الخارج إذن يا صديقى؟» فقال السيد ديفارج بالكتئاب واقتضاب: «أي نعم». فقال السيد لورى: «وهل تعتقد أنه من الضرورى أي تبقى السيد الموجود بالداخل معزولا عن العالم على هذا النحو؟» فقال السيد ديفارج: «ما أعتقد أنه ضرورى هو أن أضع المفتاح في قفل الباب وأن أدير المفتاح في القفل». فقال السيد لورى: «ولماذا» فقال السيد ديفارج: «يا للعجب! لأنه كان قد

عاش زمانا طويلا وراء باب مغلق عليه بالمفتاح لدرجة أنه أصبح يخاف- ويفزع- وتطير نفسه شعاعًا وعلهًا- ويموت من الخوف- ويحدث له أنواع من الضرر لا استطيع أن أحصيها - لو تُرِكَ بابه مفتوحًا».

وقال السيد لورى في دهشة: «هل هذا ممكن؟» فقال السيد ديفارج بمرارة: «تسأل ما إذا كان ذلك ممكنا؟ نعم، وتكون الدنيا التي نعيش فيها دنيا جميلة عندما يكون ذلك ممكنا. فليحيا الشيطان. دعنا نستمر في أداء ما نحن بصدده».

ولقد كان ذلك الحوار قد تم في همس خافت الصوت لدرجة أنه لم تصل كلمة واحدة منه إلى أذنى الفتاة الشابة، ولكنها- رغم ذلك- في تلك اللحظة كانت ترتجف تحت سنابك انفعال قوى دافق، وكان وجهها يعبر عن قلق عميق يضاف إليه الرعب والفزع لدرجة أن السيد لورى قال لها: «الشجاعة والجلد والتماسك يا آنستى العزيزة! الشجاعة والجلد والتماسك! الاضطلاع بمواجهة المهمة التي نريد إنجازها! إن أسوأ ما في الموضوع سينتهى في لحظة واحدة. وبعدها، سيكون كل الخير الذي ستسدينه إليه، وكل الراحة وكل السعادة. فلتشرعى في ذلك الآن. هيا، جاء دورك للقيام بواجبك نحوه الآن. إنجاز المهمة يعنى ضرورة إنجازها!».

وعند حنية مفاجئة، شاهدوا فجأة ثلاثة رجال، ينظرون على نحو متعمد من خلال بعض الفرجات أو الشقوق في الجدار. كانوا هم الرجال الثلاثة الذين كان كل منهم يحمل اسما واحدا هو «جاك» وكانوا يتناولون شرابهم من قبل.

وأوضح السيد ديفارج الموقف بقوله: «نسيت شأنهم من فرط دهشتى لزيارتكما المفاجئة. اتركونا الآن أيها الأولاد الطيبون. لدينا ما نعلمه الآن». وانسحب الرجال الثلاثة ونزلوا درجات السلم في صمت مطبق.

وسأل السيد لورى في همس وهو غاضب: «هل أنت تعرض بؤس السيد مانيت على الناس؟» فقال السيد ديفارج: «أنا أعرض بؤسه، وبالطريقة التي شاهدتها على أناس مختارين ليشاهدوا مدى الظلم». فقال السيد لورى: «ومن هم أولئك الناس المختارين؟ وكيف تختارهم؟» فقال السيد ديفارج: «أنا أختارهم باعتبار أنهم رجال حقيقيون يمتازون بالرجولة الحقيقية، وكل واحد منهم يحمل اسما مثل اسمى. أنا اسمى هو «جاك» وكل واحد منهم اسمه «جاك» لعل مشاهدته تحدث في نفوسهم أثرا طيبا منشودا» ونظر داخل الحجرة وقرع الباب مرتين أو ثلاث مرات لا لشيء سوى أن يحدث صوتا، وأدار المفتاح بضع مرات قبل أن يفتح الباب.

وفي آخر مرة أدار المفتاح في الباب بكل قوة، وانفتح الباب للداخل ببطء، ونظر السيد ديفارج داخل الحجرة وقال شيئا ما. وأجابه صوت ضعيف شيء ما. والتفت السيد ديفارج وراءه من فوق كتفيه ودعاهما إلى الدخول. ولف السيد لورى ذراعه حول خصر الفتاة للاطمئنان على احتفاظها بتوازنها لأنه كان يشعر أنها توشك على الانهيار وهو يقول لها: «عندنا، عندنا، عندنا مهمة نريد إنجازها. ادخلى. ادخلى!».

وكانت تلك الحجرة العلوية قد بنيت في أعلى البيت لكي يوضع فيها خشب المدفأة وما شابه ذلك من الأشياء التي تحتاج مخزنا للمتروكات، وكانت معتمة الإضاءة، وكان من الصعب وُلُوجُها في البداية لكثرة المتروكات فيها، ولم يكن يسهل الدخول فيها إلا على شخص تعوَّد كثرة الدخول فيها، ولم يكن أحد يستطيع أن يعمل فيها شيئًا يحتاج الدقة وتدقيق النظر، وبالرغم من ذلك، كان عمل يحتاج الدقة وتدقيق النظر يجرى في ذلك المخزن لأنه كان يجلس رجل أبيض الشعر، وظهره ناحية الباب، ووجهه يتجه نحو النافذة فوق مقعد منخفض، وقد انحنى ظهره للأمام وهو يصنع بهمة عالية الأحذية.

الفصل الثالث

صانع الأحذية

The Shoemaker

قال السيد ديفارج وهو ينظر إلى الرأس ذي الشعر الأبيض المنحنى فوق ما يصنعه من حذاء: «طاب يومك!» وارتفع الرأس ذو الشعر الأبيض لحظة وقال بصوت خافت: «طاب يومك!» فقال السيد ديفارج: «أنت لا تزال تعمل فيما أرى؟» وبعد فترة صمت طويلة، ارتفع الرأس ذو الشعر الأبيض وأجاب في صوت خفيض: «نعم، أنا لا أزال أعمل». وكان ضعف الصوت مثيرًا للشفقة ومفزعا.

وسأله ديفارج قائلا: «هل ستنهى هذا الزوج من الأحذية اليوم؟» وأشار بيده إلى السيد لورى أن يتقدم للأمام. فقال الرجل العجوز وهو لا يزال مستمرا في صنع الحذاء بين يديه: «ماذا قلت؟» فقال ديفارج: «هل تنوى أن تتمم هذا الزوج من الأحذية اليوم؟» فقال صانع الأحذية: «أنا لا أستطيع أن أقول إنني أنوى ذلك أنا أود ذلك. أنا لا أعرف». ولكن كان يبدو كما لو كان السؤال قد أعاد إلى ذاكرته عمله الذي كان قد توقف عنه لحظة، وانحنى على عمله منهمكا فيه ثانية.

وتقدم السيد لورى إلى الأمام في صمت تاركا الفتاة عند الباب. وعندما وقف دقيقة أو دقيقتين بجوار ديفارج رفع صانع الأحذية عينيه. ولم. يبد أي دهشة لدى رؤيته شخصا آخر بجوار ديفارج، ولكن ارتفعت أصابع يده المعروقة إلى شفتيه عندما نظر إليه (كانت يده وأظافره وشفتاه لهما نفس اللون الرصاصى الفاتح) ثم نزلت يده إلى مزاولة عمله من جديد وانحنى رأسه مرة أخرى فوق الحذاء في يده الأخرى. وكانت النظرة التي اختلسها ثم معاودة العمل لم يستغرقا إلا لحظة.

وقال السيد ديفارج: «أنت تدرك أنه يوجد عندك أحد الزائرين». فقال صانع الأحذية: «ماذا تقول؟» فقال ديفارج: «هنا زائر» ورفع صانع الأحذية عينيه كما سبق له ذلك من قبل ولكن بدون أن تتوقف يداه عن العمل. فقال ديفارج: «هيا، يوجد هنا أحد السادة وهو يعرف الحذاء الجيد الصنع عندما يراه، أره هذا الحذاء الذي تصنعه. خذ الحذاء يا سيد».

وأخذ السيد لورى الحذاء بين يديه. وقال ديفارج: «قل للسيد أي نوع من الأحذية هذا الحذاء، وقل له اسم صانعه».

وسادت فترة صمت أطول من المعتاد قبل أن يجيب صانع الأحذية بقوله: «إنه حذاء لإحدى السيدات. إنه حذاء تحتذيه لتمشى فيه سيدة شابة. إنه مطابق لأحدث «موضة» أنا لم أشهد هذا النوع من الأحذية. كان عندى فقط نموذج له في يدى ونظر إلى الحذاء بشيء من مسحة شعور عابر بالفخر.

قال ديفارج: «وماذا عن اسم الصانع الذي يصنعه؟» وإذ لم يعد صانع الأحذية أن يستمر في العمل، فلقد وضع أدوات الشغل التي بيده اليمنى في

تجويف ناحية يده اليسرى، ووضع ما كان بيده اليسرى في تجويف ناحية يده اليمنى ثم مرت يده المعروقة في اللحية الطويلة فوق ذقنه، وكرر ذلك مرات منتظمة دون توقف ثم قال «هل سألتنى عن اسمى». فقال ديفارج: «بالتأكيد سألتك عن اسمك». فقال صانع الأحذية: «105 – البرج الشمالى». فقال السيد لورى وهو ينظر مباشرة في وجهه: «ليست صناعة الأحذية هي مهنتك الأصلية». واستدارت عينا صانع الأحذية المتعبتين إلى ديفارج كما لو كان قد قرر تحويل السؤال إليه، ولما تصله أي نجدة من ناحية السيد ديفارج أدار بصره نحو صاحب السؤال وقال: «هل أنا لست صانع أحذية كمهنة أصلية؟ لا، لم تكن صناعة الأحذية هي مهنتى الأصلية – أنا– أنا تعلمتها هنا. أنا علمت نفسى. طلبت إجازة لكى–».

وزاغ بصره لبضع دقائق وهو يتصفح ما اعترى يديه من تغييرات من طول زمان مزاولته المهنة. ثم عاد بصره إلى مستقره السابق لتكتسب قسمات وجهه ذات الملامح السابقة ثم استطرد قائلا: «طلبت إجازة لكى أعلم نفسي هذه الصناعة. تعلمتها بعد مشقة كبيرة وبعد وقت طويل، وأنا أصنع الأحذية منذ ذلك الوقت التي أتقنت فيه صناعتها».

وعندما مد صانع الأحذية يده لكي يستعيد الحذاء الذي كان السيد لورى قد أخذه منه، حدق السيد لورى في وجه صانع الأحذية ثم قال له: «يا سيد مانيت»، ألا تتذكر أي شيء عنى؟».

وسقط الحذاء على الأرض وجلس صانع الأحذية ينظر بثبات نحو صاحب السؤال. ووضع السيد لورى يده فوق ذراع السيد ديفارج وقال

لصانع الأحذية: «يا سيد مانيت ألا تتذكر شيئا عن هذا الرجل؟ أنظر إلى هذا الرجل. ألا يوجد في ذاكرتك صديق لك يعمل بأحد البنوك أو أي شيء يتعلق بالبنوك أو بخادم قديم أو زمان يا سيد مانيت؟».

وبينما كان أسير السنوات العديدة يجلس وهو يحدق النظر في السيد لورى والسيد ديفارج واحدا بعد الآخر انبثقت من خلال ضباب النسيان القاتم بعض لمحات الذكاء لتظهر فوق جبينه، ولم تلبث هذه اللمحات أن انطوت في سحب النسيان مرة أخرى، لكى تزداد ضعفا وفتورا ثم تتلاشى، ولكنها كانت موجودة، طَفَتْ واختفت. وأخيرا، التقط الحذاء الذي كان قد سقط فوق الأرض واستأنف العمل فيه وهو يتنهد.

وهمس في أذنه السيد ديفارج قائلا: «هل تعرفت عليه يا سيد؟» فقال صانع الأحذية: «نعم، تعرفت عليه لحظة واحدة. في البداية ظننت ألا أمل لي في التعرف عليه، ولكننى بما لا يدع مجالا للشك كنت قد رأيته، رأيت ذلك الوجه الذي كنت أعرفه جيدا في وقت ما اسكت! دعنا نرجع إلى الوراء أكثر من ذلك. صه!».

وتحركتْ من مكانها بجوار جدار المخزن لتقترب كثيرا من المقعد الذي كان يجلس عليه صانع الأحذية. ولقد كان هناك شيء رهيب مفزع في صميم اللاشعور لدى صانع الأحذية استحوذ عليه وتلامس معه وهو ينحنى لينكبَّ من جديد على مواصلة عمله.

ولم ينطق أحد بكلمة واحدة ولم يصدر أي صوت عن أي شخص. ووقفت هي بجواره كم لو كانت روحا من الأرواح عندما انحنى على عمله.

ولقد حدث بعد برهة من الوقت أن واتته فرصة لكى يبدل إحدى أدوات العمل التي كانت في يده لكى يستخدم السكين الذي يحتاج استخدامه صناع الأحذية من حين إلى حين. والتقط السكين الذي كان يريده، وكان ينحنى لمعاودة مواصلة العمل عندما لمحت عينه الجزء السفلى من ثيابها. ورفع عينيه ورأى وجهها.

وحملق في وجهها بنظرة مرتاعة، وبعد لحظة بدأت شفتاه تلوكان بعض الكلمات على الرغم من عدم صدور صوت منهما. وبالتدريج، وعلى دفعات متقطعة من أنفاسه التي كان يبذل قصارى جهده لكى يحافظ على انتظامها سمعوه يقول: «من أنتِ؟».

وإذا لم تكن تثق الآن في قدرة صوتها على إصدار أي كلام، جلست بجواره على المقعد. تراجع مبتعدا عنها قليلا، ولكنها وضعت يدها على ذراعه، واعترته رجفة قوية عندما فعلت ذلك وظهرت آثار تلك الرجفة على قسمات وجهه، ووضع من يده السكين بهدوء، وظل طالسا وهو يحملق في وجهها.

كان شعرها الذهبى الذي كان ينساب في خصلات طويلة قد انسدل حول عنقها. وأخذ يمد يده بالتدريج وببطء وأمسك شعرها بيده ونظر إليه. وغاب عن الوعى وهو يفعل ذلك، وتنهد بعمق، وانكب مرة أخرى على عمله في صنع الحذاء. وقال: «إنه نفس الشعر، ولكن، كيف يمكن أن يكون ذلك؟».

ولم يستمر في عمله في الحذاء وقتا طويلا. وعندما تركت ذراعه، وضعت يدها على كتفه، وبعد أن نظر إليها بارتياب مرتين أو ثلاث مرات،

كما لو كان يريد أن يتأكد من ودودها في كل مرة، ترك ما كان يعلم يسقط من يده وغمغم قائلا: «لقد وضعت رأسها على كتفى في تلك الليلة عندما استدعونى لكى أخرج من منزلى – كانت تخاف من جراء خروجى آنذاك بالرغم من إننى لم أكن خائفا – لا لا أنت أكثر شبابا وأكثر تفتحا – لا، لا، هي كانت – قبل السنوات البطيئة الخطى بالبرج الشمالى، منذ عصور مضت».

وعندما رقت نبرات صوته وهدأت مشاعره، جثت ابنته على ركبتيها أمامه، ووضعت يديها الضارعيتن على صدره، واختلط شعر رأسه الأبيض بشعرها المتألق لكي يشعر رأسه الذى يكسوه الشعر الأبيض بالدفء ولكى ترى عيناه النور كما لو كان نور الحرية يتلألأ أمام عينيه من جديد، وأحاطت رقبته بذراعيها وأخذت تدللُه كما لو كان طفلا صغيرا.

وعندما كان الهدوء الرتيب المعتاد في مخزن الأشياء المتروكة قد تبدد وتلاشى، وعندما كان صدره وكان كيانه المهتز قد استسلم للهدوء الذي يلزم أن يعقب كل العواصف فلقد أفضى هذا وذاك إلى أن يرتفع كل من الأب والابنة بالروح فوق الأرض التي لم يعد اي منهما يشعر بوجودها. ولقد كان هو قد سقط على الأرض ورقد عليها فيما يشبه السبات وغياب الوعى وقد غلبه على أمره فقدان الإحساس والشعور بما كان يدور حوله. وكانت هي أيضا قد استكانت في حضنه لدرجة أن راسه كانت مستقرة على ذراعها، وكان شعرها قد سقط على وجهه وحجب عنه الضوء.

وقالت ابنته: «أتمنى لو أمكن دون إزعاجه أو إيقاظه إعداد كل شيء لكى نغادر به باريس فورا بحيث يتم إخراجه من نفس الباب الذي دخلنا منه، وبذلك تكون قد أخذناه بعيدا عن باريس-».

وسأل السيد لورى قائلا: «ولكن، يلزم النظر فيما إذا كانت حالته الصحية ملائمة للقيام بهذه الرحلة». فقالت ابنته: «حالته أكثر من ملائمة فيما أعتقد، وهذا أفضل له بكثير من أن يبقى موجودا في هذه المدينة التي تفزعه أشد الفزع».

وقال ديفارج: «هذا صحيح، وأكثر من ذلك، السيد مانيت سيكون لأكثر من سبب في أحسن حال وهو موجود خارج فرنسا. قولا لى: هل أقوم باستئجار عربة وخَيْلًا لجر العربة؟» وقال السيد لورى بطريقته التي تعشق إنجاز مهام العمل: «هذه هى مهمتنا. ولو كان من الضرورى القيام بمهمتنا فمن الأفضل أن نقوم بها».

واستحثت الآنسة مانيت ديفارج بقولها: «إذن تفضل أنت واتركنا هنا. أنت تدرك كم أصبحت حالته معقدة، ولا تخف أن تتركه معى الآن. ولو أنك أغلقت علينا الباب لكى تجنبنا المفاجآت، فأنا لا أشك في أنك ستجده عندما تعود كما تركته وكما هو الآن».

ولم يرتح كل من ديفارج والسيد لورى إلى فكرة أن ينصرفا سويا ليتركاها بمفردها معه وكانا يفضلان أن يظل أحدهما معها. ولكن حيث أنه لم يكن المطلوب هو الحصول على العربة والجياد فقط، ولكن الأوراق التي كانت تبيح استئجار عربة للسفر كانت أيضا مطلوبة (وهي خاصة بالسيد لورى

كمواطن أجنبى من حقه السفر خارج فرنسا للعودة إلى موطنه الأصلى)، ولذلك قررا عندما كان النهار ينتهى أن يعملا ما يلزم عمله وخرجا سويا لإنجاز المهمة. وعندما حل الظلام وضعت الابنة رأسها على الأرض بجوار ابيها وأخذت تراقبه، وخيم الظلام شيئا فشيئا، وكانا يرقدان كلاهما في هدوء حتى لمع ضوء من بعض الثقوب والفتحات خارج الجدار.

كان السيد لورى والسيد ديفارج قد جهزا كل شيء يلزم للرحلة، وكانا قد أحضرا معهما أيضا عباءات وأغطية للسفر وكمية من الخبز وللحم والشراب وبوجه خاص كمية من القهوة الساخنة. ووضع السيد ديفارج هذه الأشياء فوق المقعد (إذا لم يكن يوجد شيء آخر في المخزن إلا سرير واحد) تعاونا على إيقاظ الدكتور مانيت لكى ينهض على قدميه.

وباستسلام شخص تعود على أن يطيع الأوامر، أكل الدكتور مانيت وشرب كل ما أعطياه ليأكله أو ليشربه ووضع على جسمه العباءة والدثار الذي كانوا قد أعطوه له ليرتديه. واستجاب لابنته وهى تضع ذراعها في ذراعه وأمسك بيدها الأخرى في يده.

وشرعوا في النزول على السلم يتقدمهم السيد ديفارج والمصباح في يده وكان السيد لورى في المؤخرة. ولم يكونوا قد نزلوا كثيرًا من درجات السلم عندما توقف الرجل العجوز وحملق في السقف وفي الجدران من حوله.

وبدا من الواضح له أنه ليس لديه معرفة بكيفية انتقاله من السجن إلى ذلك المنزل، وسمعوه يتمتم قائلا: «105 – البرج الشمالى». وعندما كان ينظر حوله، فلقد كان يبحث عن جدران السجن الذي كان يحتوى كل كيانه

سنوات عديدة من قبل. وعندما وصلوا إلى الفناء أسرع الخطى كما لو كان سيعبر جسرا متحركا، وعندما لم يجد جسرا، ووجد عربة تنتظر في شارع فسيح ممتد من الجهتين كل الامتداد طأطأ راسه.

ولم يكن هنالك زحام من الناس حول الباب، ولم يكن هنالك أناس ينظرون من وراء النوافذ، ولا حتى أحد من المارة في الشارع. كان هنالك شخص واحد يمكن له أن يشاهده وكانت هي السيدة ديفارج التي كانت تقف مستندة إلى جدار العربة وهي مستمرة في أشغال التريكو بين يديها، ولا تكاد ترى شيئا حولها.

وقبع السجين السابق داخل العربة وبجانبه جلست ابنته وعندما صعد السيد لورى إلى العربة فوجئ بسؤاله عن أدوات العمل في صنع الاحذية بتوسل شديد وكذلك عن الحذاء الذي لم يكن قد أتم صنعه. وعلى الفور أخبرت السيدة ديفارج زوجها أنها كانت ستحضر هذه الأشياء، ومضت وهي مستمرة في أشغال الإبرة حتى خرجت من دائرة الضوء بالفناء. وأحضرت الأشياء المطلوبة بسرعة وأدخلتها إلى العربة ثم استندت إلى جدار العربة واستأنفت أعمال التريكو عازفة عن رؤية اي شيء حولها.

وجلس ديفارج في مقدمة العربة وقال: «إلى الحدود!» وأحدث السائق فرقعة بالسوط، وتحركت بهم العربة تحت المصابيح الضئيلة النور المتأرجحة. وتحت هذه المصابيح الخافتة الضوء المتأرجحة، وفي ضوء المتأرجحة، وفي ضوء الدكاكين المضاءة، كانت حشود مرحة من الناس يدلفون داخلين إلى المقاهى وإلى أبواب المسارح ونحو أحد أبواب المدينة

حيث كان يقف جنود وبأيديهم المصابيح عند تلك البوابة وقال أحدهم: «أورقكم أيها المسافرون!».

وانتحى ديفارج بأحد الضابط جانبا وقال له: «انظر هذه الأوراق يا حضرة الضابط. إنها للسيد ذي الشعر الأبيض داخل العربة، وأنا قد استلمتها معه من – وانخفض صوته إلى أكبر حد ممكن، وتحركت المصابيح العسكرية، ودخل أحد المصابيح إلى داخل العربة في يد تحت كم سترة عسكرية، ونظرت عينا شخص يرتدى الملابس العسكرية داخل العربة نظرة لا تتكرر كل يوم ولا كل ليلة، نظر نحو الرجل ذى الشعر الابيض ثم قال: «كل شيء على ما يرام. تقدموا!» وقال السيد ديفارج: «وداعًا!».

وهكذا تحت ضوء مصابيح كان نورها يزداد خفوتا وضعفا من آن لآخر تحركت العربة فوق مساحات شاسعة لا يضيئها إلا النجوم.

❊❊❊❊

الفصل الرابع

بعد خَمْس سنوات
Five Years Later

كان بنك «تلسون» بالقرب من مشرب «تمبل» مبنى عتيقا حتى بالنسبة إلى مبانى عام ألف وسبعمائة وثمانين. وكان الرجال الطاعنون في السن يقومون بأعمالهم بذات الكفاءة التي كانت الدواليب القديمة وصناديق حفظ الأوراق تؤدى بها وظائفها مع وجود فرق واحد هو شعور الرجال بالحزن لسبب أو لآخر. وعندما كانوا يضمون رجلا شابا إلى العاملين بالبنك كانوا يحتفظون به مختبئا في مكان ما ولا يظهرونه للتعامل مع الجمهور إلا بعد أن يصبح رجلا عجوزا. كانوا يحتفظون به في مكان معتم مثل قطعة من الجبن حتى يكتسب نكهة العمل في بنك تلسون كاملة عندما يصبح مثل قطعة الجبن يعلوها الفعن الأزرق اللون.

وخارج بنك تلسون كان يقبع دائما موظف غريب الشكل لا يدخل إلى داخل البنك أبدا ما لم يُدْعَ إلى الدخول. كان يعمل كبوَّابٍ وساعٍ، وكان الناس يعرفون هذا الموظف من موظفى بنك تلسون ويقدرون حياته الرتيبة الإيقاع بعد أن تعوَّدُوا عليها. وكان البنك كله قد أَلِفَ وجوده وجهوده في العمل، وكان الزمان وصروفه قد قذفوا بذلك الرجل إلى ذلك العمل بالبنك. وكان اسمه جيرى كرانشر.

وعندما جلس في مكانه المعتاد في الساعة التاسعة إلا ربع الساعة، في وقت مناسب لكى يلمس بيده قبعته المثلثة الشكل تحية لأقدم الموظفين من الرجال الطاعنين في السن وهم يمرون به داخلين إلى بنك تلسون ليواصل جيرى الجلوس في مكانه المعتاد في صباح يوم عاصف من أيام شهر مارس. ولقد ظهر الآن رأس واحد من السعادة العاملين في داخل البنك من الباب وأصدر له الأمر المعتاد إصداره إليه عندما يريدونه داخل البنك: «البواب مطلوب!».

وقال واحد من أقدم الموظفين الكتابيين بالبنك مخاطبا جيرى البواب: «أنت تعرف مجموع محاكم أولد بيلى جيدا بدون شك». فقال جيرى: «أي ياى، نعم يا سيدى. أنا أعرفها بالتأكيد». فقال الرجل العجوز: «وهو كذلك. وأنت تعرف السيد لورى؟» فقال جير: «أعرف السيد لورى أكثر من معرفتى محكمة أولد بيلى بكثير».

فقال الكاتب العجوز: «حسنا جدا، ابحث عن الباب الذي يدخل منه الشهود إلى المحكمة وأطلع البواب على هذه المذكرة الموجهة إلى السيد لورى، وهو سيدعك تدخل عندما تراها». فقال جيرى: «وهل يتعين أن أمكث موجودا داخل المحكمة يا سيدى؟» فقال الكاتب العجوز: «أنا سأخبرك كل ما ستفعله. البواب سيقوم بتوصيل المذكرة إلى السيد لورى. وأنت بالتأكيد ستقوم بعمل إشارة لتنبه السيد لورى بمكان وقوفك، وبعد ذلك فككل ما عليك أن تعمله هو أن تظل موجودا حتى يريد السيد لورى». فقال جيرى: «هل هذا هو كل المطلوب منى يا سيدى؟» فقال الكاتب العجوز: «هذا هو كل المطلوب منك. إنه يريد أن يكون أحد السعاة تحت تصرفه. وكل المطلوب منك هو أن تخبره أنك موجود تحت تصرفه».

وبينما كان الكاتب العجوز يطوى الورقة بعناية قال له السيد كرانشر: «أنا أعتقد أنهم سينظرون قضايا التزييف اليوم في المحكمة؟» فرد عليه الرجل العجوز قائلا: «قضايا الخيانة!».

وأخذ جيرى الخطاب، وانحنى، وخرج يمشى في طريقه إلى المحكمة وبعد أن كان قد استطاع أن يشق طريقه وسط الزحام حول المحكمة، وجد بواب البنك الباب الذي كان يريد وسلم الخطاب الذي معه من خلال كوَّة في الباب. وبعد شيء من الوقت والترقب انفتح محدثا بعض الصرير ليفسح ممرًا ضيقا لدخول شخص واحد وليسمح للسيد جيرى كرانشر لكى يدخل في زحام الناس الموجودين داخل المحكمة.

وقال جيرى كرانشر للرجل الذي صادفه بجواره: «ما نوع القضايا التي تنظرها المحكمة؟» فقال الرجل: «لم تنظر المحكمة أي قضايا حتى الآن». فقال جيرى: «وما هي القضية التي ستنظرها المحكمة عندما تبدأ نظر القضايا؟» فقال الرجل: «قضية الخيانة».

ويتجه نظر السيد كرانشر الآن إلى الحاجب الذي شاهده يفسح الطريق للسيد لورى الذي جلس إلى المنضدة والمذكرة في يده بين رجال يرتدون فوق رؤوسهم الشعر المستعار، وكان على مقربة منهم المحامى صديق المتهم وأمامه حزمة ضخمة من الأوراق وكان يجلس في مواجهته رجل آخر على رأسه الشعر المستعار ويداه بداخل جيوبه وكان انتباهه مركزا في النظر إلى السقف. وبعد أن سعل وحك ذقنه عدة مرات ولوح بيده استطاع السيد جيرى أن يلفت نظر السيد لورى إلى وجوده بالقاعة، ونهض السيد لورى واقفا لكى يتحقق من النظر إليه ثم أومأ له برأسه وعاد إلى الجلوس.

ولقد أصبح القفص الذي يوضع بداخله المتهمين هو محط كل الأنظار الآن. وخرج من الحجرة جنديان من مصلحة السجون كانا يقفان بجوار القفص وأحضرا السجين المتحفظ عليه ووضعاه وراء القضبان بداخل القفص. وكان كل شخص موجود داخل قاعة الجلسة يحملق فيه ما عدا الرجل الذي كان يضع على رأسه الشعر المستعار ويحملق على الدوام في السقف. وكان موضع كل هذه الحملقة رجلا شابا في حوالى الخامسة والعشرين من العمر، وكان قوى البنيان حسن الشكل له وجه لوَّحتْه الشمس وعينان لونهما من الألوان الغامقة المفعمة بلونها. وكانت ملابسه لونها أسود عموما. وكان شعره الطويل الذي يمتاز لونه بالثراء والفروة مربوطا بشريط وراء رقبته نزولا على مقتضيات الضرورة وليس نزولا على مقتضيات الزينة. وكان شاحب الوجه ولكنه كان يبدو متمالكا جماع نفسه. وانحنى الرجل باحترام تجاه القاضى، ووقف داخل القفص هادئا رابط الجأش.

وساد الصمت داخل قاعة الجلسة! في اليوم السابق، كالن تشارلس دارنى، المتهم، قد أدعى أنه كان «غَيْرَ مُذنِب» في الاتهام الموجه إليه (على نحو قاطع) بأنه كان قد اقترف جناية الخيانة العظمى لأمير بلادنا الجليل الموقر الملك وذلك بسبب أن المتهم كان في مناسبات عديدة وبوسائل وطرق كثيرة متنوعة يساعد الملك لويس في حروبه ضد أميرنا الجليل الموقر ملك بلادنا وذلك بأن المتهم كان يدأب على السفر جيئة وذهابا بين بلاد أميرنا الجليل الموقر ملك بلادنا وبين بلاد المدعو لويس ملك فرنسا وينقل إليه ويكشف له عن قوات واستعدادات أميرنا الجليل الموقر ملك بلادنا وذلك فيما يتعلق بشأن استعدادنا لإرسال القوات إلى كندا وأمريكا الشمالية. هذا الإنجاز الكبير قام به المواطن جيرى بكثير من الرضا

ووصل إلى قناعة أن كل ما سبق ذكره وأكثر منه وأكثر قد الشخص المدعو تشارلس دارنى الذي يقف بين أيديكم انتظارا لمحاكمته وهو ما يحكم بشأنه المحلفون ويستعد لبيانه وكيل النيابة المدعى العمومى ضد المتهم تشارلس دارنى.

إن المتهم الجانى (الذي كان يعرف مدى جرمه) وهو يستحق أن يشنق أو أن تُقْطع رأسه أو يقطع جسمه إربًا بأيدى كل الناس لم يجفل له جفن ولم ترتجف له يد (وهو يرتكب هذه الجناية ضد الوطن بل ارتكبها وهو هادئ البال متمالك الوعى يراقب مداخله إلى ما يريد التجسس عليه بكل شغف وبكل نهم، وها هو ذا يقف مرخيا يديه مستريحا.

وتطلع مديرا وجهه جهة اليسار من القاعة. وكان يجلس بالقرب من منصة القاضى شخصان تركز عليهما نظره تركيزا حادا لدرجة أن كل الأنظار اتجهت إليهما.

وشاهد المتطلعون إلى هذين الشخصين فتاة شابة يبلغ عمرها سنوات قليلة بعد العشرين، ورجلا كان يبدو أنه أبوها، وكان رجلا ذا مظهر وقور جدير بالاحترام نظرا لابيضاض كل شعر رأسه ونظرا للطيبة والوقار اللذين كانا يرتسمان على وجهه على الرغم من وضوح سمات الإباء والشمم في ملامحه. وإذ كان ذلك هو منظره العام فلقد كان يبدو طاعنا في السن، ولكنه بدا وهو يتكلم إلى ابنته رجلا حسن السمت لم تلفظه الحياة من نطاق القبول به.

وكانت ابنته تحيط خصره بذراعها وهي تجلس بالقرب منه وهي خائفة من المنظر حولها ومشفقة على الشخص السجين. وكان جبينها يعبر بوضوح عن شعور قوى بمدى خطورة موقف الرجل المتهم وكان ذلك الشعور المتعاطف مع المتهم من الوضوح لدرجة أن الناس الذين لم تكن لديهم

أي شفقة عليه قد تأثروا بمدى إشفاقها عليه. وسرت الهمسات بين الناس: «من هما؟» ليهمس أحدهم قائلا: «شاهدان» ويهمس آخر متسائلا: «لصالح من؟» فيقول أحدهم: «ضد» ليهمس الآخر «ضد من؟» فيرد عليه شخص آخر: «ضد المتهم».

وكان القاضى يضطجع في مقعده تتجه عيناه اتجاها واحدا لا يتبدل وكان ينظر إلى المتهم الذي كانت حياته بين يديه بينما كان وكيل النيابة ممثل الادعاء يجهز الحبل ويشحذ حد البلطة (التي ستقطع رقبة المتهم) ويدق المسامير لتثبيت أجزاء المقصلة.

وكان على وكيل النيابة المدعى العمومى أن يخبر المحلفين أن السجين الماثل أمامهم على الرغم من حداثة سنِّه فلقد كان مخضرما عريقا في خبراته وممارساته في مضمار الخيانة مما يستوجب أن يدفع حياته ويستوجب أن يحكم عليه بالإعدام جزاء لذلك الجرم الكبير. وأوضح المدعى العمومى أن المتهم كان قد اعتاد الانتقال بين فرنسا وإنجلترا مرات عديدة ليقوم بالمهام السرية التي لم يستطع أن يذكر لها سببا معقولا مشروعا. ولقد ألهمت العناية الإلهية شخصا لم يعرف الخوف سبيلا إلى قلبه لكى يكشف عن طبيعة خطط المتهم المرعبة وأبلغ عنها إلى رئيس إدارة الأمن العام لصاحب الجلالة. وهذا الشاهد سيمثل بين أيدى المحلفين لكى يدلى إليهم بشهادته. وهذا الشاهد كان صديقا للمتهم، ولكنه عندما اكتشف خيانته وجرائمه فلقد استقر رأيه على الإبلاغ عنها. وهذا التصرف النبيل من جانب هذا الشاهد الصادق الأمين يدل على الإخلاص للتاج الملكى على الرغم من أنه كان قد اتصل بالمتهم للعمل كخادم له، وهو الاعتبار الذي أفضى به إلى التصميم على تفتيش أدراج مكتب المتهم وتفتيش جيوبه وفحص كل أوراقه. وأوضح

المدعى العمومى أيضا أن شهادة هذين الشاهدين الموجودين بقاعة الجلسة بالإضافة إلى الوثائق التي اكتشفوها وسيتم تقديمها، وهذا كله يدل على أن المتهم كان مدججا بقوائم مكتوبة تحوى بيانات عن القوات العسكرية لصاحب الجلالة الملك وكذلك مواقعها وكافة استعداداتها في البحر والبر، وهو ما لا يدع مجالا لأي شك في أن المتهم كان قد اعتاد تسريب مثل هذه المعلومات إلى دولة معادية. وقال المدعى العمومى أيضا أن تلك القوائم صحيح أنه لم نتمكن من إثبات أنها بخط يد المتهم، ولكن هذا إن دل على شيء فهو يدل على أن المتهم بارع في الحذر والاحتياط. وذكر المدعى العمومى أن هذه الأدلة يرجع تاريخها إلى خمس سنوات مضت مما يدل على أن المتهم راسخ القدم ومنغمس في هذه المهام المشينة من مهام التجسس والخيانة منذ الأيام الأولى بين القوات المسلحة البريطانية وبين الأمريكيين. وأنهى المدعى العمومى مرافعته بقوله إنه لهذه الأسباب فالمحلفون لكونهم يحرصون على صالح الوطن (كما يعرف المتهم ذلك) وباعتبار أنهم مسئولون عن أمنه وسلامته (كما يدركون ذلك) فمن الضرورى أن يدمغوا المتهم بالجرم ومنم الضرورى أن يحكموا عليه بالإعدام سواء كانوا يحبون ذلك أم يكرهونه.

وعندما انتهى المدعى العمومى من مرافعته علت الهمهمة في قاعة المحكمة عند ظهور الشهود في المكان المخصص للشهود. وعرض المحامى العمومى لمناقشة الشاهد الأول: السيد «جون بارساد» وهو سيد ظاهرى السيادة بالاسم فقط. وهو كما وصفه المدعى العمومى بالضبط لولا بعض العيوب والهنات في شخصيته. وهو قد تخلص من حمله الذي كان يرهق ظهره وأزاح عن صدره ما كان يثقل ضميره، وكان يمكن أن يكون

شاهدا معتبرا لولا أن المحامى الذي كان يضع الشعر المستعار على رأسه ويضع مجموعة من الأوراق أمامه، وكان يجلس غير بعيد عن السيد لورى طلب أن يسأله بضعة أسئلة قليلة. كان الرجل الآخر الذي كان يضع على رأسه هو الآخر شعرا مستعارًا لا يزال ينظر إلى السقف.

وسأل المحامى الشاهد: «ألم يكن الشاهد نفسه جاسوسا من قبل؟ لا، إنه يحتقر هذا العمل الوضيع. علام كان الشاهد يعيش؟ على أملاكه. وأين أملاكه؟ إنه لا يستطيع أن يذكر هذه الأملاك وهو لا يستطيع أن يحدد مكانها فهو لا يتذكره.

ما هذه الأملاك التي يعيش عليها بالضبط؟ ليس هذا من شأن أي شخص آخر. هل هو قد ورث هذا الممتلكات التي يزعم أنه كان يعيش من دخلها؟ نعم، لقد كان قد ورثها. عمن كان قد ورثهما؟ عن أحد أقاربه قرابة بعيدة. هل هى قرابة بعيدة جدًا؟ إلى حد ما. هل سبق أن دخل الشاهد السجن لتنفيذ حكم صدر ضده بالحبس داخل السجن؟ بالتأكيد لا. ألم يدخل الشاهد أبدا سجن المدنيين؟ تقول مرة أخرى أنك لم تدخل سجن المدنيين؟ تقول نعم دخلت سجن المدنيين؟ كم مرة دخلت سجن المدنيين؟ مرتان أو ثلاث مرات. ألم تدخل سجن المدنيين خمس أو ست مرات؟ ربما. ما مهنتك؟ من ذوى الأملاك. ألم يركلك أحد؟ ربما. ألم يحدث ذلك في مرات كثيرة؟ بالتأكيد لا. لقد تلقيت ركلة ذات مرة وجعلتنى أتدحرج على السلم. هل كان ذلك بسبب أنك كنت تغش وأنت تقامر عندما كنت تلعب النرد؟ قيل شيء من هذا القبيل من جانب الشخص الذى كان قد ركلنى وهو سكران مخمور ولكنه غير صحيح. هل كنت تقترض نقودا من المتهم؟ نعم. هل كنت ترد له هذه النقود؟ هل كان هذا الابتزاز للمتهم في نطاق ضيق على نحو طفيف أم

أنك كنت تفاجئه بطلب النقود في المركبات والحانات ومختلفة الأماكن؟ وأنت قد رأيت هذه القوائم مع المتهم؟ بالتأكيد. ألا تعرف أي شيء عن هذه القوائم؟ لا. ألم تختلق أنت هذه القوائم؟ لا. هل كنت تتوقع أن تحصل على أي شيء من ورائها؟ لا. ألم تكن تأخذ مكافأة مالية من الحكومة مع الوعد بتقديم وظيفة لك لكى توقع بالمتهم؟ آه يا عزيى لا. ألم تكلف من جهة الحكومة أن تفعل أي شيء؟ آه، يا عزيزى، لا. هل تقسم على ذلك؟ وردد الشاهد القسم عدة مرات.

والخادم الفاضل المدعو «روجر كلاى» شق طريقه للإدلاء بشهادته في القضية. كان قد التحق بخدمة المتهم بكل بساطة وبكل نية حسنة منذ أربع سنوات. كان قد سأل المتهم في ميناء كاليه ما إذا كان يريد شخصا ماهرا وألحقه المتهم بالعمل معه. وهو لم يكن يفكر أنه كان قد ألحقه بالعمل لمجرد الرغبة في فعل الخير، وبدأ الشك يخالجه بشأن المتهم. وبدأ يراقبه بعد ذلك. وعندما كان يرتب ملابس المتهم عثر على قوائم بها معلومات في جيوب المتهم أكثر من مرة. وكان قد أخذ هذه القوائم من درج مكتب المتهم. ولدى استجواب المحامى له ذكر أنه لم يكن هو الذي وضع هذه القوائم في درج مكتب المهتم. وذكر أنه لم يسبق اتهامه بسرقة براد شاى مصنوع من الفضة وأنه كان قد أدين بسرقة إناء من نوع آخر وذكر أنه كان قد تعرف على الشاهد الأول منذ سبع أو ثمانية أعوام وأن ذلك كان بمحض الصدفة ولم تكن تلك صدفة غريبة فكل المصادفات ربما تبدو غريبة.

واستدعى المدعى العمومى السيد جارفيز لورى لكى يدلى بشهادته وسأله: «يا سيد جارفيز لورى، هل أنت موظف أعمال كتابية في بنك تلسون؟» فقال: «نعم. أنا كاتب في بنك تلسون». وسأله: «هل حتم

عليك العمل أن تسافر من لندن إلى دوفر في عربة البريد في ليلة يوم من أيام الجمعة في شهر نوفمبر عام ألف وسبعمائة وخمسة وسبعين؟» فقال: «نعم، حدث ذلك». وسأله: «هل كان يوجد مسافرون آخرون بعربة البريد؟» فقال: «اثنان». وسأله: «هل ظلوا موجودين على الطريق أثناء الليل؟» فقال: «نعم. هذا هو ما حدث». وقال له المدعى العمومى: «يا سيد لورى، انظر إلى المتهم. هل كان هو أحد هذين الرجلين؟» فقال: «أنا لا أستطيع أن أقول إنه كان أحدهما». وسأله: «هل يشبه أحدهما؟» فقال: «كان هذان الشخصان ملفوفين تماما في الملابس (بسبب البرد الشديد) وكانت الليلة دامسة الظلام، وكنا مشغولين الدرجة أننى لا أستطيع أن أقول ذلك». فقال المدعى العمومى: «يا سيد لورى. انظر مرة أخرى إلى المتهم. ولو افترضنا أنه كان متدثرا بالملابس بنفس الطريقة التي كان كل من هذين الشخصين قد تدثرا بها، هل يوجد أي شيء في هيئته يمكن أن تجعل من غير المحتمل أن يكون هو أحد هذين الشخصين؟» فقال: «لا». فقال المدعى العمومى: «أنت لا تستطيع أن تقسم أنه لم يكن أحد هذين الشخصين. أليس كذلك؟» قال: «لا». وقال المدعى العمومى: «وبناء على ذلك تستطيع أن تقول إنه يجوز أن يكون أحدهما؟» فقال: «نعم، فيما عدا أننى اتذكر أنهما كانا خائفين من قطاع الطريق كما كنت أنا أيضا أخافهم، ولا يبدو على المتهم أنه ممن يخافون». وقال المدعى العمومى: «يا سيد لورى، انظر مرة أخرى إلى المتهم. هل رأيته ذات مرة من قبل في نطاق معرفتك الأكيدة؟» فقال السيد لورى: «لقد رأيته ذات مرة من قبل». فقال المدعى العمومى: «متى؟» فقال لورى: «كنت عائدا من فرنسا بعد أيام قليل من تلك الرحلة، وفي ميناء كاليه ركب المتهم نفس السفينة الصغيرة التي كنت عائدا فوق ظهرها وقضى معى مدة تلك الرحلة». وقال المدعى العمومى: «هل كنت مسافرا وحدك يا سيد لورى

أم كان معك رفاق؟» فقال لورى: «كان معى رفيقان. رجل وامرأة. إنهما موجودان هنا». فقال المدعى العمومى: «إنهما موجودان هنا. هل تم أي حوار بينك وبين المتهم أثناء تلك الرحلة؟» فقال لورى: «لم يكد أي حوار يدور بيننا. كان الجو عاصفا. وكان الطريق طويلا وشاقا. ورقدت على أريكة تقريبا من شاطئ الإقلاع حتى شاطئ الوصول».

ونادى المدعى العمومى: «يا آنسة مانيت!» ووفقت الشابة التي كانت محط الأنظار من قبل واتجهت إليها كل الأنظار من جديد في مكانها، ونهض أبوها واقفا بجوارها ويدها مشبوكة في ذراعه.

وقال لها المدعى العمومى: «يا آنسة مانيت، انظرى إلى المتهم». وكان النظر إلى المتهم بكل شبابه وجماله أكثر صعوبة من مواجهة كل نظرات الجمهور.

وقال المدعى العمومى: «يا آنسة مانيت، هل سبق لك رؤية المتهم من قبل؟» فقالت: «نعم يا سيدى». فقال: «أين ومتى؟».

فقالت: «فوق ظهر السفينة الصغيرة التي سبقت الإشارة إليها يا سيدى وفي نفس المناسبة (مناسبة سفرى مع السيد لورى ووالدى من كاليه إلى دوفر». فقال المدعى العمومى: «أنت إذن الشابة التي سبق أن أشار إليها السيد لورى؟» فقالت: «أنا لسوء حظى!» واختلط صوتها المفعم بالأسى بصوت القاضى وهو يقول لها: «أجيبى عن الأسئلة التي توجه إليك ولا تبدى أي ملاحظات على الإجابة». وسألها المدعى العمومى: «يا آنسة مانيت، هل تمت أي محادثة بينك وبين المتهم في الطريق عبر القنال؟» فقالت: «نعم يا سيدى». فقال: «اذكرى لنا تفاصيل المحادثة».

وفي خضم الصمت المخيم والهدوء بدأت تقول بصوت هادئ النبرات: «عندما جاء السيد إلى السفينة-» فقاطعها القاضى بقوله: «هل تقصدين المتهم؟» فقالت: «نعم يا سيدى» فقال لها: «إذن قولى السجين». فقال: «عندما جاء السجين إلى السفينة لاحظ أن والدى كان متعبا جدا «ونظرت نحو والدها) ولاحظ أن حالته الصحية ضعيفة جدا. وكانت حالة والدى الصحية من الضعف بحيث إننى كنت أخشى أن أدخله (إلى إحدى الممرات) بعيدا عن الهواء، وجهزت له فراشًا على ظهر السفينة أمام السلم، وجلست على ظهر السفينة بجواره لكى أرعى شئونه. ولم يكن فوق ظهر السفينة مسافرون آخرون في تلك الليلة فيما عدانا نحن الأربعة. وكان السجين طيبا لدرجة أنه نصحنى وأرشدننى كيف أحمى والدى من الريح وحالة الجو على نحو أفضل مما كنت قد فعلت. ولقد عبر عن شديد عطفه وحنانه نحو حالة والدى وأنا متاكدة أنه كان صادقا في ذلك. وكانت تلك هى بداية محادثتنا». وسألها المدعى العمومى: «اسمحى لى أن أقاطع كلامك. هل كان المتهم قد جاء إلى ظهر السفينة بمفرده؟».

فقالت: «لا». فقال لها: «كم عدد الرجال الذين كانوا معه؟» فقالت: «رجلان فرنسيان». وسألها: «هل هم اجتمعوا سويا؟» فقالت: «اجتمعوا سويا حتى آخر لحظة عندما كان من الضرورى أن يذهب الرجلان الفرنسيان إلى قاربهما». فسألها: «هل تتم تبادل أي أوراق تشبه هذه الأوراق فيما بينهم؟» فقالت: «تم تبادل بعض الأوراق فيما بينهم ولكننى لا أعرف أي أوراق كانت تلك الأوراق». فقال لها: «مثل هذه الأوراق من حيث الشكل والحجم؟» فقالت: «هذا ممكن ولكننى حقا لست متأكدة».

فقال لها: «استمرى الآن في سرد تفاصيل حديثك مع المتهم يا آنسة مانيت». فقالت: «كان المتهم صريحا معى كما أنه كان متعاطفا طيبا ومفيدا لوالدى». ثم بكت وهي تقول: «وأنا آمل ألا يوجد أي احتمال لأن أكافئه على ذلك بأن أتسبب في إلحاق الضرر به اليوم». فقال لها المدعى العمومى: «يا آنسة مانيت، لو لم يفهم المتهم تماما أنك تدلين بشهادة من واجبك الإدلاء بها بكل تجرد فإنه يكون هو الشخص الوحيد الذي ينفرد بمثل هذا التصور الخاطئ. استمرى في الإدلاء بشهادتك من فضلك». فقالت: «هو أخبرنى أنه كان مسافرا من أجل مهمة دقيقة وشاقة، وهذه المهمة كان يجوز أن تسبب للناس المتاعب وأنه لهذا السبب كان مسافرا باسم مستعار. وقال إن هذه المهمة ستجعله يعود إلى فرنسا خلال أيام قليلة وكان يجوز أن تجعله يتردد بعد ذلك بين فرنسا وإنجلترا على امتداد وقت طويل».

وقال المدعى العمومى للقاضى إنه يعتبر أن من الضررى لمجرد استيفاء الشكل أن يستدعى والد الفتاة الدكتور مانيت للإدلاء بشهادته (مع عدم الحاجة إليها باعتبار أن ما قالته الفتاة يكفى) ونودى الدكتور مانيت وقال له المدعى «يا دكتور مانيت، انظر إلى المتهم. هل سبق لك أن رأيته؟» فقال: «مرة واحدة. عندما زارنى بمسكنى في لندن منذ ثلاث سنوات ونصف». قال المدعى العمومى: «هل تستطيع أن تقر أنه هو نفس الشخص الذي كان مسافرا معكم على ظهر السفينة أو هل تستطيع أن تتكلم عن محادثته مع ابنتك؟» فقال الدكتور مانيت: «يا سيدى، أنا لا أستطيع هذا ولا ذاك». فقال: «هل يوجد سبب لعدم استطاعتك؟» فقال الدكتور مانيت: «نعم، يوجد سبب لذلك». فقال المدعى العمومى: «هل السبب هو سوء حظك الذي أدى إلى أن تُسْجَنَ لمدة طويلة بدون محاكمة أو مجرد اتهام في موطنك

الأصلى يا دكتور مانيت؟» فقالك «كان سجنا مدته طويلة جدا». فقال المدعى العمومى: «هل كنت قد أطلق سراحك من السجن حديثا آنذاك؟» فقال: «يقولون لي ذلك». فقال المدعى العمومى: «هل تستطيع أن تتذكر تلك المناسبة على أي نحو؟» فقال الدكتور مانيت: «لا أستطيع أن أتذكر أي شيء. توجد غشاوة مسدلة فوق عقلى. أحيانا لا أستطيع أن أحدد الوقت الذي شغلت فيه نفسى بصناعة الأحذية وذلك الوقت الذي وجدت نفسي أثناءه في مدينة لندن هنا مع ابنتى العزيزة».

وجلس المدعى العمومى. وجلس الأب والابنة سويا وسيطر على أذهان الناس تصور واحد في هذه القضية. كانت المعلومات المتاحة في القضية توضح أن المتهم كان قد جاء مع عربة البريد ليلة يوم الجمعة في شهر نوفمبر منذ خمس سنوات، وغادر عربة البريد أثناء الليل الذي اتخذ منه ستارا إلى مكان لم يستقر فيه وقتا طويلا بل انتقل منه حوالى عشرة أميال أو أكثر قليلا إلى مدينة عسكرية حيث جمع المعلومات. واستدعى أحد الشهود ليشهد أنه كان قد شاهده في ذلك المكان وفي ذلك الوقت في حجرة تناول القهوة في نفس تلك البلدة التي تقع فيها المعسكرات الحربية وهو ينتظر شخصا آخر. وحاول محامى المتهم مناقشة هذا الشاهد ولم يحقق معه أي نجاح يُذْكَر فيما عدا أنه قرر أنه لم يكن قد شاهد المتهم في أي مناسبة أخرى. وعند هذه النقطة، كتب الرجل الذي كان يضع على رأسه الشعر المستعار وينظر باستمرار إلى السقف بضع كلمات فوق ورقة صغيرة وقذف الورقة إلى المحامى. وعندما فتح المحامى الورقة نظر إلى المتهم بتركيز شديد ثم سأل الشاهد قائلا له: «أنت تقول مرة أخرى أنك متأكد تماما أن ذلك الشخص كان هو المتهم؟» وأجاب الشاهد: «إنه متأكد من ذلك تماما إلى

حد أنه يستحيل أن يكون مخطئا في ذلك». فقال المحامى للشاهد: «انظر إذن إلى هذا الرجل، صديقى الذي يجلس هناك». وأشار نحو الرجل الذي كان قد أرسل إليه الورقة الصغيرة ثم استطرد المحامى قائلا: «ثم انظر إلى المتهم. ماذا تقول؟ هل هما متشابهان؟».

وفيما عدا أن صديق المحامى كان يبدو مهملا في شكله العام فلقد كان يشبه المتهم لدرجة أثارت الدهشة لا للشاهد وحده ولكن أثارت دهشة كل الموجودين في قاعة الجلسة. ورجا المحامى أن يأمر القاضى صديقه بأن يخلع الشعر المستعار فوق رأسه، أصبح التشابه بينهما أكثر وضوحا. وسأل السيد سترايفر (محامى المتهم): «هل ستحاكمون صديقى السيد كارتون بتهمة الخيانة؟» وأجاب السيد سترايفر نفسه السؤال بقوله: «بالطبع لا». وسأل الشاهد: «هل تستطيع أن تقطع برأى أنك أنك قد شاهدت هذا الشخص بعينه دون سواه بمثل إصراره على أنه قد شاهد المتهم بعينه دون سواه؟» وكان من نتيجة ذلك أنه قد تم دحض شهادة هذا الشاهد دحضا تاما وانهار الدور الذي كان مسندا إليه في القضية تعزيزا للاتهام.

وهكذا هيأ السيد سترايفر القضية للمحلفين ودعاهم إلى إصدار حكمهم بشأنها موضحا لهم أن المواطن باساد (الشاهد الأول) كان في حقيقة الأمر يعمل جاسوسا مأجورا ومصاص دماء وواحدا من أحقر الأنذال فوق سطح الأرض. وأوضح لهم أن الخادم الفاضل المدعو كلاى (الشاهد الثاني) كان صديقا للشاهد الأول وكان جديرا بصداقته. وأوضح المحامى كيف أن عينى كل من هذين الشاهدين الحانثين بالقسم قد استقرت واتفقت على أن يجعلا من المتهم ضحية لهما. وأوضح المحامى للمحلفين أن المتهم بريئ لكونه من أصل فرنسى، ولأسباب تتعلق بأسرته في فرنسا فلقد كان مضطرا إلى

السفر عبر القنال الإنجليزى. وأوضح المحامى أن كل أقوال الشاهدة التي كانت صادقة في الإدلاء بأقوالها لا تدل على أي شيء يدين المتهم وكل أقوالها قد تمخضت عن لا شي.

ونادى السيد سترايفر شهوده (لكى يدلوا بشهادتهم لصالح المتهم ولنفى التهمة عنه) وعاد المدعى العمومى بعد ذلك للكلام فذكر أن بارساد وكلاى أفضل مائة مرة مما يظن المحامى بشأن كل منهما وأن المتهم أسوأ مائة مرة مما يصوره المحامى. وبعد ذلك قام القاضى بتلخيص عناصر القضية ولم يكن يتكلم لصالح المتهم. وانصرف المحلفون بعد ذلك لكى يتداولوا بشأن الحكم في القضية. وعاد أزيز وطنين الكلام ليسود في قاع الجلسة.

وكان السيد كارتون طوال الجلسة يجلس ويداه في جيوب معطفه وعيناه تحملقان في السقف. وعلى الرغم من ذلك كان السيد كارتون يرقب كل شيء في قاعة الجلسة أكثر من أي شخص آخر لأنه عندما مالت الآنسة مانيت برأسها فوق صدر أبيها كان السيد كارتون هو أول من لاحظ ذلك، وقال بصوت مسموع: «يا حضرة الضابط. عالج شأن الفتاة وساعد أباها أن يخرجها من القاعة، ألا تدرك أنها قد أغمى عليها؟» وكان هنالك لغط بشأنها وهي تغادر القاعة وكان هناك تعاطف كبير مع أبيها. كانت محنة قاسية أن يضطر إلى أن يتذكر أيام السجن القاسية.

وبينما كانت الآنسة مانيت وأبوها يخرجان عاد المحلفون، وتوقفوا عن الكلام برهة قصيرة، ثم تكلم كبير المحلفين وذكر أن المحلفين لم يتفقوا على إدانة المتهم وكانوا يرغبون في التنحى عن الحكم بإدانة المتهم. اندهش القاضى لأنهم لم يتفقوا على إدانة المتهم. ولكنه عبر عن سروره لرغبتهم في

التخلى عن القضية وأعلن أنه هو أيضا يتخلى عن القضية. وكانت المحاكمة قد استمرت طوال النهار، وكانت المصابيح في قاعة المحكمة قد أضيئت.

وعاود السيد لورى الظهور بعد أن لم يكن موجودا بالقاعة لمتابعته إخراج الشابة وأبيها منها. ونادى جيرى (بواب البنك) وقال له: «يا جيرى، لو تحب أن تتناول شيئا تأكله فأنت تستطيع ذلك. ولكن يجب أن تظل على مقربة منى أنت بالتأكيد ستكون موجودا عندما يدخل المحلفون. لا تتأخر عن ذلك لحظة واحدة لأننى أريدك أن تنقل الحكم في هذه القضية إلى البنك».

وكان جيرى لديه من سعة الأفق ما يكفى لإنجاز المطلوب منه والحصول على شيء يأكله والتزم بعمل اللازم لإجراء الاتصال المطلوب وحصل على شلن. وفى تلك اللحظة (التي كان جيرى يتناول أثناءها الشلن من السيد لورى، جاء السيد كارتون ولمس ذراع السيد لورى وقال له: «كيف حال الآنسة؟» فقال السيد لورى: «إنها حزينة جدا ولكن أباها يواسيها ولقد شعرت بالتحسن لخروجها من قاعة المحكمة». فقال السيد كارتون: «أنا سأقوم بإبلاغ المتهم بذلك إذ إنه ليس من المناسب لموظف بالبنك مثلك أن يتكلم علنا إلى المتهم وأنت تعرف ذلك». واحمر وجه السيد لورى كما لو كان مدركا أن ما يدور بذهنه تم كشفه، وشق السيد كارتون طريقة نحو القفص وقال: «يا سيد دارنى!» وتقدم المتهم إلى واجهة القفص، فقال له السيد كارتون: «من الطبيعى أنك تحتاج بشدة أن تعرف حالة الشاهدة الآنسة مانيت. ستتحسن حالتها بسرعة، لقد رأيت أنت أسوأ حالات حزنها وأساها».

فقال دارنى: «إننى لآسف أعمق الأسف لأننى قد كنت سبب ذلك هل تستطيع أن تخبرها بذلك نيابة عنى مع بالغ شكرى وتقديرى وإعزازى؟» فقال السيد كارتون: «حسنا، أنا أستطيع ذلك وسأفعله لو طلبته منى».

وكانت طريقة السيد كارتون تنم عن عدم الاكتراث على نحو جارح. ووقف وجانبه نحو المتهم وقد أسند كوعه على واحد من قضبان القفص. وقال دارنى: «أنا بالتأكيد أرجوك أن تفعل ذلك وتقبَّل شكرى من أعماق قلبى».

وقال السيد كارتون وهو يواجه دارنى مواجهة جانبية: «ماذا تتوقع يا سيد دارنى؟» فقال دارنى: «الأسوأ». فقال دارنى: «هذه هى الحكمة بصدد ما يحسن أن يتوقعه الإنسان وهو التوقع الأكثر احتمالا، ولكننى أعتقد أن تنحيهم إنما هو لصالحك».

وانقضت ساعة ونصف ساعة في تثاقل. وكان الساعى قد جلس في ركن واستغرق في إغفاءه عندما أيقظته غمغمة صاخبة وحملته حركة تزاحم وتدافع الناس لكى يمشى معهم. وكان السيد لورى في تلك اللحظة يناديه: «جيرى! جيرى!» ورد عليه قائلا: «أنا هنا يا سيدى. من الصعب جدا أن أرجع إليك في عكس الاتجاه الذي يتدافع نحوه الناس. أنا هنا يا سيدى». وقذف السيد لورى إلى يده بورقة صغيرة وهو يقول له: «هيا، أسرع. هل التقطتها؟» وقال جيرى: «نعم يا سيدى». وكانت الورقة الصغيرة قد كتب عليها بسرعة كلمة واحدة هى: «البراءة».

الفصل الخامس

مساعد المحامى
The Jackal

من خلال الممرات المعتمة الإضاءة بالمحكمة، وبعد انقضاء آخر مراحل المعاناة البشرية التي كانت تقاسى آلام الترقب وغليان المشاعر هناك طوال النهار، وبعد انقضاء كل تلك المعاناة احتشد الدكتور مانيت وابنته والسيد لورى وهيئة الدفاع عن المتهم وعلى رأسهم السيد سترايفر ووقفوا ملتفين حول السيد تشارلس دارنى يهنئونه على نجاته من الموت.

ولقد كان من الصعب تحت أنوار ضعيفة أن يلاحظ أحد من الناس إشراق وجه الدكتور مانيت بالوعى بما حدث واعتدال قامته على نحو يختلف عن هيئته ومظهر صانع الأحذية داخل أحد المخازن في أحد المنازل في مدينة باريس. وعلى الرغم من ذلك كان يبدو عليه شيء من تشتت الذهن لسبب غير معروف وغير ظاهر.

وكان السيد سترايفر بجسمه الضخم، وصوته المجلجل ووجهه الأحمر وسرعة بديهته يشق طريقه – معنى ومبنى – بين جماعات من الناس وهو يجرى محادثة مع بعض الناس في إثر محادثة سريعة مع بعضهم الآخر، وكانت المحادثات كلها تدور حول براعته في أن يشق طريقه في الحياة بنجاح. وكان لا يزال يرتدى شعره المستعار والرداء الخاص بالمحامين

وقال وهو يشق طريقه لكى يصل إلى الشخص الذي كان يتولى الدفاع عنه مزيحا السيد لورى من طريقه: «أنا مسرور أننى أخرجتك من هذه القضية بريئًا غير مدان يا سيد دارنى. كان الاتهام فظيعًا، فظيعًا إلى حد كبير، ولكنه لم يكن اتهاما يستحيل النجاح في دفعه بالغا ما بلغت فظاعته».

وقال له موكله دارنى وهو يمسك بيده: «لقد جعلتنى مدينا لك بالحياة بمعنييها». فقال المحامى: «لقد بذلت قصارى جهدى من أجلك يا سيد دارنى، وما فلعته كان جيدا من أجود ما يستطيع أن إنسان فيما أعتقد».

وانصرف أصدقاء المتهم الذي حصل على البراءة من التهمة الموجهة إليه وتفرقوا إلى حال سبيلهم وهم يعرفون كما أخطرهم بذلك هو نفسه إنه لن يتم إخلاء سبيله في تلك الليلة. ولكن دارنى وجد نفسه في النهاية حُرًّا ووحيدا لا يقف بجانبه سوى السيد كارتون الذي كانت تفوح منه رائحة الخمر وكان يبدو مترنحا من تأثيرها عليه والتفت كارتون إلى دارنى وقال له: «هذه مصادفة غريبة تجمع بينى وبينك سويا. من الضرورى أن هذه ليلة غريبة بالنسبة إليك وأنت تقف هنا وحدك فوق أحجار هذا الشارع». فقال دارنى: «أنا لا أكاد أصدق حتى الآن أننى أنتمى إلى دنيا الأحياء في هذا العالم مرة أخرى».

وقال كارتون: «أنا لا أعجب من ذلك. لم يمض وقت طويل عندما كنت تمضى في طريقك في الحياة من طريق إلى طريق آخر. أنت تتكلم بكثير من الوهن». فقال دارنى: «لقد بدأت أعتقد أننى الآن خائر القوى يكاد يغمى علىَّ».

فقال كارتون: «ولماذا بحق الشيطان لا تتعشى؟ لقد تناولت أنا نفسى طعام الغداء عندما كانت تلك الجماجم المعلقة تختار لك العالم الذي

تنتمى إليه: «عالم الأموات أم عالم الأحياء) دعنى أرشدك إلى أفضل حانة يمكن لك أن تتناول فيها عشاءك».

وتأبط ذراعه واقتاده إلى إحدى الحانات. وتم إدخالهما إلى حجرة صغيرة حيث تناول تشارلس دارنى أفضل عشاء وأفضل عشاء وأفضل شراب استرد معهما كل قواه التي كانت خائرة من قبل. بينما كان كارتون يجلس قبالته إلى نفس المنضدة وأمامه زجاجة شرابه المفضل لديه وتنم ملامحه عن نصف استفزاز ونصف اشمئزاز. وقال كارتون: «هل تشعر الآن أنك تنتمى إلى منظومة عالمنا الأرضى مرة أخرى الآن يا سيد دارنى؟» فقال دارنى: «إننى مضطرب المشاعر على نحو مخيف فيما يتعلق بالزمان والمكان ولكننى قد تحقق لي الشفاء إلى حد يضع حدا للشعور بذلك». فقال كارتون: «من الضرورى أن يكون شعورك الآن هو الشعور بالرضا التام!» وقال ذلك بمرارة وملأ لنفسه كأسا أخرى من الشراب، وكانت كمية الشراب بالكأس كمية كبيرة.

وإذ كان تشارلس دارنى مختلط المشاعر في ذلك اليوم، وإذ كان يشعر إنه إزاء شخص خشن المسلك يمتزج في شكله ما هو ودى بما هو غير ودى، فلقد أجاب أخيرا بقوله: «كلا على الإطلاق». فقال كارتون عندئذ: «الآن وقد فرغت من تناول عشائك، لماذا لا تهتم بشأن الصحة يا سيد دارنى، ولماذا لا تعطى الخبز؟» فقال دارنى: «ما الصحة؟ وما الخبز؟» فقال كارتون: «ما هذا؟ إنها على طرف لسانك، أو بالأحرى كان يجب أن تكون على طرف لسانك. وأنا سأقسم لك أنها على طرف لسانك». فقال دارنى: «الآنسة مانيت إذن!» فقال كارتون: «الآنسة مانيت إذن!».

وبينما كان كان ينظر محملقًا في وجه رفيقه بينما كان يشرب كأسه، وبعد أن فرغ الكأس، أطاح كارتون كأسه الفارغ فوق رأسه ليصدم بالجدار خلفه حيث تحطم الكأس وتناثرت شظاياه ثم دق الجرس وطلب كأسا آخر ثم قال: «إنها سيدة جميلة رقيقة شابة تستدر العطف وتستحق بكاء كل من يبكى لأي أذى يصيبها. كيف يجب أن يكون الشعور نحوها؟ هل هي تستحق أن يحاكم إنسان من أجلها محاكمة قد تطيح بحياته لكي يستحق منها مثل هذا الحنان والتعاطف يا سيد دارنى؟» ولم يجب دارنى ذلك السؤال ولو بكلمة واحدة.

وقال كارتون: «لقد كانت مسرورة سرورا بالغا عندما تلقت منى رسالتك إليها عندما أبلغتها بها. وهي لم تقل إنها كانت في غاية السرور، ولكننى أعتقد أنها كانت في غاية السرور».

ولقد نبَّه هذا الخلط في الكلام السيد دارنى إلى أنه كان إزاء شخص معقد مختلط المشاعر، وهذا الشخص بمحض إرادته كان قد ساعده طوال ذلك اليوم . وحَوَّل دارنى الحديث إلى هذا الاتجاه وشكر كارتون من أجل ذلك. وكان رد كارتون غير المكترث على ذلك هو قوله: «أنا لا أريد أي شكر، ولا أستحق أي شكر. أنا لم أفعل شيئا في المقام الأول وأنا ثانيا لا أعرف لماذا فعلت ما فعلت إن كنت قد فعلت أي شيء. يا سيد دارنى اسمح لى أن أسالك سؤالا». فقال دارنى: «بكل ارتياح، سل ما بدا لك، وستكون إجابتى عن أي سؤال بكل صراحة مقابلا صغيرا لمواقفك الحسنة منى». فقال كارتون: «هل أنت تعتقد أننى على وجه الخصوص أحبك؟» فقال دارنى: «في الحقيقة يا سيد كارتون أنا لم أسال نفسي هذا السؤال». فقال كارتون: «سل نفسك

هذا السؤال الآن». فقال دارنى: «لقد تصرفت كما لو كنت تحبنى، ولكننى لا أعتقد أنك تحبنى». فقال كارتون: «أما أنا، فأنا لا أعتقد أننى أحبك. لقد بدأت الآن أحسن الظن بجودة قدرتك على الفهم». ثم استطرد كارتون يقول وهو ينهض ليقرع الجرس: «لا شيء في هذا فيما آمل يمنع من الصفاء بيننا لنفترق دون ضغينة من أحدنا تجاه الآخر. لا شيء يهم في هذه الحياة!» ودق دارنى الجرس فقال كارتون: «هل ستدفع كل الحساب؟» وعندما أجاب دارنى بالإيجاب، قال كارتون: «إذن هات لي زجاجة أخرى من هذا الشراب وتعال وأيقظنى في تمام الساعة العاشرة».

وبعد أن دفع دارنى فاتورة الحساب نهض واقفًا وصافح كارتون متمنيا له ليلة سعيدة. ونهض كارتون واقفا أيضا دون أن يرد تحية دارنى ولو بكلمة واحدة وكان في هيئته شيء من التحدى ثم قال: «بقيت كلمة واحدة يا سيد دارنى. هل تعتقد أننى سكران؟» فقال دارنى: «أنا أعتقد أنك قد شربت كثيرا يا سيد كارتون». فقال كارتون: «تعتقد؟ أنت تعرف أننى قد شربت كثيرا». فقال دارنى: «حيث إننى يلزم أن أقول ذلك، فأنا أعرف ذلك». فقال كارتون: «أنت إذن ستعرف السبب لكل شيء يتصل بى. أنا شخص خاب أمله يا سيدى. وأنا لا أعبأ بأي شخص في العالم، ولا يعبأ بى أي شخص في العالم». فقال دارنى: «هذا شأن يدعو إلى كثير من الأسف. كان من الأفضل أن تستخدم مواهبك على نحو أفضل من ذلك. فقال كارتون: «يجوز ما تقوله ولا يجوز. لا تدع وجهك الوسيم الوقور يتسبب في خداعك، وعلى كل حال، أنت لا تعرف كل ما يمكن أن تتمخض عنه الأمور، طاب مساؤك!».

وعندما تُركَ وحيدا، أخذ هذا الشخص الغريب الأطوار شمعة وذهب أمام أحد المرايا المعلقة على أحد الجدران، وأخذ يدقق ويحملق في ملامحه في المرآة. وتمتم يقول مخاطبا صورته في المرآة: «هل أنت تحب على وجه الخصوص ذلك الرجل؟ لماذا يلزم أن تحب على وجه الخصوص ذلك الرجل الذي يشبهك إلى حد التطابق التام؟ لا شيء فيك يمكن لإنسان أن يحبه، وأنت تدرك هذه الحقيقة. آه لقد امتزج شخصك مع شخصه! أي تغيير أمكن لك تغيره في داخل نفسك؟ هذا سبب قوى معقول للاستسلام لرجل يوضح لك إمكانية النجاح فيما فشلت أنت فيه، ويوضح لح ما يجب أن تكون عليه! بدِّل مكانك بمكانه وستحظى بأن تنظر إليك عينان لونهما أزرق كما حظى هو بذلك! هيا، وأفصح عن الحقيقة بكلمات واضحة! أنت تكره ذلك الشخص». وبحث عن زجاجة شرابه بحثا عن العزاء وشربها كلها في دقائق قليلة واستغرق في نوم عميق وقد طوى ذراعيه تحت رأسه.

ولقد قيل ذات مرة أن السيد سترايفر المحامى كان رجلا دَرَجَ في الحياة على سجيته، غير متزمت، وهو ذو نزعة تلقائية في تصرفاته، جرىء يفتقر إلى القدرة على استخلاص جوهر الحقائق من بين متعارض الأقوال وهي ميزة من أهم مزايا مقومات عمل المحامى البارع. ولكن تحسنا كبيرا قد أمكن له أن يحققه في هذا الصدد بمرور الزمن. وكلما ازداد اضطلاعه بالعمل في عديد من القضايا، كلما بدا أن قدراته تزداد في التمييز بين الاعتبارات المتناقضة والنفاذ إلى الجوهر من خلال الأعراض الظاهرة. ومهما تأخر به الوقت وهو جالس إلى وقت متأخر من الليل، يتسامر ويتناقش مع سيدنى كاتون فلقد كان دائما يجد أن الحل السليم للقضايا في متناول أصابع يده في الصباح.

وكان سيدنى كارتون من أكثر الرجال قصورا عن النجاح ومن أكثرهم تعطلا عن التوفيق في الحياة، وكان حليفا عظيما للسيد سترايفر. ولم يتعامل السيد سترايفر مع أي قضية في أي مكان بدون أن يكون كارتون معه ويداه مدسوستان كل منهما في أحد جيوبه وهو يحملق في سقف قاعة الجلسة بالمحكمة. وبمرور الوقت، أصبح من المعروف لكل من يعرف كلا منهما أنه على الرغم من أن سيدنى كارتون يستحيل أن يكون هو نفسه الأسد أي المحامى الذي يتحمل بمفرده مسئولية أي قضية، فلقد كان مساعدا ذا قدرات مدهشة للمحامى الذي يعمل معه، وكان من المعروف أنه يسدى إلى سترايفر يد العون من خلال ميزته المتواضعة هذه إلى أكبر حد ممكن.

وقال الرجل الذي كان قد عهد إليه بمهمة أن يوقظه من النوم: «الساعة العاشرة يا سيدى. الساعة العاشرة يا سيدى». فقال كارتون: «ماذا تعنى؟ هل هي الساعة العاشرة ليلا؟» فقال الرجل: «نعم. سيادتك قلت لي أن أوقظك». قال كارتون: «أوه، إننى أتذكر ذلك. حسنا جدًا، حسنا جدًا».

وبعد محاولات عقيمة أن ينام مرة أخرى كان الرجل يبددها بالتحريك المستمر للنار، نهض كارتون، ورشق قبعته فوق رأسه وخرج واتجه نحو مسكن سترايفر الذي فتح له الباب وهو يرتدى في قدمه الشبشب ومنامة واسعة وقال: «لقد تأخرت قليلا يا ميمورى».

فقال كارتون: «في الوقت المعتاد تقريبا، ربما تأخرت ربع ساعة».

ودخلا إلى حجرة متواضعة تغض بالكتب وبالأوراق المكدسة فيها نيران مدفأة متأججة اللهب. وكان إبريق الشاي يغلى فيه الماء فوق موقد

وكان الضوء يلمع فوق متضدة تكدست عليها الأوراق، وفوقها كمية كبيرة من المشروبات من أنواع مختلفة مع بعض السكر والليمون.

وقال سترايفر: «لقد شربت زجاجتك فيما أعتقد يا سيدنى». فقال سيدنى كارتون: «شربت الليلة زجاجتين فيما أعتقد أنا. كنت أتعشى مع موكلنا في قضية اليوم، أو بالأحرى، كنت أنظر إليه وهو يتناول عشاءه، سيان عندى هذا أو ذاك!» فقال سترايفر: «كانت لفتة بارعة نادرة المثال منك يا سيدنى عندما لَفَتَّ الانتباه إلى أهمية التحقق من الشخصية (بحيث عجز الشاهد أن يحدد ما إذا كان قد رأى المتهم أو أنه كان قد رأى شخصا آخر). وكيف خطرت بذهنك هذه الفكرة؟ متى بالضبط خطرت ببالك؟» فقال كارتون: «خطر ببالى أن المتهم كان رجلا وجيه الهيئة، واعتقدت أنا أننى كان يمكن أن أكون نفس هذا الشخص لو كان قد حالفنى الحظ». وضحك السيد سترايفر وهو يقول: «أنت ستتحدث عن نفسك وعن حظك يا سيدنى! هيا إلى العمل، هيا إلى العمل».

وخفف من ملابسه، ودخل إلى حجرة جانبية وعاد وهو يحمل إبريقا ضخما به ماء بارد، وحوضا للماء، ومنشفة أو منشفتين. وغمس المنشفتين في الماء وعصر منهما الماء، وعصب بهما رأسه بطريقة غريبة وجلس إلى المنضدة وقال: «أنا مستعد الآن». وقال السيد سترايفر: «لا شيء يبدو ملحا الليلة يا ميموري». وأخذ يقلب الأوراق وينظر فيها. فقال كارتون: «كم قضية؟» فقال سترايفر: «قضيتان فقط». فقال كارتون: «كم قضية؟» فقال سترايفر: «ها هما يا سيدنى، أجهز عليهما».

واستلقى سترايفر على ظهره فوق إحدى الأرائك بجوار المنضدة، بينما جلس زميلة إلى منضدة عليها الأوراق في الجانب من المنضدة، وأمامه الزجاجات والأكواب جاهزة تحت يده. وكان كل منها يتناول مشروبه من فوق المنضدة دون أي كلام، ولكن كانت طريقة كل منهما في المسلك تختلف عن طريقة مسلك الآخر. كان أحدهما يعاود وضع يده في خصره مكتفيا بالنظر إلى نيران المدفأة، أو كان يتأمل بعض المستندات البسيطة من آن لآخر، بينما كان الآخر مستغرقا في العمل وقد قطب حاجبيه وتقلصت ملامح وجهه لدرجة أن عينيه لم تكون تتبعان يده كما هو المألوف عندما يمد إنسان يده ليتناول كوبا من الشراب.

وفي النهاية كان المساعد قد توصل إلى تكييف ملائم للقضية قدمه لصاحبه الذي أخذه منه باهتمام، وقام باختيار مقتطفات منه ودَوَّنَ ملاحظات عليه، وكان مساعده يساعد سواء في اختيار المقتضفات أو تدوين الملاحظات. وعندما تمت مناقشة التكييف إلى أقصى مدى وضع أحدهما يده في خصره مرة أخرى واستلقى على ظهره وهو مستغرق في تأملاته. وعمد مساعده إلى إسعاف نفسه وأفرغ محتوى الكأس في حلقه، وقام بتجديد رباط رأسه وانهمك في تناول وجبة أخرى من الطعام كانت معه لزميله وكان لم يمسسها حتى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل. وقال السيد سترايفر: «لقد فرغنا من عملنا الآن يا سيدنى. هات لنا كوب من الشراب».

وأزال المساعد المناشف من حول رأسه، وتثاءب، وتمطى، وصع بتنفيذ الأمر الذي تلقاه من زميله. وقال سترايفر: «أنت على صواب إلى أكبر حد

يا سيدنى بشأن شهود الملك اليوم. كل سؤال له وجاهته». فقال سيدنى كارتون: «أنا دائما على صواب، ألست أنا دائما على صواب؟».

فقال سترايفر: «أنا لم أقل إنك لست على صواب. ما الذي جعل طبعك بهذه الخشونة؟ خذ مشروبا آخر ليحسن طبعك كالعهد به دائما». وانصاع المساعد للأمر مرة أخرى وتناول كأسا آخر من ذات المشروب.

وقال سترايفر وهو يطيل النظر متأملا حياة كارتون في الحاضر والماضى: «أنت هو أنت، سيدنى كارتون التلميذ بمدرسة شروبيرى القديمة المتأرجح بين القمة والقاع، يعلو شأنه في دقيقة وينحط شأنه في الدقيقة التالية، مرتفع المعنويات حينا، مكتئب من مخفض المعنويات في حين آخر!» ورد عليه كارتون بقوله وهو يتنهد: «آه! نعم! إنه هو سيدنى نفسه، حظه هو حظه نفسه لم يتغير، لقد كنت آنذاك أيضا، أيام المدرسة، أقوم بحل التمارين للأولاد الآخرين ونادرا ما كنت أقوم بحل التمارين الخاص بى». فقال سترايفر: «ولماذا لم تكن تقوم بحل التمارين الخاصة بك؟» فقال سيدنى كارتون: «علم ذلك عند اللّه، كانت تلك هي طريقتى آنذاك فيما أعتقد. والآن، أنا لن أشرب أي شيء أكثر مما شربت. سأذهب لأنام».

❋❋❋❋

الفصل السادس

مئات من الناس
Hundreds Of People

كان مسكن الدكتور مانيت يقع على ناصية شارع هادئ غير بعيد عن ميدان سوهو. وفي فترة ما بعد ظهيرة يوم من أيام الأحد، بعد أربعة شهور من تلك المحاكمة من أجل جريمة الخيانة العظمى، توجه السير لورى سيرا على قدميه في الشوارع التي كانت تغمرها أشعة الشمس لكي يتناول الغداء مع الطبيب. وبعد كثير من التعامل في شئون الأعمال المالية، كان السيد لورى قد أصبح صديقا للطبيب، وأصبح ذلك الركن الهادئ من ذلك الشارع هو الجزء المشمس من حياة السيد لورى.

كان نور الشمس في الصيف يغمر ذلك الركن في ساعات الصباح ولكن عندما كانت تزداد حرارة الجو في الشوارع بعد الظهيرة كان الظل يغمر ذلك الركن ويصير مكانا معتدل النسيم هادئا ولكنه مبهج ويليق ليكون مكانا مناسبا للسمر وتجاذب أطراف الحديث مرفأ ملائما للتخلص من ضجيج الشوارع المفعمة بالضجيج.

كان الدكتور مانيت يستقبل مرضاه في ذلك المكان مستفيدا من سمعته القديمة وبعثها من جديد من جراء الهمسات التي كانت تتناثر عن قصته مما جلب له شهرة لا بأس بها. وكانت معرفته العلمية وتثابرته على عمله ومهارته في السيطرة على خبراته العملية قد تمخضت عن إقبال معقول على عيادته

وكان يكسب من المال بقدر ما كان يريد. وكانت هذه الاعتبارات معروفة لدى السيد جارفيز لورى عندما دق جرس الباب لذلك المنزل الذي يحيط به الهدوء في ذلك الركن من الشارع في ساعات من ساعات ما بعد الظهيرة في يوم من أيام الأحد. وسال: «هل الدكتور مانيت بالمنزل؟» وكان جواب سؤاله هو أنه من المتوقع أن يصل إلى المنزل بعد قليل. سأل: «هل الآنسة لوسى بالمنزل؟» وكانت الإجابة هي أنه من المتوقع أن تصل إلى المنزل بعد قليل. وعندئذ قال السيد لورى: «نظرا لأننى أنا نفسى موجود بالمنزل فأنا سأصعد (لأنتظرهما بالطابق العلوى داخل المنزل).

وكان بالطابق الذي صعد إليه السيد لورى من المنزل ثلاث حجرات وكانت الأبواب فيها مفتوحة لكى يمر الهواء بحرية خلالها. ابتسم السيد لورى لدى ملاحظته لمسة الأنثى التي لاحظها في كل مكان حوله وهو يمشى من حجرة إلى الأخرى. وكانت أول الحجرات هي أفضلها مظهرا وترتيبا، وكانت فيها طيور لوسى وورودها وكتبها ومكتبها ومنضدة مخصصة للعمل وعلبة من الألوان المائية. وكانت الحجرة الثانية مخصصة لاستقبال المرضى وهي تستخدم أيضا كحجرة للمائدة، وكانت الحجرة الثالثة تتميز بوجود شجرة بالفناء تعلو أمامها، وكانت تلك هي حجرة نوم الطبيب، وفي ركن من أركانها كانت توجد صينية عليها أدوات صنع الأحذية فوق مقعد صانع الأحذية دون أن تستخدم تلك الأدوات في صنع أي أحذية كما كانت تستخدم في صنع الأحذية من قبل في الدور الخامس من ذلك المنزل العتيق فوق محل بيع النبيذ في حي سان أنطوان في باريس.

وقال السيد لورى وهو يتوقف متأملا عندما وجدها أمامه: «إننى أعجب من أنه يحتفظ بهذه الأشياء التي تذكره بكل ما عاناه وقاسي منه بالقرب منه!» وفزع إلى حد ما عندما سمع صوتا راءه يقول «ولماذا تعجب من ذلك؟»

وكان الصوت صادرا عن السيدة بروس، المرأة الشرسة المحمرة الوجه، الثقيلة اليد الذي كان قد تعرف إليها أول مرة في فندق رويال جورج في بلدة دوفر، ثم توثقت معرفته بها فيما بعد، وبدأ السيد لورى يقول: «لقد كنت أعتقد أنه يجب.....»

فقالت الآنسة بروس: «يوه! كان يلزم أن تعتقد!» وترك السيد لورى المكان (مبتعدا عنها) فقالت بحدة -على الرغم من أنها كانت تبدو كما لو كانت تريد أن تعبر عن أنها لا تحمل أي ضغينة نحوه: «كيف حالك؟» فقالت السيد لورى: «أنا بخير حال، أشكرك. كيف حالك أنت؟» فقالت: «لا شيء عندى أفخر به». فقال: «أحقا؟» فقالت: «آه، هذا حق. أنا قلقة جدا بشأن سيدتى المحبوبة». فقال: «أحقا؟» فقالت: «أنا لا أريد أن أرى حولها عشرات الناس غير الجديرين بأن يكونوا حولها ويأتون بزعم أنهم يرعون مصلحتها». فقال لورى: «هل يأتى عشرات الناس لهذا الغرض؟ فقالت : «بل مئات»، ولقد كانت خاصية من خصائص الناس أمثال الآنسة بروس وأناس سبقوها أنهم عندما يعارضهم أحد فيما يعتقدونه فإنهم يبالغون فيه إلى أبعد حدود المبالغة. وقال لورى: «هذا شيء مؤسف!».

ولقد كان السيد لورى يعرف أن الآنسة بروس تغار بشدة، ولكنه كان يدرك أيضا أن تحت سطح غرابة أطوارها فلقد كانت غير أنانية - وهي نوع من الشخصية يوجد فقط بين النساء اللاتى يشعرن بالحب المفرط والإعجاب الشديد ويربطن أنفسهن كالعبيد طواعية واختيارًا للشباب الذي يفتقدنه وللجمال الذي لم يحصلن على نصيب منه.

وقال لها السيد لورى عندما رجعا إلى حجرة الاستقبال وجلسا في جو وُدِّى: «حيث إننا هنا بمفردنا في هذه اللحظة ونتكلم بكل ود وجدية، دعينى

أسألك سؤالا: هل يشير الدكتور عندما يتكلم مع لوسى أي إشارة إلى الوقت الذي كان يعمل أثناءه في صناعة الأحذية؟»

وقالت الآنسة بروس: «لم يحدث ذلك أبدا». فقال لورى: «وهو مع ذلك يحتفظ بهذا المقعد وهذه الأدوات الخاصة بصنع الأحذية بجواره؟» فقالت: «آه.! ولكننى لم أقل إنه لا يتحدث بشأنها مع نفسه». فقال: «هل تعتقدين أنه يفكر كثيرا فيها؟» فقالت: «أعتقد ذلك». فقال لورى: «هل تتخيلين...» فقاطعته قائلة: «أنا لا أتخيل أي شيء. ليس عندى تخيُّل على الإطلاق». فقال لورى: «سأصحح كلامى، هل تعتقدين وتستطيعين أن تصلى إلى اعتقاد في بعض الأحيان؟» فقالت: «من آن لآخر». فقال لورى وقد التمعت عيناه وهو ينظر بحنان نحوها: «هل تعتقدين أن الدكتور مانيت قد تكونت لديه نظرية يؤمن بها ويحتفظ بها لنفسه طوال تلك الأعوام الماضية تتصل إلى السبب في تعرضه لذلك الظلم ليعرف اسم الشخص الذي ظلمه ذلك الظلم الفظيع؟» فقالت الآنسة بروس: «أنا لا أعتقد أي شيء في هذا الموضوع فيما عدا ما تخبرنى به محبوبتى الآنسة لوسى». فقال لورى: «وماذا أخبرتك في هذا الموضوع الآنسة لوسى؟» فقالت: «أخبرتنى أنه كان قد تعرض للظلم الفظيع». فقال لورى: «أرجو ألا تغضبى لكثرة الأسئلة لأنى مجرد رجل أعمال ثقيل الظل. ولا جدال في أن الدكتور مانيت برئ من ارتكاب أي جريمة ونحن جميعا متأكدون من هذه الحقيقة. هل يوجد أي شك في ذلك؟ وأنا أستطيع القول إنه كان يتعامل معي منذ سنوات كثيرة مضت، وعلى الرغم من أن التعامل بيننا كان معاملات مالية، فلقد أصبحنا على علاقة صداقة وطيدة. أليس هذه أيضا هو شأنه مع ابنته الجميلة التي يحبها حبا جَمًّا؟».

قالت الآنسة بروس: «حسنا! كل ما فهمته أنا في هذا الصدد هو أنه خائف من الموضوع جملة وتفصيلا».

قال لورى: «هل هو خائف من الموضوع جملة وتفصيلا؟» فقالت: «هذا واضح كل الوضوح فيما أعتقد. وكان من الضرورى أن أفكر في سبب خوفه إن سبب خوفه هو الذكريات فيما أعتقد. وكان من الضرورى أن أفكر في سبب خوفه إن سبب خوفه هو الذكريات المرعبة. ويضاف إلى ذلك أن فقدانه الاعتداد بذاته قد نبع من هذه الذكريات المرعبة. ولعدم إدراكه كيف فقد اعتداده بذاته، ولعدم إدراكه كيفية استرداده اعتداده بذاته فمن الجائز أنه قد أصبح غير متأكد من احتمال فقدان اعتداده بذاته مرة أخرى».

وكانت ملاحظة الآنسة بروس هذه أعمق مما كان السيد لورى يأمل أن يحصل عليه منها فقال: «هذا صحيح ومن المخيف التفكير فيه. ومع ذلك يخامرنى الشك يا آنسة بروس ما إذا كان من مصلحة الدكتور مانيت أن يظل يتكتم داخل نفسه هذا الشعور بالقهر والظلم. وهذا الشك في حقيقة الأمر، وعدم الارتياح الذي يسببه لي أحيانا هو الذي أفضى إلى هذا الحوار والمصارحة بيننا الآن». فقالت: «هذا الشك لا يمكن تفاديه أو تجنبه وعندما يلمس أحد هذا الخيط يخرج الدكتور مانيت عن هدوئه في الحال وتتغير حالته النفسية إلى أسوأ حال. ومن الأفضل أن يترك هذا الموضوع وأن ننحية جانبا ونتركه بمفرده يعانى منه في صمت. إنه أحيانا يستيقظ في وقت متأخر من الليل ويمكن سماع صوته في حجرت وهو يمشى جيئة وذهابا. وعرفت الآنسة لوسى محبوبتى أنه كان يمشى جيئة وذهابا في جوف الليل عندما كان في السجن. وكانت في هذه الحالات تسرع إليه وتمشى معه جيئة وذهابا وجيئة وذهابا حتى يستريح، ولكنه لا يقول أي كلمة عن السبب في متاعبه التي يعانيها، وتجد هي أنه من الأفضل له ألا تنكأ جراحه المؤلمة،

وتظل تمشى معه جيئة وذهابا وجيئة وذهابا حتى يتغلب شعوره بحبها له ومصاحبتها له على أسباب اضطرابه فيهدأ ويسيطر على مشاعره من جديد».

وبصرف النظر عن إنكار الآنسة بروس قدرتها على التخيل، فلقد كان لديها إدراك للألم الذي يعانيه الدكتور مانيت من جراء فكرة مسيطرة عليه محزنة مؤلمة تدفعه إلى السير جيئة وذهابا حجرته مرة تلو أخرى وهو ما كان يؤكد قدرتها على التخيل. ولقد كان الركن الذي يشغله مسكن الدكتور مانيت ركنا مدهشا يفضى هدوءه إلى القدرة على سماع أوهى صوت وأضعف صدى للصوت ينجم عن مجرد وقع الأقدام عندما يمشى أحد على الأرض. وبدا كما لو أن صوت وق الأقدام جيئة وذهابا قد بدأ يتجسد في الواقع الفعلى.

وقالت الآنسة بروس: «لقد أقبلا! والآن سيكون عندنا كثير من الناس!». ونهضت مؤذنة بانتهاء جلوسها وحديثها مع السيد لورى. وكان مظهر الآنسة بروس منظرا مهيبا على الرغم من شراستها واحمرار وجهها وعبوس ملامحها عندما كانت تأخذ قبعة محبوبتها وهي تصعد درجات السلم. وكانت محبوبتها خلابة المظهر أيضا وهي تقبلها وتشكرها. وكان الدكتور مانيت رائع المظهر أيضا هو ينظر إليهما ويقول للآنسة بروس إنها كانت تفسد لوسى بكثرة تدليلها لها بينما كانت عيناه يبدو فيهما أضعاف الحنان الذي كانت تبديه الآنسة بروس لمحبوبتها لوسى، وكان السيد لورى ينعم بكل هذه المشاهد أيضا وهو يتأملها كلها ويحمد حظه في الحياة لوجود مثل هذه البيت الذي ينعم بزيارته في أوقات فراغه بعد أن تقدم به العمر. ولكن كان يفسد عليه متعته تلك مجيء مئات الناس ليشاركوه هذه المشاهد التي كان يستريح إليها، وكان يشتاق إلى نهاية لنبوءة الآنسة بروس عن مجيء مئات من الناس إلى ذلك المنزل.

وحان وقت تناول الغداء ولم يصل أحد من مئات الناس. كان يوما رائعا، وبعد تناول الغذاء اقترحت لوسى أن الأفضل أن يتناولوا مشروباتهم تحت الأشجار في فناء المنزل ليجلسوا في الهواء الطلق.

ولم يصل أحد من مئات الناس، وصل السيد دارنى وحده وهم جلوس تحت الشجر، ولكنه وصل بمفرده. واستقبله لادكتور مانيت بكل لطف وحنان وهكذا استقبلته لوسى بذات اللطف والحنان، ولكن الآنسة بروس لم تلبث أن أعلنت عن بعض التعب في رأسها وكل أنحاء جسمها ودخلت إلى المنزل. ولقد كانت تعانى موارا من هذا الاضطرار في صحتها وكانت هي تسمى حالتها تلك بأنها نوبة من الرعشة.

وكان الطبيب في أحسن حالات وكان يبدو كما لو كان قد عاد إلى مرحلة الشباب وكان الشبه بينه وبين لوسى يبدو أكثر وضوحا في مثل هذه الحالات وبينما كانا يجلسان مالت لوسى برأسها على صدره ووضع يده وراء الكرسى الذي كانت تجلس عليه، وكان من السهل في هذا الوضع ملاحظة مدى الشبه الموجود بينهما.

وحان وقت تناول الشاى، وكانت الآنسة بروس تعمل الشاى وقد اعترتها نوبة أخرى من نوبات الرعشة ولم يصل مئات من الناس. كان السيد كارتون قد حضر وجلس معهم، ولكن حضوره جعل عدد القادمين إليهم اثنين فقط.

كان جو المساء شديد الحرارة والرطوبة وبالرغم أنهم كانوا يجلسون والأبواب والنوافذ مفتوحة، فلقد كانت حرارة الجو تسبب لهم الضجر بسبب الحرارة. وعندما وصلت عربة الشاى انتقلوا ليجلسوا بالقرب من إحدى النوافذ وأخذوا ينظرون إلى السماء. وكانت لوسى تجلس بجوار أبيها، وكان دارنى يجلس بجانبها وكان كارتون يستند إلى النافذة. وقال

الدكتور مانيت: «تسقط قطرات الماء ضخمة ثقيلة قليلة العدد بطيئة». فقال كارتون: «ولكنها تتساقط بالتأكيد».

كانوا يتحدثون بصوت خفيض شأن أناس يترقبون وينتظرون شيئا سيحدث في حجرة مظلمة وهم ينتظرون ظهور البرق وكان الناس في الشوارع في عجلة من أمرهم يغذون خطاهم ليصلوا إلى مكان يحتمون به قبل أن تهب العاصفة. وكان صدى صوت أقدامهم يتردد في الركن الهادئ، ولم يكن فيه أي وقع لأي أقدام. وقال دارنى: «كثير من الناس، ولا يظهر منهم أحد». وقالت لوسى: «أليس هذا عجيبا يا سيد دارنى؟ كنت أجلس هنا أحيانا في المساء وكنت أتخيل ويمضى بي الخيال حتى أتصور أننى أسمع وقع أقدام خطوات كثير من الناس يقتربون ويقتربون لكى يدخلوا في حياتنا».

وقال سيدنى كارتون بطريقته المقتضبة: «لو كان ذلك التصور صحيحا سيأتى أناس كثيرون في حياتنا يوما من الأيام». وكان صوت وقع الأقدام لا يتوقف، وكانت سرعتها تزداد شيئا فشيئا. وترددت أصداء وقع الأقدام وكان صدى وقع بعض الأقدام يبدو لهم كما لو كانت تحت النافذة مباشرة، بل كان بعضها يبدو لهم كما لو كان بداخل الحجرة، وبعضها قادم، وبعضها ذاهب. ولم يكونوا يستطيعون أن يروا أحدًا في مجال رؤيتهم.

وقال دارني: «هل هو مقدر أن تأتي كل هذه الخطوات إلينا جميعا يا آنسة مانيت أم أننا سنقتسمها فيما بيننا؟» فقالت الآنسة مانيت: «لست أدرى يا سيد دارنى. هذا مجرد خيال طائش، ولكننى تخيلت أنها وقع أقدام ستتدخل في حياتي وفي حياة أبي». وقال كارتون: «أنا سآخذها لنفسى. هنالك حشد كبير من الناس سيتدفق علينا يا آنسة مانيت، إننى أراهم في ثنايا البرق». وعلى الفور

كان هنالك لمعان للبرق ينعكس عليه وهو جالس بجوار النافذة. واستطرد كارتون قائلا: «وأنا أسمعهم! ها هم أولاء قادمون بسرعة وشراسة واهتياج!».

كان ذلك هو صوت ناتج عن سقوط قطرات المطر خلع عليه كل هذه الأوصاف، ثم توقف نزول قطرات المطر ولم يسمع منها شيء، قضت عليها عاصفة من الرعد والبرق، ولم يكن هناك أي توقف للرعد والبرق حتى صفت السماء وظهر القمر عند منتصف الليل.

وكان جرس الكنيسة يدق معلنا الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، عندما كان السيد لورى يمشى ومعه جيرى وهو يرتدى حذاءً له رقبة طويلة ويحمل في يده مصباحا في طريق العودة إلى مسكنه في حى كلاركنْولْ. وكانت هنالك حفرات صغيرة في الطريق بين حى سوهو وكلاركِنولْ، وكان السيد لورى الذي كان يحرص على اختيار موطئ قدمه يستدعى جيرى من آن لآخر لكى يساعده ولم يكن يحتاج إلى هذه المساعدة لو كان قد رجع إلى منزله مبكرا عن الوقت الذي رجع فيه بمقدار ساعتين فقط.

وعندما افترق الطريق بهم، قال السيد لورى: «يا لها من ليلة هذه الليلة التي قضيناها معا يا سيد كارتون! طاب مساؤك يا سيد كارتون. يا سيد دارنى، هل سنشهد مثل هذه الليلة سويا مرة أخرى؟» وقال دارنى: «ربما، ربما نشاهد ذلك الحشد الكبير من الناس يندفع نحونا صوت وقع أقدامهم وهم يتقدمون نحونا أيضا».

الفصل السابع

سيادة الماركيز

Monsieur The Marquis

اندفعت مركبة في شوارع باريس وكانت تكنس الناس وتجعلهم ينقشعون بسرعة أمامها غلى الأجناب مع صيحات النساء أمامها، وكان الرجال يلتصق كل منهم بالآخر ويجذب بعضهم الأطفال من طريق العربة التي كانت تسرع محدثة ضجيجا وعجيجا دون أي اعتبار لإنسانية البشر ولم يكن يسهل فهم ذلك التجرد من مراعاة الإنسانية على ذلك النحو في ذلك الزمان. وأخيرا، وبينما كانت العربة تندفع بسرعة في الشارع بالقرب من نافورة مرت إحدى عجلاتها فوق منخفض صغير وتعالت صيحة عديد من الأصوات وأجفلت الخيل ووثبت وازدادت سرعتها عن المألوف.

ولولا هذا التطور غير الملائم لكان من المحتمل الا تتوقف العربة عن السير، إذ إنه كان من المألوف أن تستمر العربات في سيرها تاركة وراءها جرحاها، ولم لا؟ ولكن سائق العربة وقد فزع (من اختلال توازن العربة وازدياد سرعة الخيل عن المعقول) نزل من العربة بسرعة وأمسكت عشرون يد بأعنة الخيل. وقال السيد بهدوء وهو ينظر خارج العربة: «ما الخطأ الذي حدث؟». وكان رجلٌ طويل القامة، يرتدى قبعة قد أمسك بين يديه أشلاء جسد وكان قد وضعها بالقرب من النافورة وكان قد انهار جالسا مبلل الملابس وهو يبكى منتحبا كحيوان مفترس.

وقال رجل يرتدى أسمالا بالية ويبدو عليه الخنوع والاستسلام: «عفوًا يا سيدي الماركيز! إنه طفل». فقال الماركيز: «ولماذا يحدث الرجل هذا الصوت البغيض؟ هل الطفل هو ابنه؟». فقال الرجل: «عفوًا يا سيدى الماركيز، نعم، إنه ابنه مما يؤسف له».

وانجلت النافورة قليلا لأن الشارع قد مال عنه بعض الناس وظهر فراغ من الأجساد بلغت مساحته عشر ياردات مربعة أو اثنتى عشر ياردة . وعندما نهض الرجل الطويل القامة عن الأرض وجاء يجرى نحو العربة، وضع الماركيز يده على مقبض سيفه لحظة. وصاح الرجل في يأس ملتاع مهتاج وهو يمد ذراعيه للأمام: «لقد قتل!» وحملق في وجه الماركيز وقال: «مات!».

واقترب الناس وأحاطوا بالمركبة ونظروا إلى الماركيز. ولم يكن هنالك أي شيء تشى به هذه العيون الكثيرة سوى الترقب والتحفز. لم يكن من الممكن رؤية علامات تدل على التهديد أو الغضب. وجالت عينا الماركيز في وجوههم جميعا كما لو كانوا مجرد فئران تخرج من جحورها.

وأخرج كيس نقوده ثم قال: «من غير المألوف ومن الشذوذ أنكم أيها الناس لا تستطيعون أن تهتموا بأنفسكم ولا بأولادكم. ونجد دائما أحدكم أو الآخر في الطريق. كيف أستطيع أن أعرف الضرر الذي سببتموه لخيولى؟ انظر! أعطه هذا».

ورمى خارج العربة قطعة عملة ذهبية إلى السائق لكى يلتقطها واشرأبت كل الأعناق ونظرت كل العيون إلى الأمام لكى ينظروا أين ستقع حال سقوطها. وصاح الرجل الطويل القامة صيحة لم يشهد لها وجه الأرض مثيلا وقال: «مات!».

وأمسك بتلابيبه وصول رجل آخر إلى ذات المكان، رجل أفسح له الآخرون الطريق. وعندما رآه الرجل المكلوم ارتمى على كتفه وهو يبكى ويصيح ويشير إلى النافورة حيث كانت مجموعة من النساء قد انحنيْن على مجموعة الأعضاء التي سُحقتْ وأصبحت بلا حراك وهن يتحركن بخطوات بطيئة حولها. وقال آخر رجل وصل إلى ذات المكان: «أعرف كل شيء. أعرف كل شيء. كن رجلا شجاعا وتجلد يا عزيزى جاسبارد! من الأفضل لذلك الشيء الذي كان يلعب أن يموت على هذا النحو بدلا من أن يعيش». وقال الماركيز وهو يبتسم سرورا لدى سماعة ذلك: «أنت فيلسوف، أنت هناك. بأي اسم ينادونك؟» فقال الرجل: «ينادوننى باسم ديفارج». فقال الماركيز: «وما هي المهنة التي تعمل بها؟» فقال الرجل: «أنا أبيع النبيذ يا سيدى الماركيز». فقال الماركيز: «التقط هذا أيها الفيلسوف بائع النبيذ». ورمى إليه قطعة أخرى من العملة الذهبية وهو يستطرد قائلا: «وأنفقها كما تشاء. الجياد، هل الجياد بحالة جيدة؟».

ودون أي اهتمام بالنظر إلى ذلك الحشد من الناس مرة أخرى اضطجع سيادة الماركيز في مقعده وبدا مثل شخص كان قد كسر شيئا بمحض الصدفة ودفع ثمنه إذ كان يستطيع بطبيعة الحال أن يدفع ثمنه عندما بددت صفو راحته قطعة عملة تطايرت داخل عربته وارتطمت بأرضية العبة. وصاح الماركيز قائلا: «أوقف الجياد! أوقف الجياد! من رمى هذه؟».

ونظر إلى المكان الذي كان يقف فيه ديفارج بائع النبيذ منذ لحظة ولكن كان يقف في مكانه بدلا منه الأب البائس المفجوع وهو يعفر وجهه بالتراب وكان الشخص الذي يقف بجواره هو امرأة ممتلئة القوام تمارس أشغال الإبرة.

وقال الماركيز بكل هدوء وقد انفثأ غضبه: «أنتم أيها الكلاب! لو عرفت النذل الذي قذف العربة لسحقته تحت عجلاتها».

وهكذا كان أولئك الناس يعيشون حياة أحقر من حياة البقر، وهكذا كانت تجارب حياتهم الطويلة المريرة القاسية تتمثل فيما يمكن أن يفعله مثل ذلك الرجل بهم لدرجة أنه لم ترتفع نحوه آنذاك (وقد صدرت منه كل تلك الإهانات) همسة أو يد أو نظرة عين من كل الرجال الموجودين حيث وقعت تلك المأساة. ولكن، وحدها المرأة التي كانت تقف ممسكة بين يديها شغل الإبرة رفعت عينيها إليه ونظرت في وجه الماركيز. ولم يكن يتفق مع كرامته أن يلحظ أو يعلق على ذلك ومرت عيناه الحانقتان بعيدا عنها مرورا بكل الفئران الأخرى، واضطجع في مقعده مرة أخرى، وأصدر أمره: «امض بنا».

ومرت العربة بمنظر طبيعى للأرض المنبسطة التي كانت مغطاة بالقمح، ومرت بها سريعا، إذ لم تكن إلا مساحات ضئيلة القدر. وبدلا من حقول القمح أصبحت العربة تمر بمساحات متناثرة من نباتات عشوائية ومساحات ضئيلة من البازلاء أو الفول أو الخضراوات كبدائل للقمح، وكان سيادة الماركيز في عربته المخصصة لأسفاره، وكان يفكر أنه من الأفضل أن تكون أخف وزنا، وكانت تجرها أربعة أحصنة من الخيل التي تجر عربات البريد ويقودها حوذيان، وكانت العربه تشق طريقها صاعدة فوق تل شديد الانحدار.

وكانت الشمس الغادية منهلُّ أشعتها العسجدية الرائعة على العربة عندما صعدت إلى أعلى قمة التل لدرجة أن السيد «الماركيز» لم يتمالك نفسه عن أن يقول: «سأموت» ولم تلبث الشمس أن غابت بعد لحظات قليلة وانزلقت العربة نازلة بسرعة وسهولة فوق السفح المنحدر من التل تحيط بها سحابة ثقيلة بالغبار الكثيف. كانت الشمس تغوص في الأفق مختفية وكان الماركيز

ينحدر عن التل أيضا. ولم يبق من ضوء الشمس شيء عندما انتهى طريق العودة بالماركيز وتوقفت به العربة مخلفة ورائها الريف المحطم جسورا متحفزا متفتحا، وكانت إحدى القرى الصغيرة تقبع وراء التل يرتفع وراءها برج أحد المعابد وطاحونة وغابة للصيد ونتوء ضخم من الصخور فوقه قلعة وقد ألحِقَ بها السجن. ونظر الماركيز حوله إلى هذه الأشياء كلها وهو يشعر شعور إنسان عاد إلى بيته ومأواه.

وكان بالقرية شارعها الوحيد البائس، وفندقها الصغير المتواضع وساحة صغيرة لوقوف خيل عربة البريد ونافورة ضئيلة الحجم. ويوجد في القرية أيضا وبطبيعة الحال سكانها الفقراء فقرا مدقعًا، وكل سكان القرية كانوا فقراء، وكان معظمهم يجلسون وليس لديهم ما يعملونه بالقرب من أبواب دورهم وهم يكسرون البصلات وحدها دون صنف آخر مع خبزهم عندما كانوا يضطرون إلى وقف زحف الجوع داخل أجسادهم بينما كان كثير منهم يلتفون حول النافورة لكى يغسلوا أوراق بعض الخضراوات والأعشاب وما شابه ذلك مما تنبت الأرض ليجعلوا منه أشهى مأكولاتهم وكانوا يأكلون منه كل ما يمكن أكله. ولم يكن يعوزهم بطبيعة الحال آية مظاهر من مظاهر الفقر والفقراء: كان عليهم أداء ضريبة للدولة، وضريبة للكنيسة، وضريبة لمالك أرض القرية، وضريبة محلية، وضريبة عمومية، تدفع ضرائب هنا، وتدفع ضرائب هناك وفقا لنظام صارم يشمل كل أهالى القرية الصغيرة بما لا يدع مجالا للعجب من أنه لا توجد قرية لم يتم ابتلاعها. ووصل سيادة الماركيز إلى بوابة القصر بالقرب من النافورة، وترك الفلاحون ما كان بأيدهم لكى ينظروا إليه.

وألقى السيد الماركيز نظراته من على فوق الوجوه البائسة الكسيرة النظرات المحنية الرؤوس أمامه عندما انضم إليهم أحد عمال إصلاح

الطريق بملابسه البالية الشاحبة الزرقة وقال لأحد السعاة عنده: «أحضر عندى هنا هذا الشخص!» وتم على الفور إحضار ذلك الشخص عنده وقد وضع قبعته في يده واقترب منه الآخرون لكى يسمعوا كل ما يحدث أو يقال. وقال الماركيز: «لقد مررت بك في الطريق؟» فقال الرجل: «هذا صحيح يا مونسنيور كان لى شرف أن أحظى بمرور سُمِّوك بى في الطريق». فقال الماركيز: «فيم كنت تحدِّق النظر؟» فقال الرجل: «يا صاحب السمو، كنت أنظر إلى الرجل». وانحنى عامل الطريق قليلا، وأشار بقبعته أسفل العربة. وانحنى كل الناس بجواره ونظروا تحت العربة.

قال الماركيز: «أي رجل تعنى أيها الخنزير» لماذا كنت تنظر إلى العربة؟» فقال عامل إصلاح الطريق: «عَفْوًا يا صاحب السمو، كان الرجل يتأرجح ممسكا بالسلسلة في اسفل العربة». فقال الماركيز: «من؟» فقال عامل إصلاح الطريق: «الرجل يا صاحب السمو». فقال الماركيز: «ألا يأخذ الشيطان كل هؤلاء الحمقى! ما اسم هذا الرجل؟ أنت تعرف أسماء كل الرجال في هذه القرية ومن كان هو؟» فقال عامل إصلاح الطريق: «عفوك وحنانك يا صاحب السمو! لم يكن هذا الرجل واحد من رجال القرية. وطوال أيام عمرى لم أكن قد رأيته من قبل». فقال الماركيز: «هل كان متعلقا بالسلسلة أسفل العربة؟ لكي يختنق؟» فقال عامل إصلاح الطريق: «لو سمحت لي من فضل كرمك، كان ذلك هو سبب الغرابة. كان رأسه معلقا – على هذا النحو!».

ومال عامل إصلاح الطريق إلى جانب العربة، واضطجع تحتها ووجهه يتجه نحو السماء متدلى الرأس، ثم اعتدل وتحسس قبعته بأنامل يده وانحنى.

قال الماركيز: «ما أوصاف ذلك الرجل؟ صفه لى». فقال عامل إصلاح الطريق: «يا صاحب السمو، كان أكثر ابيضاضا من الطحان. كان جسمه كله مغطى بالغبار، أبيض مثل الشبح، وكان طويلا مثل الشبح!» وتطلعت كل

العيون إلى الماركيز ربما ليلاحظوا مدى تأثير الشبح على مشاعره. وقال الماركيز: «حقا، لقد تصرفت بطريقة ملائمة إذ رأيت لصا ملتصقا بعربتى ولم تفتح فمك الهائل. باه! أزحه من أمامى يا سيد جابيل!».

وكان السيد جابيل هو المسئول عن شئون البريد ومهام جمع الضرائب بالإضافة إلى شئون البريد. ولقد كان قد هرع إلى مكان الحشد باهتمام بالغ لكى يقدم يد العون للماركيز في هذا الموقف العصيب عند استجواب الرجل. وكان قد أمسك بذراع الرجل عند استجوابه كما لو كان يمنعه من أن يهرب أو أن يتبخر في الجو، ولذلك كان يمسكه بشيء من الحرص والمبالغة وبطريقة المحترفين في الإمساك بالرجال بطريقة رسمية.

وصدع السيد جابيل بالأمر مرددا صيغته بالحرف الواحد إذ قال لعامل إصلاح الطريق: «باه! تعال جانبا!» وقال له الماركيز: «اقبض على ذلك الشخص الغريب لو أراد أن يجد مأوى في قريتك الليلة، وتأكد من أن قصده سليم وأن هدفه من القدوم إلى القرية هدف مشروع معتاد يا جابيل». وقال جابيل: «يا صاحب السمو، يشرفنى أن أكرس نفسى لأوامرك». فقال الماركيز: «هل هرب الرجل؟ أين المتهم؟».

وكان المتهم آنذاك قد دخل تحت العربة يحيط به نصف دستة من أصدقائه وهو يشير بقبعته نحو السلسلة. وكان نصف دستة آخرين من الرجال ينادون عليه أن يخرج من تحت العربة، وقدموه متقطع الأنفاس ليقف أمام المراكيز من جديد وقال له المراكيز: «هل هرب الرجل يا «دُولت» عندما توقفت العربة؟» فقال دُولت: «يا صاحب السمو، لقد قذف بنفسه فوق سفح التل ونزل برأسه أولا مثل شخص يقفز إلى ماء النهر» فقال الماركيز: «أدركت ما تقول، انصرف!».

كان اندفاع العربة في بداية القرية ثم تصعيدها إلى نهاية القرية يزيد منه انحدار سفح التل. وبالتدريج استقرت العربة في مكان مستوى السطح، واهتزت جنبات العربة عند توقفها وسط روائح طيبة تحملها نسمات ليلة من ليالى الصيف كان أريجها منتشرا في كل أنحاء المكان ومن حول أفراد ذلك الحشد من الناس أيضا الذين كان تعلوهم الأتربة، وكانت ملابسهم ممزقة أسمالا أسمالا، وكانت تلك النسمات أيضا تنتشر حول مجموعة من عمال إصلاح الطرق تجمع أفرادها حول النافورة ليحيطوا بزميلهم الذي كان يقف هو نفسه بينهم مثل الشبح، وظلوا واقفين بقدر ما استطاعوا الوقوف. وبالتدريج لم يستطيعوا أن يتحملوا المزيد من الوقوف وأخذوا في الانصراف واحدًا بعد واحد. وتسللت أنوار خافتة من فتحات النوافذ الصغيرة.

وكانت ظلال منزل عالى السقف وحوله أشجار باسقة تحيط بسيادة الماركيز في ذلك الوقت، وكانت الظلال تتعانق مع أنوار المصابيح الخافتة الضوء عندما كانت العربة قد توقفت، وفتحت البوابة الهائلة للقلعة المملوكة له. وقال الماركيز على الفور: «السيد شارل الذي أنتظره، هل وصل من إنجلترا؟» ورد عليه أحدهم: «يا صاحب السعادة، لم يصل سيادته حتى الآن». وتقدم الماركيز في مسيرته يصعد مجموعة من الدرجات وعبر صالة رهيبة المنظر لاكتظاظ جدرانها بالرماح القديمة والسيوف والخناجر ومختلف أسلحة الصيد، ويزيد من كآبة منظرها اكتظاظها بأدوات الركوب والأسواط المختلفة الأحجام التي ذاق كثير من الفلاحين آلام وقعها على أجسامهم عندما كان سيد القلعة يغضب على أحدهم أو الآخرين.

وبعد أن تجنب الماركيز الدخول في أيٍّ من الحجرات الأكثر ضخامة التي استعدت على عجل لاستقبال الليل، وحملة المشاعل يمشون أمامه،

صعد الماركيز سُلَّمًا يفضى إلى باب من ورائه ممر طويل، وبعد فتح ذلك الباب أمامه، دخل إلى مسكنه الخاص المكوَّن من ثلاث حجرات، حجرة نومه، وحجرتين في إحداهما مائدة الطعام وقد أعد فوقها الطعام لشخصين.

وقال الماركيز: «ابن أخى، يقولون إنه لم يصل حتى الآن». ونظر إلى الطعام على المائدة. وكان ابن أخيه لم يصل بعد ولكن الماركيز كان ينتظر وصوله.

واستطرد الماركيز قائلا: «آه، دعوا المائدة كما هى، وأنا سأكون مستعدا في غضون ربع ساعة».

وبعد ربع ساعة كان سعادة الماركيز مستعدا لتناول وجبة العشاء، وجلس بمفرده إلى مائدة الطعام ليتناول عشاءه الفاخر الذي كان قد اختار أصنافه من قبل. وكان الكرسى الذي يجلس عليه في مواجهة النافذة، وكان قد تناول إناء الحساء، وكان يرفع كأسا من الشراب إلى شفتيه، عندما وضعها من يده دون أن يشرب منها شيئا وقال: «ما هذا؟» ونظر بهدوء نحو النافذ. وأجابه أحد الخدم بقوله متسائلا هو الآخر: «ماذا يا صاحب السعادة؟ هل تقول ما هذا؟» فقال الماركيز: «وراء ستارة النافذة. افتح الستارة». وفتحتْ الستارة. وقال الماركيز: «حسنا». فقال أحدهم: «لا شيء يا صاحب السعادة. الأشجار والليل هما كل ما هنالك». وكان الخادم قد فتح الستارة على أقصى اتساع لانفتاحها، وكان قد نظر في الظلام الخالى من أي شيء غير معتاد. ووقف ينتظر اي تعليمات أخرى.

وقال السيد المتوجس: «حسنا، أغلقها ثانية». وتم إسدال الستارة مرة أخرى. واستمر الماركيز في تناول عشائه. وبعد أن مضى من الوقت نصف ساعة توقف مرة أخرى وكأسه بيده لدى سماعه صوت عجلات إحدى

العربات. واستمرت في تقدمها وصوت عجلاتها يزداد وضوحا ثم توقفت أمام القلعة. وقال الماركيز: «سل من الذي وصل».

لقد كان ذلك هو ابن أخيك يا سعادة الماركيز. كانت عربته تسير وراء عربتك وبينهما مسافة لا تزيد على بضعة فراسخ، وكان قد سمع عن مرور عربتك أمامه من مراكز البريد.

ولقد كان من الضرورى أن يعرف أن العشاء كان في انتظاره وكان من الضرورى أن يرجوه أن يأتى لتناول العشاء. وبعد قليل جاء ابن أخيه إلى مائدة العشاء. ولقد كان ابن أخيه معروفا في إنجلترا باسم تشارلس دارنى. واستقبله صاحب السعادة بطريقة رسمية، ولكنهما لم يتصافحا باليد.

وقال ابن الأخ وهو يجلس على كرسى إلى المنضدة: «هل غادرت باريس أمس يا سيدى؟» فقال: «أمس. وأنت؟» فقال ابن الأخ: «وصلت بالضبط بالأمس». فقال العم: «من لندن؟» فقال: «نعم». فقال الماركيز وهو يبتسم: «لقد استغرق مجيئك وقتا طويلا». فقال ابن الأخ: «بالعكس، لقد جئت بأسرع وقت». فقال الماركيز: «عفوًا، أنا لا أقصد أن الرحلة قد استغرقت وقتا طويلا، ولكن قصدك للرحلة واستعدادك لتبدأ رحلة العودة إلى فرنسا هو الذي استغرق وقتا طويل» وأبطأ ابن الأخ لحظة ثم أجاب بقوله: «تعطلت من جراء مشاغل مختلفة». فقال العم ذو الحنكة: «دون ريب».

وطوال الوقت الذي كان الخادم موجودا بالقرب منهما لم يتفَوَّها بأي كلمات أخرى وعندما قدمت لهما القهوة وأصبحا بمفردهما تلاقت عينا ابن الأخ مع عينى العم الذي كان وجهه يبدو وكأنما هو تحت قناع كامل الإحكام، وافتتح ابن الأخ الحوار بقوله: «يا سيدى، لقد أخطأنا ونحن نحصد ثمار الخطأ». فقال الماركيز مكررا ما قال ابن الأخ في مستهل كلامه

بلهجة يبدو فيها الاستغراب والاستفسار: «نحن، أتقول نحن قد أخطأنا؟ وتقول إننا نحصد ثمار الخطأ؟»

قال ابن الأخ: «أعنى أسرتنا. حتى في حياة والدى، شيدنا عالم الظلم مسببين الأذى لأى مخلوق بشرِى كان يحول بيننا وبين متعتنا وملذاتنا مهما كانت هذه المتعة والملذات. ولماذا أحتاج إلى الحديث عن عهد والدى والحال لا يزال يجرى على نس المنوال بالنسبة لسيادتك في الوقت الحالى؟ هل أستطيع أن أجد أي فرق بين توأم أبي، وأقرب ورثته إليه نسبا، وخليفته في الأملاك واللقب عن أبي؟». فقال الماركيز: «لقد فعل الموت ذلك!» فأجاب ابن الأخ: «ووالدى قد تركنى لكى أعيش في ثنايا نظام يخيفنى، وأجد نفسي مسئولا عنه وعن كل ما يحدث فيه، ولكننى عاجز إزاءه، أحاول أن أجد أي منفذ لتنفيذ آخر مطلب نطقت به شفتا أمى وآخر نظرة بدرت من عينى أمى كانت تهيب بى أن يكون عندى رحمة وشفقة، ولقد تعذبت كثيرا لكى أجد العون في تلبية مطلبها الأخير دون جدوى». فقال الماركيز: «هل تطلب العون في ذلك منى أنا يا ابن أخى». ولمس صدر ابن أخيه بأصبعه وقال: «تأكد أنك ستبحث عن العون إلى الأبد دون جدوى. ومن الأفضل أن تكون مخلوقا عاقلا لتتقبل مصيرك الطبيعى وقدرك المقدور لك. ولكنك قد ضيعت نفسك يا سيد شارل فيما أرى». فقال ابن الأخ: «هذا هو الأمل، وفرنسا كلها لا تعنى شيئا بالنسبة لى. أنا أتخلى عن ممتلكاتى كلها ولا أشعر بالانتماء لفرنسا». فقال الماركيز: «هل المتلكات وفرنسا ملك لك لكى تتنازل وتتخلى عنهما؟ يجوز ذلك بالنسبة إلى فرنسا، وهل تخصك ممتلكات؟ لا تكاد ممتلكاتك تستحق أي ذكر، ولكن هل هي ممتلكاتك الآن؟» فقال ابن الأخ: «لم أكن أقصد من الكلمات التي ذكرتها أننى أطالب بأي ممتلكات لي حتى الآن. ولو أن هذه المتلكات آلت إلى ملكيتى بعد

حياتك في الغد ـــــ» فقال الماركيز: «الغد الذي أجد أن عندى من الطموح ما يكفى لكى أقول إنه الغد الذي لن يأتي». فقال ابن الأخ: «أو الغد الذي لن يأتى قبل مرور عشرين عاما اعتبارا من اليوم الحاضر». فقال الماركيز: «أنت قد أرحتنى كثيرا، وأوافق على أن أفضل مثل هذا الافتراض». فقال ابن الأخ: «حتى في هذه الحالة، ولو بعد عشرين عاما، سوف أتنازل عنه، وسوف أعيش بطريقة أخرى، وفي مكان آخر. إن هذا الوطن من الضآلة بحيث يمكن نبذه بسهولة. ماذا عساه أن يكون شأن هذه الممتلكات أو ذلك الوطن وكل منهما لا يعدو أن يكون مغارة من البؤس والخراب؟» وقال الماركيز: «هاه!» وأجال نظره في أرجاء الحجرة الفاخرة المحتويات. فقال ابن الأخ: «يبدو للعين أن كل شيء جميل هنا، ولكن لو نظرنا إلى كل ما حولنا هنا بالنسبة إلى كل ما هو موجود تحت السماء في ضوء النهار نجده صرحا متداعيا في براثن الضياع والانهيار من جراء سوء الإدارة والاضطهاد والديون والرهونات والظلم والعرى والمعاناة». وقال الماركيز متظاهرا بالرضا مرة أخرى: «هاه!».

وقال ابن الأخ: «لو أن ممتلكات الأسرة قد أصبحت ملكى أنا، فهى ستوضع بين يَدَيْن مؤهلتيْن على نحو أفضل وأقْدر على تحريرها ببطء (لو كان مثل هذا التحرير ممكنا) من الثقل الذي يجذبها إلى أسفل لدرجة أن الناس الأشقياء الذين لا يستطيعون التخلي عنها والذين سحقتهم أوزارها زمنا طويلا إلى أبعد مدى يستطيعون أن يتحملوه سيتاح لهم مع مرور الزمن أن يتخففوا من أوزارها، ولكن هذه الممتلكات لا تخصنى (الآن عليها اللعنة وعلى كل هذه الأرض)».

وقال عمه: «وأنت؟ معذرة للسؤال، كيف تَنْوِى أن تعيش تحت ظلال فلسفتك الجديدة؟» فقال ابن الأخ: «يجب أن أعمل لكى أعيش ما يعمله

الآخرون لكي يعيشوا حتى لو كانوا من طبقة النبلاء فمن الضرورى يوما ما أن يعملوا شيئا»..

وانجلت الخطوط الرفيعة حول العينين المحملقتين وحول الشفتين الرفيعتين في سخرية شيطانية واضحة عندما قال الماركيز لابن أخيه: «نعم، هكذا تبدأ الفلسفة الجديدة! أنت مُتْعَب. طابت ليلتك!».

وخَيَّمَ الظلام الدامس المميت على كل شيء بالقلعة وما حولها، وهو ظلام مميت أضاف سكونه إلى سكون التراب الصامت الساكن فوق كل الطرقات. وبداخل القرية كان ينام محصلو الضرائب ودافعو الضرائب، وربما كانوا يحلمون بالجلوس إلى الموائد الحافلة بالمأكولات الشهية كما يحلم كل المحرومين من المأكولات الشهية، وربما كانوا يحلمون أيضا بالراحة كما يحلم بالراحة العبيد المنهكون من العمل والثيران المكدودة، كان أهل القرية جميعا نائمين بعمق ينعمون في نومهم بالغذاء والحرية والراحة من الشقاء.

وكانت النافورة في القرية يتدفق منها الماء دون أن ينظر إليه أحد أو يسمع صوت خريره أحد خلال ثلاث ساعات كان يسودها الظلام الدامس. ثم بدأ الماء الرمادى اللون يُسْفر عن لونه تحت ضوء بدأ خافتا ضئيلا. ثم ازداد الضوء شيئا فشيئا حتى لامست الشمس السطح العلوى للأشجار وصبت وهج نورها فوق التلال. وأصبح صوت تغريد الطيور متزايد الصخب والارتفاع وغنى عصفور صغير فوق قاعدة نافدة حجرة نوم سعادة الماركيز أعذب أغنياته بكل قواه.

واكتمل ظهور الشمس الآن في السماء، وبدأت الحركة في القرية. وانفتحت النوافذ الصغيرة، وأزيل الرتاج من وراء كل الأبواب الصلدة المتبلدة، وخرج الناس من منازلهم ترتعش أجسادهم إذ يغمرها الآن الهواء

الجديد الطازج. وبدأ بعدئذ العناء النادر الاستنارة طوال النهار بين سكان القرية. اندفع بعضهم إلى النافورة، واندفع بعضهم إلى الحقول. خرج الرجال والنساء على حد سواء يحفرون وينبشون، رجلا ونساء، لكى يعثروا على قوت حياتهم ولكى يسحبوا بقراتهم العجاف خارج المنازل لكى تلتهم طعامها مما يتصادف وجوده من الحشائش على جنبات الطرق.

وصحا أهل القلعة في وقت متأخر قليلا عن موعد صحو أهل القرية كالمعتاد في تميز أهل القلعة بهذه الميزة، ولكن أهل القلعة قد صحوا بالتدريج وبالتأكيد. وفُتحتْ أبواب القرية ونوافذها. وتطلعت الخيول في مرابضها حولها إلى النور والهواء المنعش ينساب إليها من الباب الذي فتح، وتلألأت أنوار الأوراق واشتد صوت حفيف بعضها مع بعض فوق غصونها بالقرب من النوافذ ذات الأطواق الحديدية.

وكانت الكلاب لا تزال مشدودة إلى السلاسل التي كانت تقيدها، وكانت تتطلع بشوق هائل أن يطلق أحدهم سراجها. وكل تلك الأحداث المعتادة كانت تتم بطرق آلية وفقا للنظام المعتاد في حياة أهل القرية كلما طل عليهم صباح يوم جديد. ولكن هل اعتاد نظام حياتهم أن يدق جرس القلعة المنذر بوقوع حدث جلل عظيم، وكل هذا الهرج وذلك المرج نزولا وصعودا على درجات سلم القلعة، وكل ذلك الاندفاع للأجسام المسرعة الحركة، وكل ذلك الإسراع للأقدام التي ترتدى الأحذية طوال الرقاب هنا وهناك في كل أرجاء القلعة، وكل ذلك الإسراع إلى وضع السروج فوق ظهور الجياد ليسرعوا مبتعدين بها؟ ولقد كان الماركيز لا يزال في فراشة. ولقد كانت سكين قد هجعت في جسده بعد أن وصلت إلى قلبه وحول نصلها ورقة مكتوب على نصلها: «**أسرعوا به إلى قبره. هذه رسالة من الثوار**».

الفصل الثامن

وعدان
Two Promises

شهور أخرى بلغ عددها اثنى عشر شهرًا جاءت وانصرمن وقد استقر المقام بالسيد تشارلس في إنجلترا كمدرس للغة الفرنسية بالمدارس العليا ضليع في الدراسات المتصلة بالأدب الفرنسى. وكمدرس قدير، كانت أساليبه في التدريس تجعل تلاميذه في العادة مسرورين ومرتاحين وهم يتلقون منه دروسه في اللغة الفرنسية، وكمترجم قدير عن اللغة الفرنسية كان يضيف إلى عمله في الترجمة بالإضافة إلى المعانى الموجودة بقواميس اللغة نفحات ذهنية من عنده تضفى على ترجمته وضوحا وجمالا مما أدى إلى أن يصبح السيد دارنى الشاب بسرعة شخصية معروفة، وأصبح يحظى بكثير من الشهرة والتشجيع. ولقد كان أكثر الناس معرفة بظروف فرنسا، موطنه الأصلى، وكان الاهتمام بمعرفة ظروف حياة شعب فرنسا في ازداد مستمر. ولذلك، ومن خلال تحفظه واحترامه لنفسه وجهوده التي لم تكن تكل أو تمل، أحرز السيد دارنى تقدما ملحوظا.

والآن كما تتغير الأحوال عندما تكون الدنيا في فصل الصيف في عدن عن الأحوال عندما تكون الدنيا قد حل فصل الشتاء فيها على خط من خطوط العرض تحولت دنيا رجل من الرجال تحولا لا تغيير فيه – وكان ذلك الرجل

هو تشارلس دارنى وقد حدث تغير مماثل في حياته. منذ بدأ يمشى في طريق حبه لا مرأة.

كان تشارلس دارنى قد أحب لوسى مانيت بدءا من ساعة الخطر الذي كان يواجهه. إنه لم يكن قد سمع أبدا صوتا جميلا عزيزا عليه مثل صوتها المتعاطف، ولم يكن قد رأى وجها لطيف الجمال مثل وجهها عندما التقى مع وجهها على حافة القبر الذي كان محفورا له. ولكنه لم يكن قد تحدث إليها في الموضوع فلقد كان حادث الاغتيال الذي وقع في القلعة على مسافة بعيدة عن المياه المتراكمة المتدفقة من النافورة وعلى مسافة بعيدة من الطرقات المتربة الطويلة بالبالغة الطول قد مضى عليه عام واحد. ولم يكن تشارلس دارنى حتى ذلك الحين قد تحدث إليها عن مكنون قلبه ولو بكلمة واحدة. ولقد كان يعرف جيدا أن لديه أسبابه في ذلك. وذات يوم من أيام الصيف، وصل إلى لندن متأخرا من عمله في جامعة كيمبريدج وعاد إلى ذلك الركن الهادئ في حى سوهو، وكد ذهنه بحثا عن فرصة ليفضفض فيها عن مكنون قلبه للدكتور مانيت. ولقد كان ذلك في النزع الأخير من سويعات يوم من أيام الصيف، وكان يعرف أن لوسى كانت قد خرجت من المنزل مع الآنسة بروس.

ووجد الدكتور مانيت يقرأ وهو جالس على كرسية في مطلَّة منزلة. كان الدكتور مانيت قد أصبح الآن رجلا على جانب كبير من الحيوية آنذاك بالفعل بالغ الحسم فيما يعرض له من شئون الحياة قوى التصميم في قراراته وتصرفاته. وكانت تصرفاته بعد أن استرد طاقته تبدو أحيانا إلى حد ما فجائية كما كان شأنه وهو يدرب قدراته المتماثلة للشفاء ولكن ذلك لم يكن ملحوظا في كثير من الأحيان وأصح نادر الحدوث بالتدريج. ولقد دخل عنده الآن تشارلس دارنى فوضع الكتاب جانب على الفور ومد يده إليه مصافحا.

وقال الدكتور مانيت: «تشارلس دارنى! إننى أبتهج عندما أراك. ولقد كنا نأمل في عودتك في الأيام الثلاثة أو الأربعة الماضية. لقد كان في زيارتنا بالأمس كل من السيد سترايفر والسيد سيدنى كارتون. وكان كل منهما يتوقع قدومك».

وأجاب دارنى بقوله: «أشكر لهما اهتمامهما بالموضوع. والآنسة مانيت ـــ) فقال الدكتور مانيت: «إنها بخير، وعودتك لزيارتنا تبهجنا جميعا. لقد خرجت لقضاء بعض شئون المنزل ستعود بعد قليل». وقال دارنى: «يا دكتور مانيت، أنا أعرف أنها خرجت من المنزل، وأود أن أنتهز فرصة خروجها من المنزل لكى أرجوك أن أتحدث إليك». وساد الصمت بينهما برهة فقال الدكتور مانيت: «نعم؟ اقترب بمعقدك هنا وتكلم». وامتثل دارنى بسهولة لرغبة الدكتور مانيت في أن يقترب منه بالكرسي الذي كان يجلس عليه، ولكنه وجد صعوبة في الكلام ولم يجد الكلام سهلا. وبعد لأى بدأ دارنى يقول: «لقد كان يسعدنى يا دكتور مانيت أن أشعر بالألفة معكم عندما أكون بينكم لمدة عام ونصف العام لدرجة أننى آمل أن الموضوع الذي أود أن ألمسه لن يكون ـــ»

وتوقف دارنى عن الكلام عندما مد الدكتور مانيت يده نحوه لكى يوقفه عن الاستمرار في الكلام، وعندما توقف دارنى عن الكلام قال الدكتور مانيت بعد أن قبض يده مرة أخرى: «هل لوسى هى الموضوع الذي ستتحدث عنه؟»

فقال دارنى: «نعم، سأتحدث في موضوع يخص الآنسة لوسى». فقال الدكتور مانيت: «من الصعب بالنسبة لي أن أتحدث عنها في أي وقت، ومن الصعب جدا بالنسبة لي أن أسمع أي شخص يتحدث عنها بمثل اللهجة

التي تتحدث بها عنها يا تشارلس دارنى». فقال دارنى: «إنها لهجة الإعجاب المتوهج، والولاء الصادق، والحب العميق يا دكتور مانيت!» ورانت بينهما فترة صمت قبل أن يواصل أبوها الكلام قائلًا: «أنا أصدقك، إنصافا لك أنا مصدقك». وكان تأثر دارنى بهذه الكلمات كبيرا فقال بعد تردد: «هل أستمر في الكلام يا سيدى؟» ورانت بينهما لحظات أخرى من الصمت إلى أن قال الدكتور ما نيت: «نعم، استمر». وأخيرا استجمع دارنى أطراف شجاعته لكى يعلن عن حبه للآنسة لوسى ولكى يرجو الطبيب أن يثق في إخلاصه ونقائه. وبدا أبوها كما لو كان يفكر قبل أن يقول: «أنا أصدق تمامًا أن غرضك إنما هو بكل نقاء وبكل صدق كما تقول. وأنا أعتقد أن هدفك هو أن تقوِّى لا أن تضعف الروابط بينى وبين الجزء الآخر والأغلى عندى من نفسى المتمثل في شخص ابنتى. ولو أنها قررت لي أنك عنصر أساسى لكي تكتمل بك سعادتها، فإنا سأعطيها لك، ولو كان هنالك يا تشارلس دارنى، ولو كان هنالك ـــــ».

وكان الرجل الشاب قد أمسك بيده شاكرا ممتنا وتماسكت يداهما بينما الدكتور يستطرد في كلامه قائلا: «لو كان هنالك أي تصورات أو أي أسباب أو اتجاهات فكرية أو أي شيء مهما كان هذا الشيء ضد الرجل الذي تحبه في حقيقة الأمر - ولا تقع المسئولية في ذلك على عاتقه - فإن ذلك كله سيكرس لصالحها هي. إنها هي كل شيء بالنسبة لي. إنها عندى أكبر من أي مقاساة وأكبر من أي خطيئة، إنها عندى أكبر.... حسنا! هذا مجرد كلام عابر بيننا».

وكانت الطريقة التي أخلد فيها إلى الصمت التام طريقة جد غريبة، وكانت نظرته الثابتة الاتجاه غريبة أيضا عندما كان قد توقف عن الكلام عندما أحس دارنى أن يده قد غدت باردة في اليد التي تركت يده تنزل من يده.

وقال دارنى وهو في حيرة: «إن ثقتك بي تستحق بكل تأكيد أن تقابل عندى بكل أمانة من جانبى. والاسم الذي أحمله في الوقت الحالى مع أن به تحويرا قليلا عن اسم عائلة أمى، ليس كما تتذكر هو اسمى الحقيقى. وأنا أرغب في أن أقول لك اسمى الحقيقى وأود أن أخبرك بسبب وجودى في إنجلترا». فقال الدكتور مانيت: «صه!» فقال دارنى: «أنا أرغب في ذلك لعلى أكون مستحقا لثقتك على نحو أفضل عندما لا أخفى عنك أي سر من الاسرار». وقال الدكتور مانيت مرة أخرى: «صه! لا تتكلم». ووصل الأمر إلى وضع الدكتور مانيت إصبعيه في أذنيه لحظة ثم قال: «قل لى ما تشاء عندما أطلب ذلك منك وليس الآن. ولو رجحت كفَّتُك في الميزان، ولو كانت لوسى تحبك، تستطيع بالتأكيد أن تخبرنى بما تشاء صباح يوم زفافكما. هل تعدنى بذلك؟» فقال دارنى: «بكل سرور». فقال الدكتور مانيت: «هات يدك في يدى. إنها ستعود إلى المنزل بعد قليل، ومن الأفضل ألا ترانا سويا الليلة. انصرف راشدًا وليبارك اللّه لك!».

كان الظلام قد أرخى سدوله عندما انصرف دارنى، وبعد ساعة وبعد أن كان الظلام قد أرخى سدوله إرخاء أكثر إحكاما، عادت لوسى إلى المنزل، وأسرعت تدخل الحجرة بمفردها إذ كانت الآنسة بروس تصعد درجات السلم، وشعرت بالدهشة عندما وجدت الكرسى الذي اعتاد أبوها أن يقرأ وهو جالس فيه خاليا، ونادت: «يا أبى! يا أبى الغالى!».

ولم تسمع أي صوت يرد على ندائها، بل سمعت صوت طرقات مطرقة صغيرة تتوالى طرقاتها في حجرة نوم أبيها. وعندما عبرت بخفة الحجرة المتوسطة ونظرت من خلال باب حجرته، تراجعت خائفة مرتاعة وهي تقول لنفسها وقد تجمد الدم في عروقها: «ماذا سأفعل؟ ماذا سأفعل؟».

ولم تطُلْ حيرتها إلا لحظة واحدة ثم أسرعت عائدة، ونقرت على باب حجرته، ونادته بصوت هادئ. وتوقف صوت المطرقة الصغيرة أمام صوت لوسى وخرج أبوها على الفور، وأخذا يمشيان جيئة وذهابا لمدة طولة.

وعادت إليه من فراش نومها لكى تلقى نظرة عليه أثناء نومه في تلك الليلة. كان ينام بعمق، وصينية أدوات صنع الأحذية خاصته وما أنجزه من الشغل في الحذاء الذي كان يصنعه كانت كما هى لم يسمها مرة أخرى.

لو كانت طلعة سيدنى كارتون قد أشرقت في أي مكان، فلم تظهر طلعته البهية أبدا في منزل الدكتور مانيت في الآونة الأخيرة. لقد كان سيدنى يذهب كثيرا إلى منزل الدكتور مانيت طوال العام وكان كثير التلكؤ أثناء تلك الزيارات يغلف مظهره بكثير من الغموض وعدم الاكتراث بأى شيء. وعندما كان يجد ما يدعو إلى الكلام كان يتكلم بطريقة جيدة ولكن في سمت الشخص الذي لا يأبه ولا يكترث لأي شيء مما كان يضفى عليه نوعا من الغموض الذي نادرا ما تكشفه الأنوار المنبعثة من داخله.

وذات يوم من أيام شهر أغسطس جاء سيدنى كارتون إلى منزل الدكتور مانيت وسُمح له بالصعود إلى الدور العلوى ووجد لوسى بمفردها تزاول أعمال البيت. ولم تعتد لوسى أن تكون مستريحة البال تمامًا معه، وكانت تلقاه ببعض الخجل والارتباك عندما كان يجلس بالقرب من المنضدة التي كانت تعمل عليها. ولكنها عندما نظرت إل ملامح وجهه لأول وهلة هذه المرة فلقد لاحظت تغيرا فيه وقالت لوسى: «أخشى أن تكون حالتك على غير ما يرام يا سيد كارتون!» فقال كارتون: «لا، ولكن الحياة التي أحياها يا ينسة مانيت ليست حياة تفضى إلى حالة صحية جيدة. وماذا عساه أن تتمخض عنه مثل هذه الحياة الملئية بالمجون؟» فقال: «أليس مما يدعو إلى

الرثاء أنك لا تعيش حياتك بطريقة أفضل ومعذرة لتوجيه هذا السؤال إليك إذ أن السؤال قد قفز إلى شفتى دون قصد إساءة؟» فقال: «يعلم اللّه أن هذا عارٌ وأي عار!» فقال: «ولماذا لا تغير إذن نمط حياتك هذا؟» ونظرت إليه نظرة لطيفة مرة أخرى واندهشت وحزنت عندما شاهدت دموعا في عينيه. ولقد كانت هناك دموع في صوته أيضا وهو يقول: «لقد تأخر الوقت وفات أوان ذلك. لن أكون بحال أفضل من حالتى هذه، وساغوص إلى درك أسفل لأكون في حالة أسوأ».

لم تكن لوسى قد شاهدته أبدا يضعف وتلين عزيمته على هذا النحو وحزنت كثيرا من أجله وهو في تلك الحالة النفسية وهو يقول لها: «أرجوك أن تسامحينى يا آنسة مانيت. إننى أنهار وأضْعُف عن إدراك ما أريد أن أقوله لك. هل ستسمعين ما سأقوله لك؟» فقالت لوسى: «لو كان سيفيدك على أي نحو يا سيد كارتون. لو كان ذلك سيجعلك أكثر سعادة، فهو سيسرنى كيثرا كل السرور». فقال كارتون: «بارك اللّه من أجل تعاطفك معى. لا تخافى ولا تفزعى من أي شيء مما سأقوله لك. أنا مثلى مثل إنسان مات صغيرا. هذا هو شأن كل شىء في حياتى. كل شيء في حياتى يبدو لى كما لو كان قد مات». فقالت: «لا يا سيد كارتون. أنا متاكدة أن كل شيء في حياتك لا يزال موجودا. أنا متاكدة أنه ينتظر لك الكثير، الكثير مما تستحقه ذاتك لمزايا ذاتك». فقال كارتون: «فلنأخذ شأنى معك يا آنسة مانيت، وعلى الرغم من أننى أعرف على أفضل وجه - ورغم أن قلبى بكل وضاعته يعرف جيدا - فأنا لا يمكن أن أنسى هذا الشأن!»

وشحب وجهها وهى ترتجف. وتقدم لكى يواسيها بيأس ثابت مستقرقى صميم نفسه جعل من ذلك اللقاء لقاء لا يماثله لقاء آخر يتم بين شخصين. وقال لها: «لو افترضنا أنه كان من الممكن لك أن تبادلى الشخص الذي

يحبك حبا بحبٍّ وهو يقف أمامك الآن، وقد تحطمت نفسه داخل كيانه، وضاع منه قوام نفسه، وهو غارق في بحار سكره، وغَدَا مخلوقا عديم الفائدة كما عرفتيه دائما، فهذا الشخص مدرك الآن كل الإدارك في هذا اليوم وفي هذه الساعة أنه سيسبب لك البؤس وسيجلب لك الأسى والأسف والندم وسيشقيك ويشوِّه سمعتك وسيشدك معه إلى الهاوية. وأنا أعلم علم اليقين أنك لا تستطيعن إبداء أي عطف أو تسامح معى أو مع حقائق وجودى وشخصيتى على هذا النحو المزرى، وأنا لا أطلب شيئا من ذلك أبدا، وأنا شاكر ممنون لأن هذا مستحيل». فقالت: «وبدون ذلك ألا أستطيع أن أنقذك وأمد لك يد العون يا سيد كارتون؟ ألا يمكن لي أن أدعوك من جديد- وأرجو المعذرة مرة أخرى - إلى أن تنهج نهجا جديدا في حياتك؟»

وهز سيدنى كارتون رأسه وقال: «لو أنك تستطيعين أن تستمعى إلى ما أقوله أكثر قليلا مما استمعت إلى أقوالى؛ تكونى قد فعلت من أجلى كل ما يمكن أن تفعليه. أما أنا أحب أن تعرفى أنك أنت كنت الحلم الأخير لروحى. إننى في انهيار روحى ولم أنهر كل الانهيار وذلك لا لسبب سوى رؤيتى لك ولوالدك ولهذا البيت الذي أصبح بيتا على هذا النحو بفضل وجودك أنت بداخله مما كان يحرك في نفسى ظلالا قديمة كنت أظنها قد ماتت بداخلى. ولقد كانت تخالجنى بعض الأفكار التى أمكن لى أن أصوغها لكى أحاول الصراع لكى أنعش روحى ولكى أبدأ حياتى كما يجب أن تكون من جديد نافضا عن روحى الكسل والخور لكى أناضل نضالا كنت قد تقاعدت عنه زمنا طويلا. وكان ذلك حلمًا مجرد حلم كُلّه، ولكننى أريدك أن تعرفى أنك أنت كنت أنت التى ألهمتنى ذلك الحلم». فقالت: «أفلن يبقى من ذلك الحلم أي شي؟ أود يا سيد كارتون، فكِّرْ في ذلك مرة أخرى! حاول كرة أخرى!» فقال سيدنى كارتون: «لا يا آنسة مانيت، بعد ساعة واحدة أو ساعتين من

قيامى بهذه المحاولة التى تطلبينها ستعاودنى سيطرة رفاق الضعة والانحطاط على جماع نفسى وستهاجمنى العادات السيئة التي أحتقرها وأستسلم لها، وسيجعلنى كل ذلك أقل جدارة بدموع مثل هذه الدموع المترقرقة في عينيك من أي إنسان حقير يزحف متحركا بغير وعى في شوارع المدينة. استريحى واهدئى بالًا! إننى في قرارة نفسى سأكون نحوك دائما كما أنا الآن وعلى الرغم من تشتت قواى فأنا سأكون كما عهدتينى من قبل. وآخر رجاء لى أرجوه منك هو أن تصدقينى في هذا الذي أقوله لك». فقالت: «سأصدقك بالتأكيد يا سيد كارتون».

وقال سيدنى كارتون: «سيكون رجائى الأخير بين يديك هو هذا الرجاء وبه سأتيح لك فرصة أن تتخلصى من زيارات زائر يوجد بينك وبينه هُوَّة يستحيل عبورها، وغير مُجْدٍ أن أصوغ رجائى الأخير هذا في كلمات وأنا أعرف ذلك، ولكن هذا الرجاء ينبع من أعماق روحى ويندفع إلى لسانى من أجلك، ومن أجل أي إنسان عزيز عليك سأعمل بكل طواعية وقوة أي شيء وسيأتى الوقت، وبالتأكيد سيأتى ذلك الوقت ولن يتأخر كثيرا في المجيء عندما ستحيط بك ظروف جديدة. ظروف ستجعلك ترتبطين بمنزل جديد بروابط أكثر قوة وأكثر جمالا، وهذه الروابط التي ستكون أغلى وأجمل الروابط سوف تزجى إلى روحك الجمال وتدخل إلى نفسك البهجة والسرور. أوه يا آنسة مانيت، عندما تشاهدين بريق جمالك ينبع من جديد تحت قدميك، فكرى وتذكرى من آن إلى آن آخر أنه يوجد بجانبك رجل على أتم الاستعداد أن يضحى بحياته وروحه من أجل الحفاظ على حياة وروح أي إنسان تحبينه ليظل بجانبك!».

وقال لها سيدنى كارتون: «وداعا، وليبارك لك اللّه!» ثم تركها ومضى إلى حال سبيله.

الفصل التاسع

أشغال الإبرة
Knitting

كان هنالك إقبال مبكر عن المعتاد في تناول المشروبات في حانة السيد ديفارج. ومنذ الساعة السادسة صباحا كانت هنالك وجوه شاحبة نحيلة تحملق من خلال النوافذ ذات القضبان الحديدية إلى وجود أخرى شاحبة ونحيلة وقد انحنت الرؤوس ترتشف المشروبات. وكان ذلك هو صباح اليوم الثالث على التوالى الذي شهد مثل هذا الإقبال المبكر على تناول المشروبات في حانة السيد ديفارج.

وبالرغم من التدفق غير المعتاد للزبائن، فلقد كان صاحب المحل غير موجود بداخل المحل. ولم يفتقد أحد وجوده ولم يسأل أحد عن سبب غيابه ولم يندهش أحد من وجود السيدة ديفارج وحدها تجلس في مقعدها وهي تشرف على توزيع المشروبات.

ومضى الوقت حتى جاوز ساعات الظهيرة عندما مشى رجلان يغمرهما الغبار في الشوارع تحت المصابيح المهتزة، وكان أحدهما هو السيد ديفارج، وكان الآخر هو عامل من عمال إصلاح الطرق يرتدى قبعة زرقاء. ولم يقتف أثرهما أحد، ولم يتكلم أي شخص عندما دخلا الحانة بالرغم من أن عينى كل رجل بداخل الحانة كانتا قد التفتت نحوهما.

وقال السيد ديفارج: «طاب يومكم يا حضرات السادة!» ورد عليه الموجودون ردا جماعيا فقال ديفارج وهو يهز رأسه: «حالة الجو سيئة يا سادة». وعندئذ نظر كل شخص إلى الشخص الذي بجانبه ثم أنزلوا عيونهم إلى الأرض وظلوا سامتين فيما عدا رجل واحد نهض واقفا وخرج.

وقال ديفارج بصوت عال: «يا زوجتى، لقد سافرت مسافة فراسخ معينة مع هذا العامل من عمال إصلاح الطريق واسمه (جاك) ولقد كنت قد قابلته بالصدفة بعد رحلة اليوم ونصف اليوم من باريس. إنه ولد طيب، هذا العامل من عمال الطريق الذي اسمه (جاك) أعطه مشروبا لكى يشربه يا زوجتى».

ونهض رجل آخر وخرج. ووضعت مدام ديفارج مشروبا أمام عامل إصلاح الطريق الذي اسمه جاك فخلع قبعته ولوَّح بها تحية للموجودين وشرع في تناول الشراب. وبداخل قميصه الأزرق كان يحمل بعض قطع من الخبز الخشن الغامق اللون، وكان يأكل منه على فترات بين رشفات الشراب بالقرب من مكتب مدام ديفارج ونهض رجل ثالث وخرج.

وانتظر السيد ديفارج حتى فرغ عامل إصلاح الطرق الريفية من إفطاره ولم يكن ينظر إلى أحد ولم يكن أي شخص ينظر غليه حتى مدام ديفارج التي كانت قد أمسكت بلوازم شغل الإبرة وانهمكت في ممارسته.

وقال ديفارج: «هل فرغت من تناول وجبتك أيها الصديق؟».

فقال الرجل: «نعم، أشكرك». فقال ديفارج: «تعال إذن لكى ترى الشقة التي أخبرتك أنك يمكن لك أن تشغلها. إنها ستناسبك إلى حد كبير».

وخرجا من المحل إلى فناء، وصعد درجات سلم شديد الانحدار ودخلا إلى أحد المخازن حيث كان يوجد من قبل رجل أبيض الشعر يجلس إلى مقعد منخفض منحنيا إلى الأمام وهو يصنع الأحذية.

ولم يكن هنالك رجل أبيض الشعر الآن، ولكن الرجال الثلاثة الذي كانوا تسللوا واحدا بعد الآخر وخرجوا من المحل كانوا هناك، وكان بينهم وبين الرجل ذى الشعر الأبيض مسافات ومسافات وكانت كل الصلة بينهم وبينه هى أنهم كانوا قد نظروا إليه من خلال الفتحات الصغيرة في الجدار.

وأغلق ديفارج الباب بعناية وتكلم في صوت هادئ: «جاك واحد، جاك اثنين، جاك ثلاثة! هذا هو الشاهد الذي سبق أن أشرت إليه أنا يا جاك أربعة. وهو سيخبركم بكل شيء. تكلم يا جاك خمسة!».

ومسح عامل إصلاح الطريق جبينه بقبعته الزرقاء في يده وقال: «من أين أبدأ يا سيدى؟» فقال ديفارج: «ابدأ من البداية». وبدأ الرجل يقول: «شاهدته يا حضرات السادة آنذاك منذ عام قبل الصيف الحالى تحت عربة الماركيز متعلقا بالسلسلة. تخيلوا منظرة آنذاك. وكنت قد تركت العمل لكى أستريح آنذاك، وكانت الشمس تميل للمغيب وكانت عربة الماركيز تصعد التل ببطء وكان هو يتعلق بالسلسلة هكذا».

وكرر عامل إصلاح الطريق تشخيصه لهيئة الرجل آنذاك. وتدخل جاك واحد في الحديث وسأل عامل إصلاح الطرق ما إذا كان قد شاهد ذلك الرجل من قبل. فأجاب عامل إصلاح الطرق: «أبدا». وسأل جاك ثلاثة كيف كان قد تعرف عليه آنذاك وهو لم يكن قد رآه من قبل. فقال عامل إصلاح الطرق: «كل ما لفت نظرى إليه هو طوله الفارع. وعندما سألنى الماركيز في ذلك المساء قائلا لى: قل لى ما هى ملامح ذلك الرجل، كانت إجابتى

له هو قولى له: طويل كالمارد». فقال جاك اثنين: «كان يجب أن تقول له إنه قصير كالقزم». فقال عامل إصلاح الطرق: «ولكن ماذا كنت أنا أعرف عنه حتى أضلل الأنظار عنه؟ لم يكن العمل الذي أنجزه قد تم إنجازه آنذاك إننى عندئذ لم أكن أقدم شهادة جريمة إذ لم تكن الجريمة قد وقعت في ذلك الوقت. ووقف السيد الماركيز وهو يشير بسبابته ويقول: «أحضروا هذا النذل عندى أنا هنا!» وأنا لم أبح بشيء كان يلزم ألا أبوح به أيها السادة». وتمتم ديفارج قائلا: «معه كل الحق في ذلك يا سادة. استمر».

قال عامل إصلاح الطرق: «حسنا، الرجل الطويل القامة لم يتمكن أحد من العثور عليه. وكان البحث عنه جاريا على قدم وساق. لمدة كم شهر استمر البحث عنه؟ تسعة شهور، عشرة شهور، أحد عشر شهورا؟ أما أنا لا أستطيع أن أحدد المدة التي استمر فيها البحث عند بالضبط». وقال ديفارج: «لا تهم مدة البحث عنه. إنه قد اختبأ اختباءً متقنا، ولكنه في النهاية لسوء الحظ قد تم العثور عليه». استمر فقال عامل إصلاح الطرق: «كنت أقوم بعملى في أحد جوانب الجبل. وكانت الشمس مرة أخرى تميل نحو المغيب. وكنت أجمع أدوات العمل لكى أنزل إلى الكوخ الذي كنت أقيم فيه. وكان الظلام قد خيم بالفعل على المكان عندما نظرت وشاهدت ستة من الجنود وهم يتقدمون في اتجاه الكوخ. وكان في وسطهم الرجل الطويل القامة وذراعاه مربوطتان إلى جانبه هكذا».

وبمساعدة قبعته قام بتمثيل كيفية ربط الرجل ومرفقاه مربوطان بشدة تتدليان إلى إليتيه وراء ظهره بحبال كانت تتدلى وراءه.

ثم استطرد عامل إصلاح الطرق قائلا: «وكنت أقف على أحد الجوانب أيها السادة أرقب بالقرب من كومة من الأحجار لكى اشهد الجنود والسجين

بين أيديهم وهم يواصلون السير. ولم أظهر للجنود أننى كنت أعرف الرجل الطويل القامة وهو لم يظهر لهم أنه كان يعرفنى. فعلنا ذلك، وكنا نعرف ما فعلناه. وقال رئيس المجموعة: «تعال هنا». وأشار إلى القرية ثم قال: «أسرع به إلى مقبرته!» وأسرعوا به وأنا أتتبعهم في سيرهم. وتورم ذراعاه لكونهما مربوطتين بشدة، كان حذاؤه الخشبى ضخما وقبيح الشكل، وكان في مشيته عرج وبطء، وكانوا يدفعونه بكعوب بنادقهم هكذا». وقام بتقليد كيفية دفعهم له ثم قال: «وظللنا نراه لبضعه أيام في قفصه الحديدى داخل السجن». واستمر الرجل في السرد وهو يكثر من الإشارات بيديه ليصف لهم مبنى السجن والمشنقة بالقرب من النافورة بالقرية ثم قال:

«وفوق المشنقة كانت سكين قد تم تثبيتها ونصلها يتجه إلى أعلى وطرفها المدبب مشرع في الهواء. وتم شنقه على تلك المشنقة التي يبلغ ارتفاعها أربعين قدما، وبقى معلقا فوقها متسببا في تسمم الماء».

ونظر كل منهم إلى الآخر بينما كان عامل إصلاح الطريق يمسح وجهه بقبعته الزرقاء لكى يستعيد نشاطه في سرد ذكرياته عن المنظر ليقول: «كان منظرا رهيبا يا حضرات السادة. كيف كان يمكن للنساء وللصبية أن يأخذوا الماء من النافورة وأمامهم هذه المنظر الرهيب؟ ومن الذي يستطيع أن يتحدث أثناء المساء وهذا المنظر يخيم على الفضاء؟ هذا هو كل شيء يا حضرات السادة. ولقد غادرت القرية عند المساء (كما طلبوا منى ذلك) وأخذت في السير طوال تلك الليلة ونصف النهار التالى حتى قابلت هذا الزميل (كما طلب منى ذلك) ومعه ها أنا ذا قد جئت عندكم».

وبعد فترة من الصمت الكئيب قال جاك واحد: «حسنا، لقد تصرفت وحكيت لنا حكايتك بصدق. هل يمكن لك أن تنتظرنا خارج الباب قليلا من الوقت؟».

فقال عامل إصلاح الطرق: «بكل ارتياح» ورافقه ديفارج إلى رأس السلم وتركه جالسا هنالك وعاد إلى رفاقه.

وكان رفاقه الثلاثة قد وقفوا. وكانت رؤوسهم متقاربة عندما عاد ديفارج إلى المخزن. وسأل جاك رقم واحد: «ماذا تقول يا جاك، هل يتم تسجيله؟» فقال ديفارج: «يتم تسجيله باعتبار أنه محكوم عليه بالدمار». فقال جاك: «القلعة وكل السلالة؟» فقال ديفارج: «القلعة وكل السلالة. الإعدام».

وسأل جاك اثنين قائلا: «هل أنت متأكد أنه لا توجد خطورة تنشأ عن الاحتفاظ بالسجل؟ إنه في مأمن دون ريب في ذلك لأنه يستحيل على أي شخص سوانا أن يحل شفرته. ولكن هل سيكون في استطاعتنا دائما أن نطلع على شفرته أو بالأصح هل هى ستسمح لنا بذلك؟» فقال ديفارج وهو يشد من قامته: «يا جاك، لو أن السيدة زوجتى تعهدت أن تحتفظ بالسجل في ذاكرتها هي وحدها فهى لن تفقد كلمة واحدة منه ولن يفوتها أي مقطع صغير من أي كلمة. وعندما يتم نسخ الكلمات باستخدام غرزات الخيوط التي تحيكها بالإبرة من خلال رموزها ستكون الكلمات واضحة لها مثل وضوح الشمس في رائعة النهار. ثقوا بمدام ديفارج. وسيكون من السهل على أضعف رعديد أن يزيل نفسه من الوجود دون أن يستطيع أن يمحو حرفا واحد من اسمه أو من جرائمه من السجل المنسوج بخيوط مدام ديفارج».

وفي اليوم التالى، أطلق ديفارج سراح عامل إصلاح الطرق لكى يعود إلى قريته. وعند إحدى نقاط الشرطة تحدث ديفارج إلى أحد رجال الشرطة

الذي كانت له به سابق معرفة ثم عاد إلى حانة النبيذ وقال لمدام ديفارج: «جاك من العاملين بمحفز الشرطة طلب منى أن أخبركم أنه يوجد جاسوس آخر قد أوكلوا إليه شئون الحى الذى يقع فيه هذا المحل. وربما كان به جواسيس آخرون، وهذا هو كل ما يعرفه، وهو لا يعرف إلا شخصا واحدا من أولئك الجواسيس».

وقالت مدام ديفارج: «إيه، حسنا. من الضرورى أن نسجله. بم يسمون ذلك الجاسوس؟» فقال: «إنه إنجليزى». فقالت: «هذا أفضل. ما اسمه؟» فقال ديفارج: «بارساد» ونطقها باللهجة الفرنسية ثم عاد ونطقها باللهجة الإنجليزية حتى لا يضيع الحرف الأخير من اسم الجاسوس عند تسجيله ثم عمد إلى أن يتهجى لها حروف اسم الجاسوس لمزيد من الدقة والوضوح. وكررت مدام ديفارج النطق باسم الجاسوس قائلة: «بارساد، ما الاسم الأول له؟» فقال ديفارج: «جون». فكررت مدام ديفارج الاسم ثنائيا بقولها: «جون بارساد. حسنا وما هى ملامحه؟ هل ملامحه معروفة؟» فقال ديفارج: «عمره حوالى أربعين سنة، والطول حوالى خمسة أقدام وتسع بوصات. أسود الشعر ولون بشرته غامق وهو يبدو وسيما حسن المظهر، ولون عينيه غامق، ووجهه نحيل، وهو طويل الوجه وفيه شحوب، وأنفه معقوف يميل قليلا نحو خده الأيسر، ونظره العام منظر شخص شرير بطبيعة الحال». فقالت مدام ديفارج وهى تضحك: «إيه يا حبيبى، هذه صورة مرسومة مكتملة الملامح. إنه سيسجل».

وحانت ظهيرة اليوم التالى وكانت المرأة العجيبة جالسة في مكانها المعتاد في محل النبيذ وهى تقوم بعمل أشغال الإبرة بكل جدية واجتهاد. وكانت وردة موجودة بجوارها، ولقد كانت تلقى نظرة من آن لآخر إلى الوردة، لقد كانت هيئتها لا تتغير أبدا. وكان يوجد بداخل المحل عدد قليل

من الزبائن منهم من يشرب ومنهم من لا يشرب، ومنهم من يقف على قدميه ومنهم من يجلس على كرسيه إلى منضدته وقد توزعت أماكنهم بداخل المحل.

ودخل شخص ما إلى المحل ملقيا بظلاله ناحية مدام ديفارج وشعرت أنه وجه جديد لم يسبق له دخول المحل من قبل. ووضعت شغل الإبرة من يدها وبدأت تغرس وردتها في غطاء راسها قبل أن تنظر نحو ذلك الشخص.

وكان الأمر مدهشا وغريبا. في اللحظة التي رفعت فيها مدام ديفارج الوردة نحو رأسها توقف الزبائن تماما عن الكلام وبدأوا في الخروج من المحل واحدا بعد واحدا بعد واحد. وقال القادم الجديد: «طاب يومك يا سيدتى». فقالت: «وطاب يومك يا سيد». قالت ذلك بصوت عال ثم تمتمت تقول لنفسها بصوت خفيض: «هاه! طاب يومك العمر حوالى أربعين سنة، والطول حوالى خمسة أقدام وتسع بوصات. أسود الشعر ولون البشرة غامق ويبدو وسيما حسن المظهر، ولون العينين غامق، وجهه نحيل، طويل وفيه شحوب، وأنفه معقوف يميل قليلا نحو خده الأيسر، ومنظره العام منظر شرير بطبيعة الحال! طاب يومك اليوم وكل يوم!».

وقال الرجل: «هل تتكرمين بأن تعطينى كأسا من الكونياك القديم وشربة ماء بارد طازج يا سيدتى؟» وقدمت له ما طلبه بكل أدب فقال لها: «هذا كونياك فاخر يا سيدتى!».

وكانت تلك هى المرة الأولى التي يطرى فيها أحد الزبائن أحد المشروبات، وكانت مدام ديفارج تعرف ذلك جيدا، ولكنها قالت على كل حال إنه جدير بالثناء وعادت إلى شغل الإبرة. وراقب الزبون أصابع يدها لحظات قليلة، ثم انتهز الفرصة لكى يتفحص المكان بوجه عام ثم قال:

«أنت تقومين بشغل الإبرة ببراعة فائقة يا سيدتى». فقالت: «تعودت ذلك». فقال: «والطراز الذى تشتغلين فيه جميل أيضا»، فقالت «تعودت ذلك». فقالت: «هل أنت تعتقد ذلك؟» وابتسمت فقال: «بكل تأكيد. هل يجوز لى أن أسأل: لأى غرض سيكون؟» فقالت: «لمجرد شغل وقت الفراغ». وكانت لا تزال تنظر إليه وهى تبتسم بينما أصابعها تشتغل دون توقف. فقال: «أليس تصنعينه للاستخدام؟» فقالت: «يتوقف ذلك على الظروف. ربما أجد له مناسبة يستخدم فيها في يوم من الأيام. ولو مضت الأمور كما يرام فأنا سوف أستخدمه!».

كان المشهد جديرا بأن يكون مشهودا: ولكن مذاق حى سانت أنطوان لم يكن يتسق بكل تأكيد مع الوردة فوق غطاء رأس مدام ديفارج. وكان رجلان قد دخلا إلى المحل كل واحد منهما بعد الآخر، وكانا على وشك أن يطلب كل منهما شرابا عندما شاهدا ذلك المشهد الجديد، واعتراهما الارتباك وتظاهر كل منهما بأنه إنما جاء للبحث عن شخص ولم يجده بالمحل وانصرفا. ولم يكن شخص واحد موجودا من الأشخاص الذين كانوا موجودين عندما دخل ذلك الشخص. كانوا جميعا قد انصرفوا. وظل الجاسوس مفتوح العينين، ولكنه لم يستطع أن يعثر على أي أثر لأى شيء. كانوا قد انصرفوا يتسكعون بعيدا عن المحل وقد طبعهم الفقر بطابعه وأناخ عليهم بكلكله دون هدف محدد على نحو تلقائى طبيعى يستحيل أن يتشكى فيه أحد.

وقالت مدام ديفارج لنفسها همسا وهى مستمرة في أشغال الإبرة وأصابعها لا تكف عن الحركة وهى تنظر نحو الرجل: «جون. ابق هنا مدة أطول وأنا سأنسج حروف كلمة (بارساد) قبل أن تنصرف من هنا». وقال الرجل: «هل لديك زوج يا سيدتى؟» فقالت: «عندى زوج». فقال: «وأولاد؟»

فقالت: «لا أولاد». فقال: «ويبدو الشغل على غير ما يرام». فقالت: «ظروف العمل سيئة جدا. الناس فقراء جدا». فقال: «آه، آه للناس التعساء البائسين! إنهم مسحوقون كما تقولين». فقالت: «كما تقول أنت». وبعد أن صححت له عبارته استمرت في تطريز كلمة لم تكن في صالحه بجوار اسمه.

وقال الرجل: «اعذرينى، لقد كنت أنا الذي قلت إن الناس مسحوقون، وبالطبع فأنت تعتقدين ذلك». فقالت: «هل أنا التى تعتقد ذلك؟ إن عندى وعند زوجى شغل كاف لكى نبقى هذا المحل مفتوحا دون أن نفكر في أي معتقدات».

ولم يسمح الجاسوس الذي كان قد ذهب إلى ذلك المكان لكى يلتقط أي فتافيت من المعلومات لحالة الإحباط التي شعر بها لتظهر على قسمات وجهه الشرير ولكنه وقف وقفة شخص لا يهمه سوى الدردشة وقد أسند كوع ذراعه إلى مكتب مدام ديفارج الصغير الحجم وهو يرتشف من كأس الكونيكا الذي في يده الأخرى ثم قال: «كانت مسألة إعدام جاسبارد مسألة شائنة وكريهة يا مدام. آه، جاسبارد المسكين!» وتنهد بتعاطف شديد فقالت مدام ديفارج: «أنا في ملتى واعتقادى أن من يستخدم السكاكين في مثل هذه الأغراض فمن الضرورى أن يدفع ثمن ذلك. ولقد كان يعرف مقدما ثمن ترف استخدام السكين على ذلك النحو، ولقد دفع الثمن».

وقال الجاسوس وهو يخفض من صوته على نحو يوحى بالثقة: «أنا أعتقد أنه يوجد تعاطف كبير وسخط في هذه المنطقة يتصل بذلك الشخص المسكين؟ هذا فيما بيننا». فقالت غير مصدقة ما يقوله: «هل يوجد شيء من ذلك؟» ثم أردفت تقول: «ها هو ذا زوجى!».

وعندما كان صاحب المحل يدخل إلى المحل ويضع قدميه على عتبة الباب، فلقد عمد الجاسوس إلى تحيته بأن لمس قبعته فوق رأسه بيده وقال وهو يبتسم متظاهرا بالود والترحاب: «طاب يومك يا جاك!» وتوقف ديفارج في مكانه وحملق فيه.

وردد الجاسوس قوله: «طاب يومك يا جاك!» وكانت ثقته بتجاوب ديفارج معه قد أصبحت أقل عن ذى قبل وتضاءل حجم ابتسامته وهو يحملق في وجه ديفارج. فقال صاحب المحل: «أنت تخدع نفسك يا سيد. أنت تظننى شخصا آخر. جاك ليس هو اسمى. اسمى هو إرنست ديفارج». فقال الرجل بعفوية مشوبة بعدم الارتياح: «كلها أسماء. طاب يومك». وعندما قال ذلك مشى الرجل حتى أصبح وراء المكتب الصغير ووضع يده على خلفية الكرسى الذي كانت تجلس عليه مدام ديفارج. ولم يغير الجاسوس المتمرس بخبرات الجاسوسية شيئا من مظهره غير المبالى بشىء مما حوله واستمر في ازدراد ما في كأسه من الكونياك ثم ابتلع رشفة من الماء وطلب كأسا أخرى من الكونيك، وصَبَّتْ له مدام ديفارج كأسا أخرى ثم التقطت شغل الإبرة من جديد وبدأت تغنى أغنية قصيرة بصوت خفيض وهى تزاول الشغل بالإبرة. واستمر الجاسوس في محاولة الحوار مع السيد ديفارج من جديد وقال: «إن سرورى من المحادثة معك يا سيد ديفارج يجعلنى أتذكر بعض الذكريات الشائقة المرتبطة باسمك». فقال ديفارج متظاهرا بعدم الاكتراث: «حقا!» فقال الرجل: «نعم. إن ما أقوله هو الحق. أنا أعرف مثلا أنه عندما تم إطلاق سارح الدكتور مانيت، كنت أنت، خادمه القديم، الذي تعهدت برعايته. وقد تم تسليمه إليك. هل تدرك الآن أننى ملم بالظروف؟» فقال ديفارج: «هذه هي الحقيقة بكل تأكيد ودون أي جدال في

ذلك». وكانت زوجته قد أشارت إليه أن يرد دون ذكر أي تفاصيل قد الإمكان مؤثرا الإيجاز.

وقال الجاسوس: «وكنت أنت الشخص الذي جاءت إليه ابنة الدكتور مانيت، وكنت أنت أيضا الشخص الذي عنى بمهام عودة ابنته به إلى إنجلترا».

وكرر ديفارج قوله: «هذه هى الحقيقة دون ريب». فقال الجاسوس: «هذه ذكريات شائقة! لقد تعرفت على الدكتور مانيت وعلى ابنته في إنجلترا». فقال ديفارج: «نعم؟» فقال الجاسوس: «ألم تعد تسمع الكثير من أخبارهما الآن؟» فقال ديفارج: «لا». وقالت مدام ديفارج وقد رفعت رأسها عن شغل الإبرة وتوقفت عن الغناء: «نحن لا نسمع عنهما أي أخبار الآن. عرفنا وصولهما بسلام إلى إنجلترا. وربما وصلنا خطاب واحد أو خطابان، ولكن، منذ ذلك الحين اتخذا طريقهما في الحياة، ومضينا نحن أيضا في طريقنا في الحياة، ونحن لم نجر أي مراسلات معهما من جانبنا». فقال الجاسوس: «بالضبط يا سيدتى. إنها ستتزوج». وردت مدام ديفارج على الفور قائلة: «ستتزوج؟ لقد كانت جميلة جدا بحيث كان يلزم أن تتزوج منذ وقت طويل مضى. أنتم أيها الإنجليز تمتازون بالبرود فيما يبدو لى». فقال الجاسوس: «أوه، أنت تعرفين طبعا أننى إنجليزى». فقالت: «أنا مدركة أن لسانك تدل لغته ولكنته على أنك إنجليزى يتكلم معنا باللغة الفرنسية ولسان الرجل ولغته يدلان على جنسيته».

ولم يأخذ الرجل مسألة التعرف على جنسيته مأخذ الاهتمام ولكنه تخلص من الحرج بأن بدأ يضحك، وبعد أن ارتشف رشفة من الكونياك قال: «نعم، الآنسة مانيت ستتزوج، ولكنها لن تتزوج من رجل إنجليزى إنها ستتزوج من رجل فرنسى، وُلد مثلما وُلِدَتْ في فرنسا. وعندما نتكلم

عن جاسبارد. آه، جاسبارد المسكين! لقد كانت مأساته قسوة. إنها قسوة! ومن الغريب أنها ستتزوج من ابن أخ الماركيز الذي كان جاسبارد قد قتله وتم إعدامه لارتكابه هذه الجريمة على مشنقة يبلغ ارتفاعها أقداما كثيرة. وبكلمات أخرى: ستتزوج من الماركيز الحالى. ولكنه يعيش دون أن يعرف أحد تقريبا أنه هو الماركيز الحالى بعد اغتيال عمه الماركيز السابق. لا يعرف أحد أنه ماركيز هناك في إنجلترا. إنه معروف هناك باعتبار أنه السيد تشارلس دارنى. دولنيه هو اسم عائلة أمه. دارنى تحريف بسيط لكلمة دولنيه».

واستمرت مدام ديفارج في التطريز بالإبرة، ولكن معلومات الجاسوس كان لها وَقْعٌ وتأثير على زوجها. ومهما حاول أن يفعل وراء المكتب الصغير محاولا إشعال ومعاودة إشعال غليونه فلقد كان بادى التوتر، وكانت رعشة يده تدل على توتره. ولم يكن الجاسوس يمكن أن يكون جاسوسا لو لم يلحظ ذلك ويسجله في ذهنه.

أما وقد توصل السيد بارساد إلى هذه الملاحظة على الأقل سواء كانت ذات قيمة وأهمية أو لم تكن، ولم يصل أي زبائن يمكن أن يجمع من خلالهم أي ملاحظات أخرى، فلقد دفع ثمن مشروباته وغادر المحل. وظل السيد ديفارج وزوجته صامتين بعد أن خرج الرجل إلى حى سانت أنطوان خشية أن يرجع الرجل فجأة.

وقال ديفارج وهو ينهض واقفا وينظر إلى زوجته: «هل يمكن أن يكون ما قاله على الآنسة مانيت صحيحا؟» فقالت مدام ديفارج وقد ارتفع حاجباها قليلا: «أما وقد قال الرجل ذلك فمن الممكن أن يكون كاذبا ومن الممكن أن يكون صادقا». فقال: «لو كان --» فقالت: «لو كان ماذا؟» فقال: «لو حدث ذلك فعلا - أنا آمل - من أجل خاطرها أن يتكفل القدر بان يظل زوجها بعيدا

عن فرنسا». فقالت: «إن قدر زوجها سيذهب به إلى حيث يجب أن يذهب، وسيفضى به إلى النهاية التي ستنتهى بها حياته. هذا هو كل ما أعرف بهذا الخصوص».

قال السيد ديفارج: «ولكن أليس عجيبا جدا أنه مع كل تعاطفنا مع أبيها ومعها تتم كتابة اسم زوجها تحت يدك في هذه اللحظة إلى جانب اسم ذلك الكلب الحقير الذي انصرف من هنا منذ قليل؟» فقالت مدام ديفارج: «إن أشياء وأمورا أكثر غرابة من ذلك ستحدث. لقد سجلت اسم الرجلين كليهما هنا. سجلت اسم تشارلس دارنى بجانب اسم جون بارساد بالتأكيد. والاسمان موجودان هنا لكى يلقى صاحب كل منهما ما يستحقه. وفي هذا الذى أقوله كل الكفاية».

وطوت الخيوط وكل ما كانت قد خاطته منها عندما قالت تلك الكلمات ونزعت الوردة من عطاء رأسها.

❋❋❋❋

الفصل العاشر

تسعة أيام
Nine Days

كانت شمس يوم الزفاف مشرقة وضاءة، وكانوا على أهبة الاستعداد خارج باب حجرة الدكتور مانيت حيث كان يتكلم مع تشارلس دارنى. كانوا مستعدين للذهاب إلى الكنيسة. كانت العروس مستعدة كل الاستعداد، وكان السيد لورى والآنسة بروس مستعدَّيْن أيضا.

وقال السيد لورى الذي لم يكن قد فرغ بعد من إزجاء عبارات الإعجاب إلى العروس وهو يدور حولها لكى يراجع كل نقطة في ثوب زفافها الجميل: «وهكذا كان كل ما حدث مكرسا من أجل هذا اليوم يا عزيزتى لوسى الجميلة. لقد جئت بك طفلة عبر المانش من أجل هذا اليوم. بارك لي اللّه فيما فعلت! كم كنت أعتقد أننى كنت أقوم بأداء مهمة صغيرة. كم كنت أستخف بمناسبة لقائى مع صديقى السيد تشارلس!»

وقالت الآنسة بروس التي لا تتوقف أبدا عن إبداء الملاحظات الواقعية: «رمية من غير رام. أنت لم يكن يدور بذهنك أن سيحدث هذا الذي يحدث. كيف كان يتأتى لك كأن تعرف أن هذا الذي يحدث كان سيحدث كما هو حادث الآن؟ هذا محض هراء!» فقال لها السيد لورى: «أحقا؟ ولكن لا تبكى!» فقالت: «أنا لا أبكى. أنت الذي تبكى». فقال لها: «هل أنا ... يا عزيزتى بروس؟» (وهكذا اجترأ السيد لورى أن يكون مرحا معها في هذه

المناسبة الفريدة). فقالت له: «أنت كنت تبكى. لقد شاهدت الدموع في عينيك، ولم أندهش لذلك. إن هديتك من الدموع تجعل الدموع، دموع الفرح تطفر من كل عين». وقال السيد لورى: «حسنا اعذرينى! هذه مناسبة تجعل الرجل منا يتأمل ويتحسر على كل ما فاته في شبابه. آه يا عزيزتى ا عزيزتى، يا عزيزتى! أتحسر عندما يدور بذهنى أنه كان من الممكن أن تكون معى زوجتى السيدة لورى في أي وقت من الأوقات طوال الخمسين سنة الماضية!» فقالت: «لا تهتم ولا تغتم!» فقال لها: «هل تعتقدين أنه كان من المستحيل أن تكون لى زوجة هى السيدة لورى؟» فقالت: «يوه! لقد كنت عزبا منذ كنت في المهد وستظل كذلك حتى تصل إلى اللحد؟. فقال لها وهو يزفر زفرة كبيرة: «حسنا، يبدو هذا محتمل الحدوث أيضا». فقالت: «لقد كتب عليك أن تظل أعزب منذ وضعوك في مهدك». فقال: «إذن، من حقى أن أعتبر أنهم قد أساءوا معاملتى والتعامل معى منذ ذلك الوقت، وكان من الضرورى لي أن أحتج على ذلك المخطط الذي خططوه لي لكى أظل عزبا طيلة حياتى. كفى معابثة!» ولف ذراعه حول خصر لوسى وهو يقول: «والآن، يا عزيزتى لوسى، أنا أسمعهم يتحركون في الحجرة المجاورة، والآنسة بروس وأنا، شأننا شأن أي شخصين في دنيا رجال الأعمال يهمنا أن نقول لك شيئا ترغبين في سماعه. إنك سوف تتركين أباك، يا عزيزتى، بين أيدى أناس يحبونه كما تحبينه أنت تماما. وسنبذل له كل عناية ورعاية ممكنة طوال الأسبوعين القادمين عندما تكونين أنت في واريكشاير، حتى أعمال تلسون سألقى بها وراء ظهرى من أجله. وعندما سيلحق بكما بعد انقضاء الأسبوعين، أنت وزوجك المحبوب لقضاء أسبوعين آخرين في ويلز، ستقولين إننا قد جئنا به إليك وهو في أحسن صحة وأسعد حالا. والآن

أنا أسمع خطوات شخص تقترب من الباب. دعيني أقبل ابنتي العزيزة لكي أباركها مباركة رجل عزب عجوز قبل أن يأتي شخص آخر مطالبا بدوره».

وانفتح باب حجرة الدكتور مانيت، وخرج منه الطبيب ومعه تشارلس دارني من الحجرة، وكان الدكتور مانيت شاحب الوجه كالموتى – ولم تكن تلك هي حالته عندما دخل الحجرة معه من قبل – لدرجة أنه لم تكن توجد في وجهه أية أثار لوجود أي لون. ولكن فيما عدا امتقاع لون بشرة وجهه لم يكن أي شيء في هيئته قد تغير فيما عدا شرود في نظرات عينيه وهو ينظر إلى السيد لوري مما جعله يتذكر تلك الحالة من شرود النظرات مع الفزع الشديد التي كانت تعتريه في بعض الأحيان في الأيام الأخيرة مثل الرياح الباردة.

وأعطى الدكتور مانيت ذراعه إلى ابنته ونزل معها درجات السلم ووصلا إلى عربتها. وتبعهما الآخرون إلى عربة أخرى، وسرعان ما وصلوا جميعا إلى كنيسة على مقربة من المنزل حيث لم تكن عيون الغرباء تنظر إليهم وتم زواج تشارلس دارني ولوسي مانيت.

وعادوا إلى المنزل ليتناولوا وجبة الإفطار، وكان كل شيء على أتم ما يرام، وبمرور الوقت أصبح الشعر الطويل الذهبي اللون الذي كان يتلامس مع الشعر الأبيض في ذلك المخزن في باريس يتلامس الآن معه، ولكن في لندن في صباح يوم ساطع الشمس عندما حانت ساعة الفراق بين الأب وابنته أمام باب المنزل.

وكان فراقا في غاية الصعوبة بالنسبة لكل من الأب والابنة على الرغم من أنه كان معلوما لكن منهما أنه فراق لن تطول مدته، ولكن أباها أخذ يشجعها وقال وهو يتخلص من عناقها له: «خذها يا تشارلس. إنها تخصك أنت!».

وكان المنزل بعيدا عن عيون المارة في الطريق والمتعطلين ومحبى الاستطلاع على شئون الناس، وكانت الاستعدادات للزفاف بسيطة وقليلة، وبعد رحيل العروسين كان الدكتور مانيت والسيد لورى والآنسة بروس بداخل المنزل ولم يكن معهم أي شخص آخر. وعندما رفرفت عليهم ظلال المنزل الباردة في صالة المنزل، لاحظ السيد لورى مدى التغيير الكبير الذي طرأ على الدكتور مانيت.

وكانت النظرة الزائغة تقلق السيد لورى ويضاف إليها أيضا الانطواء على الذات والاعتكاف داخل حجرته الخاصة به والتجول فيها جيئة وذهابا. وعندما صعدوا إلى الطابق العلوى تذكر لورى أيضا ديفارج صاحب الحانة والسفر تحت النجوم. وهمس لورى إلى الآنسة بروس بقوله: «أعتقد أنه ليس من الأفضل أن نتحدث معه الآن ومن الأفضل ألا نزعجه. وأنا يلزمنى أن أذهب لمباشرة بعض أعمالى في بنك تلسون، ولذلك فأن سأذهب إلى البنك الآن وسأعود بعد قليل. ثم سنذهب به إلى رحلة في الريف ونتناول هناك وجبة الغداء، وسيكون كل شيء على ما يرام».

ولقد كان من السهل على السيد لورى أن يباشر أعماله داخل البنك بأيسر من مواجهة الأعباء خارج البنك، استغرق منه العمل داخل البنك ساعتين، وعندما عاد إلى منزل الدكتور مانيت، صعد درجات السلم بمفرده، ولم يوجه أي أسئلة إلى الخادمة، ومضى مباشرة إلى الحجرة الخاصة بالدكتور مانيت، واستوقفه صوت دقات متتالية. وقال لورى لنفسه: «يا إلهى! ما هذا؟» واتقربت الآنسة بروس من أذنه وهمست تقول: «أدركنى! أدركنى! أنا قد ضعت! ماذا سأقول لسيدتى العزيزة؟ إنه لا يعرفنى، وهو يصنع أحذية الآن!».

وقال السيد لورى كل ما يستطيع لكى يجعلها تهدأ ودخل بنفسه إلى حجرة الكتور مانيت. كان المقعد قد وُضعَ في اتجاه النور كما كان عندما كان صانع الأحذية يمارس عمله من قبل، وكان رأس الدكتور مانيت محنيا على العمل، وكان مندمجا كل الاندماج في العمل.

واستمر الدكتور مانيت يمارس صناعة الأحذية لمدة تسعة أيام. وكان السيد لورى والآنسة بروسن يعنيان بشأنه كل العناية بكل حدب ومحبة. وأخبرت الآنسة بروس لوسى أنه كان في مهمة تتعلق بعمله. وفي اليوم العاشر استعاد الدكتور مانيت وعيه. وقضوا ذلك اليوم في الريف. وعوفى الدكتور مانيت وشُفِيَ تماما. وظل سليما معافى طوال الأيام الثلاثة التالية. وفي اليوم الرابع سافر لكى ينضم إلى ابنته لوسى وزوجها. وتم اتخاذ الاحتياطات اللازمة إزاء صمته الدائم من خلال خطاب كان لورى قد أرسله إلى لوسى، ولذلك لم يساورها أي قلق أو خوف على أبيها.

وعندما عاد الزوج وزوجته سعيدين إلى المنزل، كان أول شخص يظهر لهما لكى يقدم لهما التهانى هو سيدنى كارتون. وقضوا بالمنزل ساعات طويلة بعد أن قدم نفسه لهما. لم يكن قد طرأ على عاداته أي تحسينات، ولا في نظراته، ولا في طريقة سلوكه، وكان الإخلاص الأكيد يحوم حوله من كل جانب.

وانتهز كارتون وجود فرصة لكى ينتحى جانبا مع دارنى في إحدى الشرفات ليتحدث إليه بحيث لا يسمع حديثهما أي شخص آخر. وقال كارتون: «يا سيد دارنى، أن أرغب في أن نكون أصدقاء». فقال دارنى: «نحن بالفعل صديقان فيما آمله». فقال كارتون: «أنت طيب بحيث تقول ذلك كمجرد مجاملة بالكلام. وعلى أي حال، أنت تعرفنى كمجرد كلب

يلغ في شهواته ولم يفعل أي شيء طيب ولا يُنْتظر منه أن يفعل شيئا طيبا». فقال دارنى: «أنا لا أعرف أنك لن تفعل شيئا طيبا». فقال دارنى: «ولكننى أعرف أننى لن أفعل شيئا طيبا. ويمكن لك أن تثق بصحة ما أقوله. حسنا! لو أنك تقدر أن تتحمل مثل هذا الشخص غير الجدير بالاحترام أو الاهتمام، شخص له سمة تختلف في نوعيتها عن سُمْعتك، يأتى ويذهب في أوقات غريبة، سيكون لي الحق في أن أطلب أن يُسْمح لي أن أحضر وأن أنصرف باعتبار أنني شخص أحظى بمعاملة ممتازة استثنائية هنا، وسيكون من الجائز أن تنظروا نحوى كما لو كنت أنا مجرد قطعة من الأثاث غير مهذبة الصنع وغير جديرة بأن يأبه بها أحد (ويمكن لي أن أضيف أنه يمكن صرف النظر عن التماثل في الملامح الذي اكتشفته بينى وبينك). وأنا أشك فيما إذا كنت سأسيء استخدام هذا التصريح. واحد بالمئة لو انتفعت به أربع مرات في العام. وأنا أستطيع القول بأن هذا سيكون كافيا مقنعا بالنسبة لي لو عرفت أننى قد حصلت عليه».

فقال دارنى: «هل ستحاول؟» فقال كارتون: «هذه طريقة أخرى للقول بأننى قد وُضِعْتُ حيث أردت أشكرك يا دارنى لو جاز لى أن أناديك باسمك مجردا من أي لقب». فقال دارنى: «تستطيع ذلك يا كارتون اعتبارا من هذه اللحظة».

وتصافحا، واستدار سيدنى على عقبيه منصرفا، وبعد دقيقة واحدة كان سيدنى كارتون يهيم على وجهه دون هدف محدد كالعهد به دائما.

وعندما انصرف سيدنى كارتون ذكر تشارلس دارنى ملخصا للمحادثة التى دارت بينهما بوجه عام وتحدث عن سيدنى كارتون باعتبار أنه مشكلة إهمال وتَحطُّم في الشخصية. وباختصار فهو لم يتحدث عنه حديث شخص

ممرور منه أو متحامل بقسوة عليه ولكنه تحدث عنه كما يجوز لأي شخص يرى مظهر وسلوك سيدنى كارتون أن يتحدث عنه كما يبدو وكما يظهر هو نفسه للآخرين.

ولم يكن لدى تشارلس دارنى أي فكرة عن أن ذلك يمكن أن يظل عالقا بذهن زوجته الجميلة الشابة، ولكنه عندما انفرد بها في حجرتهما الخاصة بهما، وجدها تنتظره مقطبة جبينها الجميل المرفوع الذي يمكن ملاحظة مدى الاهتمام فيه بكل سهولة ووضوح فقال لها: «يبدو أنك تفكرين في شأن ما الليلة!» فقالت: «نعم يا تشارلس، يا أغلى الناس، لدينا ما نفكر فيه الليلة لأن موضوعا ما يشغل ذهن كل منا الليلة». فقال دارنى: «وما هو يا لوسى؟» فقالت: «هل تعدنى ألا تضغط بسؤال واحد لو طلبت منك ألا تسأل؟» فقال دارنى: «هل أعد؟ وماذا يستحيل أن أعد به حبيبتى؟» فقالت: «أنا أعتقد يا تشارلس أن السيد كارتون المسكين يستحق اهتماما أكثر واحتراما أكبر مما صدر عنك الليلة». فقال دارنى: «أحقا؟ يا حبيبتى، لماذا؟» فقالت: «هذا هو مال ليس لك أن تسألنى عنه. لكننى أعتقد – وأنا أعرف – أنه يستحق الاهتمام والاحترام» . فقال دارنى: «ما دمت تعرفين أنه يستحق الاهتمام والاحترام، فهذا يكفى. ماذا تريدينني أن أفعل يا حياتى؟» فقالت: «أريدك يا عزيزى أن تكون كريما معه دائما إلى أكبر حد ممكن، وأن تكون عطوفا متسامحا مع عيوبه عندما لا يكون موجودا. أريدك أن تعرف أنه يحمل بين جنبيه قلبا من النادر جدا أن يفصح لأحد عن مكنوناته وبين طيات قلبه جروح عميقة». فقال دارنى وهو مندهش ومتأثر: «إنه ليؤلمنى أن أفكر لحظة واحدة أننى أتسبب له في أي سوء. أنا لم يدر بخلدى أبدأ أن أفكر في ذلك بالنسبة له».

وعندئذ قالت لوسى: «يا زوجى، أنت صادق فيما تقول. إننى أخشى أنه لا سبيل إلى إصلاحه. والأمل ضئيل في أن أي شيء طبعه أو حظه في الحياة

يمكن إصلاحه الآن. ولكننى متأكدة أنه قادر على أن يفعل أفعالا خيرة جدا، وهو قادر فعلا على تحقيق على تحقيق أشياء عظيمة جدا».

وكانت تبدو جميلة إلى حد كبير وهى تبدى ثقتها في هذا الرجل الضائع لدرجة أن زوجها كان يود أن يستمر في التطلع إليها في هيئتها كما كانت تبدو له آنذك ساعات وساعات.

ثم قالت وهي تدنو منه: «وتذكر دائما يا أغالى حب كم نحن أقوياء في حياتنا السعيدة وكم هو ضعيف في حياته البائسة!»

ولمست تلك الدعوة إلى الرفق بإنسان بائس ذكرياته عن البائسين في وطنه وقال لها: «سأتذكر ذلك دائما يا قلبى الغالى! سأتذكر ذلك طول عمرى».

❊❊❊❊

الفصل الحادى عشر

أصداء وَقْع الأقدام

Echoing Footsteps

كان ذلك الركن الذي يعيش فيه الدكتور مانيت ويقع فيه منزله ركنًا مدهشا في قدرته على سماع الأصداء. وكانت لوسى تجلس في ذلك المنزل وتنسج ذلك الخيط الذهبى من خيوط السعادة لكى تجعله يلتف حول زوجها وأبيها وحولها هي نفسها وحول أصدقائها القدامى في حياة تنعم بالهدوء المملوء بالبركة والنعيم، وكان الهدوء يحيط بالحياة في ذلك المنزل بينما قاطنوه يستمعون إلى أصداء وقع أقدام السنين.

وفي البداية، كانت تجدُّ أوقات، على الرغم من كونها زوجه شابة سعيدة كل السعادة، إلا أن يديها كانتا ترتخيان عما تعملانه، وتنزل فوق عينيها غشاوة، وكان ذلك لأن شيئا ما كانت تحِسُّ به قادما بين الأصداء، خفيف الخطوات، حثيث التقدم، بطىء الحركة، آتٍ من بعيد، لا يكاد وقع خطواته يكون مسموعا آنذاك، التقدم، بطىء الحركة، آتٍ من بعيد، لا يكاد وقع خطواته يكون مسموعا آنذاك، ولكنه مع ذلك آتٍ بكل ثبات مما كان يحرك المخاوف في قلبها إلى حد كبير.

وكانت تلك الأصداء نادرا ما تتصل بوقع الأقدام الحقيقى للسيد سيدنى كارتون. إنه لم يكن قد استخدم حقه في زيارتهم دون موعد أكثر من ست

مرات طوال العام، وكان يجلس معهم في الأمسيات كما كان قد اعتاد أن يفعل ذلك في مرات كثيرة من قبل.

وكانت لوسى تمعن التفكير أحيانا في تلك الأصداء، وكانت تتسلى بالضحك منها في بعض الأحيان الأخرى عندما كانت تصغى إليها في منزلها الذي كان قد أصبح ركنا تتجاوب فيه تلك الأصداء الناجمة عن وقع خطوات الزمان حتى بلغت ابنتها السادسة من عمرها. وكم كانت أصداء وقع أقدام ابنتها حبيبة إلى قلبها، وكذلك كانت تحب أصداء وقع أقدام أبيها المفعمة بالحيوية والثقة وكانت تحب أيضا أصداء وقع أقدام زوجها بما لا يحتاج أي إيضا؛.

ولكن، كانت هنالك بالإضافة إلى تلك الأصداء، أصداءٌ أخرى، قادمة من بعيد كانت تمرق متسللة إليها مهددة متوعدة من ثنايا ركن ما من أركان الحياة خلال مسار الزمان. وفي ذلك الوقت، عندما بلغت طفلتهم الصغيرة، لوسى الصغير السادسة من عمرها، بدأ ذلك الصوت الرهيب لذلك الصدى المهدد المتوعد في الظهور كما لو كان صادرا عن عاصفة عاتية جامحة تجتاح فرنسا مع اضطراب في البحر عظيم ومخيف.

وفي ليلة في منتصف شهر يوليو عام ألف وسبعمائة وتسع وثمانين جاء السيد لورى في وقت متأخر من بنك تلسون وجلس بالقرب من لوسى وزوجها في نافذة يسودها الظلام. وكانت الليلة ذات جو حار وتذكروا ثلاثتهم سويا تلك الليلة القديمة بعد انقضاء يوم الأحد عندما كانوا ينظرون إلى البرق من نفس النافذة ومن نفس المكان.

وقال لورى: «لقد بدأت أفكر أنه يحسُنُ بي أن أقضى بقية الليلة في بنك تلسون. كان عندنا عمل كثير جدا طول النهار لدرجة أننا لم نن نعرف ما

ننجزه أولا قبل غيره من الأعمال الكثيرة ولم نكن نعرف أي جهة نتجه. توجد حالة من القلق وعدم الاستقرار في باريس لدرجة أن عملاءنا هناك يبدو أنهم غير قادرين على أن يثقوا على أموالهم في فرع البنك هناك على نحو يلبى احتياجاتهم بالسرعة اللازمة». وقال دارنى: «لا تزال تجد لديك ما يجعلك تدرك أن السماء ملبدة بالغيوم هناك!» فقال لورى: «أعرف ذلك، وأنا متأكد منه. ولكننى مصمم أن أتخلص من هواجسى طول النهار. أين مانيت؟»

وقال الدكتور مانيت وهو يدخل الحجرة التي كان يسودها الظلام: «هأنذا!» وقال له لورى: «أنا مسرور أنك موجود بالمنزل، لأن تلك الأمور العاجلة والمملة التي كانت تحيط بي طول النهار قد جعلتنى مُتْعَبَ الأعصاب دون سبب. هل أنت لن تبارح المنزل فيما آمل؟» فقال الدكتور مانيت: «لا، أنا سألعب الطاولة معك لو أحببت». قال لورى: «لا أظن أننى أحب ذلك لو كان لى أن أعبر عما أرتاح إليه. حالتى لا تسمح لى أن أراهنك وألعب ضدك الليلة. هل صينية الشاى موجودة يا لوسى؟ أشكرك. تعالى الآن وخذى مكانك بيننا، ولنجلس في هدوء واسمعى الأصداء التي كوَّنت عنها نظريتك». فقالت لوسى: «ليست نظرية، إنها خيال». فقال لورى: «هي خيال إذن يا عزيزتى العاقلة». وربت على يدها ثم استطرد قائلا: «إنها أصداء كثيرة جدا، وصاخبة جدا مع ذلك، أليست هي كذلك؟ ليس أمامنا شيء سوى أن نسمعها!».

وكانت أصداء وَقْع الأقدام الهائجة المائجة بعيدا في حي سانت أنطوان في قلب باريس في فرنسا، أصدا متتالية، مجنونة، خطيرة تشق طريقها بالقوة لتخترق حياة أي إنسان يقف في طريقها بينما كانت أفراد تلك الدائرة الصغيرة يجلسون في هدوء يسمرون بجوار إحدى النوافذ التي سودها

الظلام والهدوء كتلة ضخمة من الناس المهزولين ناحلى القوام يهرعون جيئة وذهابا مثل النحل عندما ينشط في الخلية وفوق رؤوسهم ومضات من الضوء المتوهج فوق رؤوسهم حيث كانت النصال المصنوعة من الحديد الصلب والحراب تلمع تحت أشعة الشمس. وكان زئير رهيب يشق أجواز الفضاء من حنجرة حى سأنت أنطوان، وكانت غاية زئير رهيب يشق أجواز الفضاء من حنجرة حى سانت أنطوان، وكانت غابة من السواعد العارية تصطرع متداخلة في الهواء كأفرع الشجر تحركها رياح الشتاء العاصفة وكل الاصابع تمسك بقوة وتوتر كل سلاح أو أي شيء يشبه السلاح كان يلقى بأيدى أفراد ذلك الحشد الجامح من كل مكان فوق الأرض وتحت الأرض.

ومن الذي أخرجهم من حيث أتَوْا إلى حيث يتوجهون؟ ذلك هو ما لم تره عين أحد منهم كانوا يشاهدون ذلك الحشد الحشيد ولكن البنادق القديمة كانت توزع عليهم - وهكذا كان الشأن بالنسبة لطلقات الذخيرة، والبارود، والكرات اللازمة لإشعال الحرائق، وقضبان الحديد. والناس الذين لم يستطيعوا أن يضعوا في أيديهم أي شيء من ذلك، مضوا بأيديهم الملطخة بالدماء لكى ينتزعوا الأحجار من موضعها في الجدران.

وكما أن لدوامة الماء وهو يغلى نقطة في وسطه هي نقطة المركز، فذلك كان هذا الحشد الهائج يلتف حول محل ديفارج لبيع النبيذ، وكانت كل نقطة في ذلك الحشد البشرى الهائج تبدو كما لو كان يمتصها ويجذبها نحوه المكان الذي يوجد فيه ديفارج نفسه الذي كان يحمل على ظهره بندقية ويتدفق العرق من كل جسمه وهو يصدر الأوامر، ويوزع الأسلحة وهو يشق طريقه بكل جهده في أكثر نقاط ومواضع الحشد الهائج ازدحاما بالناس.

وكان يصيح قائلا: «كن باستمرار على مقربة منى يا جاك ثلاثة، وأنت يا جاك واحد، وأنت يا جاك اثنين، اذهبا، وليضع كل منكما نفسه على رأس أكبر عدد ممكن من هؤلاء المواطنين. أين زوجتى؟»

وقالت مدام ديفارج وهى متماسكة كالعهد بها دائما ولكنها لا تشغل نفسها بأعمال الإبرة اليوم: «هأنذا كما ترانى!» وكانت إحدى يديها ممسكة ببلطة بدلا من مستلزمات شغل الإبرة الناعمة، وكانت تضع في خاصرتها مسدسا وسكينا رهيبة المنظر. وقال السيد ديفارج: «إلى أين تذهبين يا زوجتى؟» فقالت: «أذهب حيث تذهب الآن. ستجدنى على رأس النساء خطوة خطوة على طريق تقدمنا». وعندئذ صاح ديفارج قائلا بصوت جهورى مدوٍ: «هيا بنا إذَنْ أيها المواطنون الأصدقاء. نحن مستعدون! إلى الباستيل!».

وعلا الزئير من بحر البشر، موجة في إثر موجة، وعمقا فوق عمق، وطوى شوارع المدينة متجها إلى ذلك المكان. ودقت أجراس الإنذار مع دقات الطبول إزاء هياج بحر البشر في اندفاعه إلى الساحل الجديد.

أغوار سحيقة، وقناطر متحركة، وجدران هائلة من الحجارة والأبراج الهائلة بعد ذلك مباشرة، ومدفع، وبنادق، ونار، ودخان. ومن خلال النار ومن خلال الدخان – وفي قلب النار وفي قلب الدخان، ولأن بحر البشر كان قد قذف به مباشرة نحو المدفع، وفي التو واللحظة أصبح هو المدفعجى. إنه هو بعينه، ديفارج صاحب محل بيع النبيذ، ظل يعمل مستخدما المدفع مثل جندى متمرس باستخدام المدفع. ساعتان حافلتان بالوحشية.

الهوة السحيقة، قلب سجن الباستيل وأمامها جدران حجرية، وثمانية أبراج هائلة، ومدفع، وبنادق، ونار، ودخان. ونزلت قنطرة متحركة! «يا

جميع الرفاق، هيا، اعملوا، اعملوا، يا جاك واحد، يا جاك اثنين، يا جاك رقم ألف، يا جاك رقم ألفين، يا جاك رقم خمسة وعشرين ألفًا، باسم كل الملائكة أو الشياطين - كما يحلو لكم - اعملوا!» هكذا كان ديفارج صاحب محل بيع النبيذ يصيح وهو لا يزال واقفا وراء مدفعه الذي كان قد أصبح ساخنا منذ وقت طويل.

وصاحت زوجته: «تعالوا عندى أيها النساء! ما هذا؟ نحن نستطيع أن نقتل كالرجال سواء بسواء عندما يتم الاستيلاء على المكان!».

مدفع، بنادق، نار، دخان، ولكن الهوة السحيقة، قلب سجن الباستيل، لا تزال كما هي. ولم يبق إلا قنطرة متحركة واحدة ثم الجدران الحجرية والأبراج الثمانية العظيمة. وحدث تغيير طفيف في تكوين بحر البشر الهائج، أحدثه سقوط كثير من الجرحى. وشاع في المكان وميض الأسلحة المشرعة، والصرخات، وتبادل الرمى بالأسلحة المختلفة، والشتائم، وضروب لا حصر لها من الشجاعة، وأصوات ضجيج بحر البشر الهائج، ولا يزال ديفارج منتصب القامة وراء مدفعه فوق القنطرت المعلقة المدلاة عبر الجدران الحجرية الخارجية للسجن بين الأبراج الثمانية الهائلة المحيطة بها!

وكان من المستحيل مقاومة قوى بحر البشر الذي طواه في خضمه لدرجة أنه لم يكن يستطيع أن يتنفس كما يشاء أو أن يدير رأسه كما يشاء حتى دخل إلى الفناء الخارجى لسجن الباستيل وهناك، استند إلى جدار لكى يتمكن أن يلقى نظرات حوله. وكان جاك رقم ثلاثة تقريبا بجانبه، وكانت مدام ديفارج لا تزال على رأس مجموعة من النساء بحيث يمكن له رؤيته داخل الفناء والسكين في يدها، وكانت الفوضى تسود المكان والشتائم والضجيج

والصخب. وقال أحدهم: «المساجين!» وقال آخر: «السجلات والدفاتر!» وقال آخر: «الزنازن السرية!» وقال آخر: «أدوات التعذيب!».

ومن بين هذه الصيحات استأثرت صيحة (المساجين) بالقبول لدى بحر البشر المندفع الآن نحو المساجين. وعندما تدفقت أكبر موجة من موجات جموع البشر إلى الداخل، وضع ديفارج يده القوية على أحد ضباط السجن، وكان رجلا شعر رأسه رمادى اللون يختلط فيه الشعر الأبيض بالشعر الأسود، وكان يمسك بيده مصباحا مضاء، وقام ديفارج بالفصل بينه وبين جموع الناس، وحصره إلى أحد الجدران وقال له:»105 – البرج الشمالى؟» فقال الضابط: «إنها زنزانة يا سيدى». فقال ديفارج: «أرنيها!».

وخلال سراديب كئيبة لم يضىء فيها ضوء النهار أبدا، وخلال أبواب كالحة اللون، وبعد نزول عديد من درجات السلالم المتآكلة، وبعد صعود درجات أخرى من السلالم الحجرية، كان ديفارج وحارس الزنزانة وجاك ثلاثة يسرعون بكل قواهم.

وتوقف حارس الزنزانة عند باب منخفض، ووضع المفتاح في قفل ضخم، ودفع الباب لينفتح ببطء شديد، وقال لهم وهم يخفضون من رؤوسهم لكى يدخلوا: «الزنزانة رقم 105 – البرج الشمالى!».

وكانت توجد بالزنزانة نافذة بها قضبان حديدية سميكة في أعلى أحد جدرانها وأمامها ستارة من الحجارة بحيث لا يستطيع أحد بداخل الزنزانة أن يرى الشمس بدون أن ينحنى كثيرا قبل أن ينظر إلى أعلى. وكانت توجد مدخنة صغيرة. وكان يوجد كرسى بدون مسند، ومنضدة وسرير من القش. وكانت توجد الجدران الأربعة المسودة وجرس يعلوه الصدأ معلقا على أحد الجدران.

وقال ديفارج: «اجعل المصباح يمر نوره فوق هذه الجدران حتى يمكن لي أن أراها». وأطاعه الرجل. وأخذ ديفارج ينظر إلى الجدار حيثما تحرك النور متفحصا ثم قال: «قف! انظر هنا يا جاك!» وقال جاك ثلاثة بصوت متحشرج: «أ.م». فقال ديفارج: «ألكساندر مانيت. ما هذا الذي بيدك؟ عتلة؟أعطنيها!» وكانت بندقيته لا تزال في يده. وتبادل العتلة مع البندقية مع جاك. واستدار نحو المقعد والمنضدة وحطمهما بضربات قليلة. وصاح بالحارس قائلا: «ارفع النور لأعلى! انظر إلى هذه الأشياء المحطمة بعناية يا جاك. هاك السكين. شق هذا السرير وافتح عما بداخله. ورافع أنت النور لارتفاع أكثر!» وزحف فوق المدفأة ونظر بداخل المدخنة وخبط على جدارها بالعتلة. وبعد قليل نزل منها بعض الحصى والتراب، وأدخل يده بداخلها من خلال ثقب نتج عن ضرباته على أجنابها وأخذ في يده بحرص لفافة من الورق وهو يقول: «ألم تجد شيئا في حطام الخشب أو في القش يا جاك؟» وقال جاك: «لا شيء». وقال ديفارج: «فلنجمع هذه الأشياء في وسطا الزنزانة هكذا! أشعلها أنت!» واشعل الرجل الكومة الصغيرة وارتفع منها اللهيب الساخن. وانحنوا مرة أخرى لكى يخرجوا من الباب المقوس وتركوا تلك الأشياء تحترق وشقوا طريقهم إلى الفناء وبداخل الفيضان الغاضب مرة أخرى.

ووجدوا الحشد الهائل يفور ويموج بحثا عن ديفارج نفسه.

وكان أبناء حى سانت أنطوان يهتفون مطالبين صاحب حانة حيِّهم على وجه الخصوص وهم يقومون بحراسة مدير السجن الذي كان قد دافع عن سجن الباستيل وأطلق الرصاص على الناس وإلا لم بتمكنوا من السير به إلى فندق دى فيل للمحاكمة.

ها هنا سجناء مطلقو السراح، ورؤوس ملطخة بالدماء فوق أسنة الرماح، ومفاتيح القلعة اللعينة ذات الأبراج الثمانية القوية، وبعض الخطابات التي أمكن اكتشافها والعثور عليها، وأشياء تذكارية لسجناء زمان مضى ماتوا وقلوبهم محطمة، هذه الأشياء، وأشياء كثيرة غيرها، وصوت وَقْع أقدام فرقة ثوار سانت أنطوان يتردد صداه في الشوارع في منتصف شهر يوليو سنة ألف وسبعمائة وتسع وثمانية. لقد هَزَمتْ إرادة السماء الآن قدرات خيال لوسى مانيت التي أصبحت منذ زواجها لوسى دارنى، ولعل إرادة السماء تمنع عنها هذه الأقدام لتظل بعيدا عن حياتها! إنها خطوات جبارة متهوِّرة مجنونة وخطيرة، وبمضى السنوات بعد تحطُّم البرميل أمام محل ديفارج لبيع النبيذ ليس من السهل تنظيف هذه الأقدام بعد أن تلطخت بالدم.

وحظى حى سانت أنطوان الشرس بأسبوع واحد من الابتهاج والسرور والنشوة عندما كانت مدام ديفارج تجلس وقد طوت ذراعيها تحت صدرها في ضوء وحرارة شمس الصباح وهى تتأمل محل بيع النبيذ والشارع. وفي كل من المحل والشارع كان يوجد أناس كسالى يتسكعون في الشارع تعلوهم الأقذار ويرتسم على وجوههم البؤس، ولكنهم الآن قد اكتست وجوههم بكل مظاهر الشعور بالقوة. وكانت القبعات الحقيرة القذرة المحرفة فوق جباه منحرفة الفكر لها دلالتها الشاذة المنحرفة ولسان حالها يقول: «أنا أعرف قسوة ظروف حياتى وشظف عيشى، أنا الذي أرتدى هذه القبعة القذرة الرخيصة لدرجة أننى لا أكاد أجد قوت يومى، ولكن، هل تعرف كم سيكون من السهل غدا بالنسبة لي أن أدمر الحياة بداخلك وأنا أرتدى نفس هذه القبعة القذرة الرخيصة وكل ذراع نحيلة طويلة عارية كانت بدون عمل من قبل قد اصبح لديها هذا العمل الجاهز على الدوام الآن. إنها تستطيع الآن أن تضرب. وأصابع النساء التي كانت تألف أعمال التطريز وأشغال

الإبرة قد أصبحت قادرة الآن على التمزيق. كان هناك تغيير قد اعترى أرجاء حى سانت أنطوان. كانت صورة ذلك الحى من أحياء باريس قد تشكلت بهذا الشكل على مدار مئات من السنين وكانت ضربات الملامح النهائية قد حسمت بقوة الشكل النهائى الذي تشكل فيه حى سانت أنطوان. وقال السيد ديفارج لزوجته مدام ديفارج: «لقد جاء الوقت أخيرا يا عزيزتى!» فقال: «إيه، حسنا، على وجه التقريب».

ولقد كان هناك تغيير أيضا في جميع أرجاء القرية حول النافورة التي يتساقط منها الماء حيث كان عامل إصلاح الطرق يذهب إلى عمله كل يوم لكى يزيح الأحجار أو يحطمها على الطريق الرئيس المفضى إلى القرية وهو لا يأكل إلا لقيمات من الخبز تكفى فحسب للإبقاء على الحياة ليظل جسدة النحيل محتفظا بتماسكه وقدرته على الاستمرار في الحياة.

وكان الريف يمتد امتدادا شاسعا وهو لا ينتج أي شيء سوى الخراب والتدمير. وكانت كل ورقة خضراء، وكان كل عود من العشب، وكان كل عود من أعواد القمح يهتز ويرتعش هزيلا مبتئسا مثل الناس المهزولين البائسين. كان كل شيء منكس الرأس كسير القلب مقهورا ومحطما بما في ذلك السكان والأسوار والحيوانات والرجال والنساء والأطفال والأرض التي تحملهم – كان كل شيء في حالة عامة من التمزق.

وعلى مدار حقب متعاقبة من السنوات كان صاحب السمو الماركيز قد اعتصر وامتص كل شيء، وكان نادرا ما يشرف الريف بأيام قليلة يقيم أثناءها في الريف اللهم إلا تلك الأيام التي كان يحلو له فيها أن ينعم بالصيد في جنبات الريف.

وكان التغيير الذي اعترى الريف يظهر أكثر ما يظهر في وجوه الناس التى كانت تبدو غريبة المظهر بليغة التعبير عن مدى التغيير. وعلى سبيل المثال، كان عامل إصلاح الطرق يعمل بمفرده في تمهيد الطريق وهو يفكر في قلة ما لديه ليأكله في وجبة العشاء ويفكر في أنه كان يستطيع أن يأكل الكثير من الطعام لو كان عنده طعام كثير. وعندما رفع عينيه عن العمل لمح رجلا خشن الهيئة يقترب نحوه من بعيد وهو يمشى على قدميه، ونادرا ما كان يرى مثله في تلك البقاع التى يندر فيها ظهور أحد من البشر ولكنها قد غدت الآن غير مقفرة تماما من الناس. ولدى اقترابه استطاع أن يدرك دون دهشة أنه كان رجلا غزير الشعر، بربرى المظهر، طويل القامة يرتدى حذاء من الخشب كئيب المنظر حتى في نظر عامل إصلاح الطرق، وكان نحيل القوام خشن المظهر ملطخا بالوحل.

واقترب منه ذلك الرجل مثل الشبح في ظهيرة يوم من أيام شهر يوليو بينما كان يجلس على كومة من الاحجار تحت ظلة يستظل بها. ونظر نحوه الرجل، ثم نظر نحو القرية في الأرض المنخفضة ونحو الطاحونة ونحو سجن القرية، وعندما ملأ عينيه من هذه الأشياء قال لعامل إصلاح الطرق: «كيف الحال يا جاك؟» فقال العامل: «كل شىء على ما يرام يا جاك». فقال الرجل: «هات كفك إذن!» وتصافحا وجلس الرجل على كومة الأحجار.

وقال الرجل: «لا غداء؟» فقال العامل: «لا شيء إلا العشاء الآن». فقال الرجل: «هذه الموضة». وأخرج من جيبه غليون الدخان الأسود اللون، وأشعله، وشفط منه بحيث جعله يتوهج ثم أمسك به به ووضع فيه شيئا من خلال إصبعيه فازداد توهجه ثم خبا الوهج مخلفا دفعة من الدخان.

وجاء دور العامل ليقول للرجل: «هات كفك إذن!» وتصافحا بعد تلك العملية. وقال عامل إصلاح الطرق: «هل الليلة هى موعدنا؟» فقال الرجل وهو يضع غليونه في فمه: «الليلة موعدنا». فقال العامل: «أين؟» فقال الرجل: «هنا».

وجلس الرجل مع عامل إصلاح الطرق فوق كومة الأحجار وكل منهم ينظر نحو الآخر، بينما الصقيع يواصل السقوط بينهما حتى بدأت السماء تنجلى لتظهر منازل القرية. وقال الرجل وهو ينحدر عن الجبل: «أرنى!» وقال عامل الطرق: «انظر إليه. إنه هناك، على مسافة فرسخين من قمة ذلك الجبل وراء القرية».

وتركه عابر السبيل ومضى لحال سبيله. وعند غروب الشمس رجع عامل إصلاح الطرق إلى بيته وسرعان ما خرج إلى المكان الذي كانت توجد فيه النافورة ليزج بنفسه بين أفراد حشد من الناس كانوا يشربون وكان يهمس إليهم كما اعتاد أن يهمس إلى كل الناس في القرية. وعندما كان أهل القرية قد تناولوا عشاءهم البسيط فإنهم لم يزحفوا إلى فُرش نومهم كما كانوا يفعلون من قبل في العادة، بل خرجوا من أبواب منازلهم وظلوا يتجولون خارج المنازل. وانتشرت عدوى الهمس فيما بينهم بطريقة غريبة وهم يرفعون أنظارهم نحو السماء في اتجاه معين دون غيره من الاتجاهات.

وأوغل الليل في تقدمه وكانت الأشجار المحيطة بالقلعة قد تخلت عن الصفة الفردية لكل منها وبدت جميعا مثل كتلة واحدة تتحرك كلها حركة واحدة في اتجاه الرياح المتزادية كما لو كانت تهدد القلعة في مجمل مبانيها التي كانت تبدو مظلمة وكئيبة المنظر. وكان أربعة رجال كل منهم أشعث أغبر الهيئة يدهسون بأقدامهم الحشائش بحذر بعد أن كانوا قد تسللوا من

بين تلك الأشجار بحذر شديد حتى أصبحوا موجودين في فناء القلعة حيث لمع ضوء أربعة مصابيح وتفرقوا في اتجاهات مختلفة ثم لف القلعة الظلام مرة أخرى.

ولم يستمر الظلام سائدا يلف القلعة مدة طويلة. لقد بدأت القلعة تظهر نفسها لكل الأنظار من خلال أضواء كانت تنبعث هذه المرة من داخل القلعة ذاتها. بدت كما لو كانت تزداد أضواؤها. وبعدئذ، تحرك خط متعرج أمام واجهة القلعة مظهرا بعض المواضع في تكل الواجهة ومبينا أين كان يوجد الدرابزين وأين كانت توجد الأبواب تعلوها الأقواس وأين كانت توجد النوافذ. ثم أخذت الأنوار تزأو وترتفع إلى أعلى ثم إلى أعلى وهي تزداد اتساعا بعد اتساع وارتفاعا بعد ارتفاع. وسرعان ما كانت النيران تنبثق ألسنة لهيبها من النوافذ. كانت القلعة تحترق.

❋❋❋❋

الفصل الثاني عشر

الانسياق إلى بؤرة الأحداث

Drawn To The Loadstone Rock

استمرت حركة المد والجزر في ألسنة اللهب. واستمرت حركة المد والجزر في مياه البحر تتلاعب بها العواصف والأنواء على مدار ثلاث سنوات ومرت ثلاثة أعياد ميلاد للصغيرة لوسى لتنطوى في نسيج الحياة الهادئة أهل المنزل.

وكم من ليلة في إثر ليلة ونهار في أعقاب نهار كل قاطنو ذلك المنزل يستمعون إلى الأصداء تترى إلى مسامعهم في ركنهم الهادئ وقلوبهم واجفة خائفة وهم يسمعون أصداء وقع أقدام قادمة نحوهم. وكان ذلك لأن أصداء وَقْع تلك الأقدام القادمة نحوهم كانت تبدو لهم كما لو كانت أصداء وَقْع أناس تحولوا إلى وحوش مفترسة مفعمة بالنشوة المصاحبة لممارستها الافتراس زمنا طويلا.

وجاء شهر أغسطس من عام ألف وسبعمائة واثنين وتسعين، وكان صاحب السعادة الماركيز الجديد في ذلك الوقت في مكان بعيد وكان المكان المفضل لديه في لندن هو بنك تلسون.

وذات يوم بعد الظهر كان السيد لورى يجلس إلى مكتبه بينما كان تشارلس دارنى يقف مستندا إلى ذلك المكتب وهو يتحدث إلى السيد لورى بصوت خفيض. وقال دارنى: «ولكن، بالرغم من أنك أنت الرجل الوحيد

الذي لا يزال على قيد الحياة، فلا زلت أقترح ــ) وقال السيد لورى: «فهمت ما تقصده. هل تقصد أننى قد أصبحت رجلا عجوزا جدا؟» فقال دارنى: «جو غير مستقر، ورحلة طويلة، ووسائل سفر غير آمنة، ودولة غير منتظمة الأحوال، ومدينة يجوز ألا تكون آمنة بالنسبة لك». فقال لورى بشيء من الثقة والبشاشة: «يا عزيزى تشارلس، أنت في حقيقة الأمر تشير إلى الأسباب التي تحتم أن أذهب أنا (ولا تذهب أنت) وهى ليست الأسباب التي تمنعنى من السفر. الأمان متوافر بدرجة كافية بالنسبة لي أنا. لن يأبه أو يهتم أحد بحيث يتعرض بسوء لرجل عجوز بينما يوجد أناس كثيرون من الأفضل له أن يتعرض لهم بما يشاء من الأذى. أما بالنسبة لكونها مدينة تسودها الفوضى وينعدم فيها النظام، فهى لو لم تكن كذلك لما كانت هناك حاجة إلى إرسال أحد من العاملين في بنكنا هنا إلى فرع البنك الخاص بنا هناك، والعاملون فيه يعرفون المدينة وظروف العمل منذ زمن طويل ويحظون بالثقة في معاملات بنك تلسون. وبخصوص عدم توفر الأمان لوسائل السفر والرحلة الطويلة وجو الشتاء، فلو لم أكن مستعدا لتحمل بعض المشاق والظروف غير الملائمة من أجل بنك تلسون بعد كل تلك السنين، فمن الذى يتحمل ذلك؟».

وقال تشارلس دارنى وهو يشعر أنه غير مرتاح إلى ما قاله لورى: «أنا أود وأرغب أن أذهب أنا بنفسى». وصاح لورى منزعجا: «أحقا! أنت شخص تجدي الاعتراض وتسدى النصيحة! هل تتمنى أن تذهب بنفسك؟ تذهب هناك بنفسك وأنت رجل فرنسى المولد والنشأة؟ أنت رجل عاقل». (ويستحيل أن تفكر على هذا النحو) وقال دارنى: «يا عزيزى السيد لورى، لأننى رجل فرنسى المولد والنشأة تلح على خاطرى فكرة أن أسافر بنفسي (وهو ما لم أكن أنوى أن أفصح عنه بالكلام هنا) وتراودنى هذه الفكرة مرارا وتكرارا. إن الإنسان لا يستطيع أن يتفادى التفكير وقد كان عندى كثير من

التعاطف مع الناس البؤساء، وقد تنازلت عن بعض الممتلكات لهم لدرجة أننى يمكن لهم أن يستمعوا إلى كلامى ويجوز أن تكون عندى القدرة على إقناعهم أن يكبحوا جماحهم إلى حدٍ ما. ولقد تحدثت إلى لوسى في الليلة الماضية فقط.....». فقال لورى: «وتقول إنك كنت تتحدث إلى لوسى؟ نعم، إننى أعجب وأتساءل: ألا تشعر بالخجل من نفسك وأنت تذكر اسم لوسى وأنت تريد وترغب في الذهاب إلى فرنسا في هذا الوقت من النهار!» فقال دارنى وهو يبتسم: «على كل حال، أنا لست ذاهبا إلى فرنسا في هذا الوقت من النهار. والأكثر غرابة من ذلك هو أن تقترح أن تذهب أنت إلى فرنسا». فقال لورى: «أنا معى الحق كل الحق في ذلك. الحقيقة يا عزيزى تشارلس هي أنه ليس لديك فكرة عن الصعوبة التي تكتنف عملنا في البنك في فرع باريس. وأنت لا تعرف الخطر الذي يتهدد دفاترنا وأوراقنا هناك. إن اللّه وحده هو الذي يعلم ماذا عساها أن تكون النتائج التي ستحدث لكثير من الناس لو أن بعض وثائق عملنا تم نهبها وتدميرها. وأي تأخير الآن في إنقاذ هذه الوثائق وتخليصها من الدمار والذي سيترتب عليه نتائج خطيرة، ولا يستطيع أحد القيام بمهمة إنقاذها سواى أنا شخصيا لو كان أحد يستطيع إنقاذها. وعليك أن تتذكر أن الخروج بمثل هذه الأشياء من باريس الآن بصرف النظر عن كنه هذه الأشياء يكا يكون من الأمور المستحيلة التنفيذ. إن كثيرا من الوثائق والأشياء الثمينة كان يعرضها علينا أناس غرباء غرابة لا تستطيع أن تتخيلها، وكانت رأس كل منهم معلقة بشعرة واهية وهو يمر من الحدود الفاصلة بين فرنسا وإنجلترا. في وقت من الأوقات كانت مراسلاتنا إلى فرسا تروح وتغدو كما تروح وتغدو في إنجلترا، ولكن الآن، كل شيء قد توقف». فقال دارنى: «هل ستذهب إلى فرنسا الليلة حق؟»فقال لورى: «أنا سأذهب الليلة حقا لأن الأمور قد أصبحت ملحة على درجة لا تسمح بأي تأخير». فقال دارنى: «هل أنت لن تصطحب معك أي شخص آخر؟»

فقال لورى: «عُرِضَ علىَّ أن أصطحب أنواعا مختلفة من الناس ولكننى أنوى أن أصطحب جيرى. لقد كان جيرى هو الحارس الشخص لى في ليالى يوم الأحد زمانًا طويلًا في الماضى، وأنا قد تعودت على حراسته لى. ولن يعتبر أحد أن جيرى يمثل أي شيء سوى كلب حراسة إنجليزى لا يوجد أي تخطيط في رأسه سوى أن يطير نحو أي شخص يلمس سيده».

واقترب مدير بنك تلسون من السيد لورى ووضع أمامه خطابًا مغلقًا وسأله ما إذا كان لم يكتشف بعد الشخص الذي كان ذلك الخطاب موجهًا إليه. وكان مدير البنك قد وضع الخطاب قريبا جدا من مكان وقوف دارنى لدرجة كانت كافية لكى يقرأ دارنى اسمه على الخطاب وهو واقف في مكانه بسرعة كبيرة. وكان الكلام الموجود على المظروف بعد ترجمته إلى اللغة الإنجليزية هو: «هام وعاجل جدا. إلى السيد الذى كان يحمل لقب الماركيز إفريموند من فرنسا طرف تلسون وشركاه، أصحاب البنك في لندن - إنجلترا».

كان الدكتور مانيت صبيحة يوم زفاف تشارلس دارنى وابنته قد جعل مطلبه العاجل والأكثر أهمية هو أن يظل لقب إفريموند غير معروف لأحد غيرهما تحت أي ظروف مالم يأذن الدكتور مانيت بذلك. ولم يكن أحد غيرهما يعرف أن لقب إفريموند هو لقب تشارلس دارنى، ولن يتطرق أي شك في ذلك عند زوجته ومن الممكن أن يكون السيد لورى لا يدرى عن ذلك أي شيء.

وقال السيد لورى لمدير البنك: «لا، أنا لا أعرف الشخص الذي وُجِّه إليه هذا الخطاب. ولقد عرضته على كل الناس هنا الآن ولم يخبرنى أحد أين يمكن الوصول إلى السيد الذي وُجِّه الخطاب إليه».

وكانت الساعة الموجودة بالبنك قد أشارت إلى حلول موعد انقضاء لعمل في بنك تلسون، وكان هناك أزير من كلام كثير من الناس الذي كانوا يتكلمون وهم يمرون بمكتب السيد لورى الذي كان قد أمسك بالخطاب متفحصا مستفهما عن ذلك المهاجر وكان صاحب السعادة الماركيز إفريموند الذي يقف أمامه ويحمل اسم تشارلس دارنى ينظر إلى الخطاب وهو يعرف أنه ذلك المهاجر غير المعروف، وكان كل منهما لديه شيء محرج يريد أن يقوله باللغة الفرنسية أو باللغة الإنجليزية بشأن ذلك الماركيز الذي كان شأنه يوحى بأنه لن يكون من الممكن العثور عليه.

وقال أحدهم: «إنه ابن أخ فيما أعتقد – ولكنه على كل حال، شر خلف لشر سلف، إنه ابن أخ الماركيز الذي قتل. ويسعدنى أن أقول إننى لا أعرف». وقال آخر: «لابد أنه أحد الجبناء الذين تخلوا عن اللقب والممتلكات. هذا السيد قد غادر باريس وساقاه ترتعشان وهو نصف مختنق متهربا مختبئا في أكداس البضائع منذ سنوات مضت؟» وقال شخص ثالث: «إنه شخص أصابته عدوى المعتقدات الثورية الجديدة وكان قد وضع نفسه موضع المعارضة مع عمه الماركيز السابق وتنازل عن الممتلكات الإقطاعية عندما آلت إليه ملكيتها بالميراث إلى الجماهير المتوحشة». وانصرف كل الناس وبقى دارنى مع لورى وحدهما بالمكتب بعد انصراف كل الموظفين في موعد انتهاء العمل بالبنك. وقال دارنى: «أنا أعرف الشخص». وقال لورى: «هل ستتحمل مسئولية استلام هذا الخطاب إذَنْ؟ هل تعرف أين ستسلمه إلى صاحبه؟» فقال دارنى: «نعم، أنا أعرف ذلك». وقال لورى: «هل ستتفضل بأن توضح لصاحب الخطاب أننا لم نكن نستطيع أن نستدل عليه وأن الخطاب لهذا السبب مكث عندنا وقتا طويلا؟» فقال دارنى: «سأفعل ذلك. هل أنت سترحل إلى باريس من البنك؟» فقال لورى: «من هنا في الساعة الثامنة». فقال دارنى: «سأعود إليك هنا لكى أودعك».

وكان دارنى متوترا كل التوتر وهو يسرع في طريق عودته، وعندما وصل إلى مأمنه فتح الخطاب، وكان نص الخطاب كما يلى:

«من سجن أباى في باريس،
تحريرا في 21 يونيو 1792.

«سيدى الماركيز الحالى:

لقد تم القبض علىَّ مع استخدام كثير من العنف معى ومع كثير من الإساءة إلى كرامتى، وأجبرونى على المشى على قدمى في رحلة طويلة إلى باريس. والجريمة التي يسجنوننى من أجلها يا سيدى الماركيز الحالى وسأمْثُلُ بمقتضاها أمام المحكمة وسأفقد بالتالى حياتى (بدون مساعدتك الكريمة لى) إنما هي، كما يخبروننى بذلك، الخيانة لصاحب الجلالة الشعب ويتمثل ذلك في أننى قد تصرفت ضد مصلحة الشعب وليس ضد أوامرك. ولم يُجْدِنى نفعا قولى لهم إننى قد ألغيت الاقساط التي كانوا قد توقوا عن دفعها، وأننى لم أحصل منهم قيمة أي إيجار، وأننى لم يكن لي أي صلة بأي ممارسات كانت تتم ضدهم. وكل ما يقولونه لي ويواجهوننى به هو أنني قد ساعدت أحد النبلاء الذين هاجروا من فرنسا على الهرب إلى خارج فرنسا، وهم يسألوننى: أين ذلك الهارب؟ آه يا صاحب السمو الماركيز الحالى، أين يوجد الآن ذلك النبيل الهارب؟ إننى أبكى عندما أرقد على فراشى وأنا أسأل: أين هو؟ وأسأل السماء: ألن يأتى لكى يخلصنى؟

«بحق السماء أرجوك يا سيدى الماركيز الحالى أن تساعدنى. إن كل جريمتى وجنايتى تنحصر في أننى كنت مخلصا لك. ومن داخل سجن الرعب هنا أرسل لك هذه الرسالة مع العلم بأن كل ساعة تمر من الوقت تجعل المسافة بينى وبين الهلاك أكثر اقترابا».

ضحيتك:
جابيل».

وطفت إلى حيز الوجود الفعلى مظاهر الشعور بعدم الارتياح التى كانت موجودة في ذهن دارنى بعد قراءته لذلك الخطاب. لقد صدمته صرخات طلب النجدة التي بعث بها ذلك الخادم العجوز الذي كانت كل جريمته هي الإخلاص له ولأسرته في وجهه مباشرة. ولقد كان دارنى يعرف جيدا أن حبه لزوجته لوسى وتهربه من مكانته الاجتماعية إنما حدثت في عجالة، وكان يعرف أنه كان يلزمه أن يمعن النظر في ذلك وأن يراجع نفسه، وكان يعرف أنه قد عمد إلى ذلك وقصد إليه، ولكنه لم يصبر ولم يراجع نفسه كما كان ينبغى له ذلك.

ولكنه لم يكن قد ظلم أو قهر أي إنسان، ولم يكن قد تسبب في أن يسجنَ أي رجل، وهو لم يكن أبدا له أي دخل بالحصول على أي أقساط مستحقة الدفع، وهو كان قد أسقط تلك الأقساط بمحض إرادته الحرة، وكان قد رمى بنفسه في غمار عالم آخر لا مجاملة فيه لأحد لا يستحق المجاملة، وكان قد شق طريقه الخاص به في ذلك العالم الجديد، وهو يكسب عيشه من عرق جبينه في عالمه الجديد الذي هاجر إليه. ولقد كان قد أعطى للسيد جابيل في يده إقرارًا كتابيًا يتضمن تعليمات كتابية أن يعفى الناس من كل ما كان يتعين عليهم دفعه، ولقد أفضى ذلك كله إلى أن يبدأ تشارلس دارنى في أن يعقد العزم على أنه يجب عليه أن يذهب إلى باريس. نعم، إنه مثل ذلك البحار القديم الذي تضطره الرياح والتيارات المائية تحت تأثير حمولة السفينة إلى الاصطدام بالصخور الصلبة وكأنما هي تشده إليها ومن الضرورى أن يذهب إليها. وبينما كان يتمشى جيئة وذهابًا وقد استقر قراره، صَمَّمَ على أن لوسى وأباها لا يحْسُنُ أن يعرفا شيئا عن قراره ذاك حتى يذهب لتنفيذه. يلزم أن تتجنب لوسى آلام الفراق. أبوها الذي كان يحاذر دائما من العودة إلى الأفكار المتصلة بأرضية الماضى الخطيرة لا ينبغى أن يعرف شيئا عن

هذه الخطوة حتى يتم اتخاذها بالفعل ولا ينبغى أن يضعه أحد في مجالات البحث عن التوازن بين القرارات المتعارضة أو المثيرة لأى شك أو ريب.

وظل تشارلس دارنى يمشى جيئة وذهابا وهو مشغول الفكر حتى حان موعد عودته إلى بنك تلسون ليقوم بواجب وداع السيد لورى. وفور أن يصل دارنى إلى باريس فهو سيقدم نفسه هناك إلى صديقه القديم ولكنه لا يلزم أن يخبره بشيء عن نيته هذه الآن.

وكانت عربة تجرها جياد مخصصة لعربات البريد تقف جاهزة للتحرك أمام باب البنك وكان جيرى يرتدى حذاء ذا رقبة طويلة وهو في كامل حالة الاستعداد. وقال تشارلس دارنى اللسيد لورى: «لقد سلمت الخطاب إلى صاحبه. ولم أجد أنك مكلف بأن تحمل أي در كتابى، وربما توافق على أن تحمل معك ردا شفويا، فهل توافق على ذلك؟» فقال لورى: «بشأن الرد الشفوى، فأنا أوافق على أن أحمله معى بشرط ألا تكون فيه أي خطورة». فقال دارنى: «لا، لا خطورة فيه على الإطلاق، على الرغم من أنه مرسل إلى سجين في سجن أباى». فقال لورى: «وما هو اسمه؟» وأمسك لورى في يده بمفكرة جيب. وقال دارنى: «جابيل.» فقال لورى: جابيل. وما هى الرسالة الشفوية إلى جابيل السيىء الحظ الموجود داخل سجن أباى؟» فقال دارنى: «الرسالة بكل بساطة هي: لقد استلم الخطاب وسيحضر». فقال لورى: «هل سيحضر في أي وقت محدد؟» فقال: «سيبدأ الرحلة غدا مساء؟» فقال دارنى: «لا، لا يلزم أن تذكر اسمه». وساعده في أن يلف نفسه في أكثر من معطف وفي أكثر من معطف وفي أكثر من عباءة وخرج معه من البنك الدافئ الجو إلى الهواء الملىء بالضباب وقال السيد لورى: «أبلغ كل حبى للسيدة لوسى ولابنتنا لوسى الصغيرة واعتن بهما كل العناية حتى أعود». وهز تشارلس دارنى رأسه وابتسم ابتسامة كان يرتاب في ظهورها على شفيته عندما كانت العربة تبتعد.

كانت تلك الليلة هي ليلة الرابع عشر من شعر أغسطس، وقد جلس تشارلس دارنى مستيقظا إلى وقت متأخر من الليل وكتب خطابين بعبارة مفعمة بالحرارة كان أحدهما موجها إلى زوجته لوسى موضحا فيه وجه الإلزام الذي كان يجبره على الذهاب إلى باريس وموضحا للأسباب التي كانت لديه موحية بالشعور بأنه لا يمكن أن تحيق به أي أخطار هناك، وكان الخطاب الآخر موجها إلى الدكتور مانيت مُودعًا فيه لوسى وابنتها في رعايته مع ذكر الاعتبارات المتعلقة بموضوع سفره إلى باريس مشفوعة بأقوى تأكيد على سلامته. وأخبر كُلًّا منهما أن كان سيرسل إليهما خطابات لتأكيد سلامته مباشرة عند وصوله إلى باريس.

ولقد كان يوما صعبا ذلك اليوم الذي كان يعيش أثناءه بينهم وهو محتفظ لأول مرة بشأن ما يربط حياتهم سويا في ذهنه. ولقد كان أمرا صعبا إضمار ذلك الخداع البرئ الذي لم يكن الدكتور مانيت أو ابنته يشعر أي منهما بالارتياب في أمره. ولكن نظرة منه نحو زوجته وهي سعيدة كل السعادة ومشغولة بشئون منزلها جعله يحرص ألا يخبرها بأي شيء عما كان يضمره. وانقضى النهار بسرعة. وفي بداية المساء قَبَّلَها، وقَبَّلَ ابنتهما الغالية، وهو يتظاهر بأنه سيعود فيما بعد (وكان شيء في خياله يشده بشدة ويأخذه بعيدا عنهم، وكان قد أخفى حقيبة ملابس جاهزة) وهكذا اندفع بين ثنايا الضباب الكثيف في الشوارع بقلب يزداد ثقله بين جنبيه.

وكانت القوة الخفية تجذبه نحوها بسرعة الآن، وكانت كل التموجات وكل الرياح تضعه بقوة في اتجاهها. وترك الخطابين مع شخص يثق في أنه كان سيقوم بتسليمها قبل نصف ساعة من منتصف الليل، وركب حصانا في الحال لكى يصل به إلى ميناء دوفر، وبدأ رحلته.

الفصل الثالث عشر

بطريقة سِرِّيَة
In Secret

ومضى المسافر ببطء في طريقه نحو باريس نزوحًا من إنجلترا في يوم من أيام فصل الخريف سنة ألف وسبعمائة واثنين وتسعين، وكان يجد عند بوابة كل مدينة وكل قرية وكل نقطة لجمع الضرائب فرقة من المواطنين الثوريين يحملون البنادق المصنوعة من أرض الوطن في حالة قصوى من الاستعداد التام لاستخدامها، وكانوا يستوقفون كل القادمين وكل المغادرين ويمطرونهم بالأسئلة، ويفتشون أوراقهم، ويدققون فيها، ويبحثون ما إذا كانت أسماء المسافرين مدرجة في قوائم خاصة بحوزتهم، وكانوا يردون بعض المسافرين إلى حيث كانوا قد أتوا، أو يتركونهم ليمروا ويستمروا في سفرهم، أو يستوقفونهم مُلْقين القبض عليهم كما توحى لهم تصوراتهم عن كل ما من شأنه أن يكون هو التصرف الأفضل بالنسبة لجمهوريتهم الناشئة حديثا وفْقًا لشعارها الذي لايتجزأ عن الحرية والمساواة والإخاء أو الموت.

وسرعان ما أدرك تشارلس دارنى وهو يتحرك على تلك الطرق الممتدة عبر قوى الريف أنه لا أمل له في العودة إلى إنجلترا حتى يتسنى له الحصول على إعلان بأنه مواطن صالح في باريس. ومهما يجوز أن يحدث له الآن فمن الضرورى له أن يستمر في رحلته إلى الأمام حتى نهايتها. لم ينغلق في طريق تقدمه أبواب قرية من القرى التي كان يمر بها، ولم تمنع تقدمه أي نقطة

من نقاط التفتيش التي كان يمر منها لتكون وراء ظهره، ولكنه كان يدرك جيدا أن كل واحدة منها كانت تعتبر بابًا حديديًا آخر من الأبواب الحديدية التي كانت تحول بينه وبين الرجوع إلى إنجلترا.

ولم تستوقفه المراقبة النشيطة عشرين مرة في تلك المرحلة من مراحل سفره فحسب، بل إنها قد أخرت تقدمه عشرين مرة في اليوم الواحد بالركوب والجرى وراءه وإعادته للخلف أو الركوب أمامه وإيقافه وملازمة تحركه مع التحفظ عليه تحت السيطرة التامة. ولقد كان قد طال به السفر بمفرده في أرض فرنسا عندما ذهب إلى فراشه وقد أنهكه التعب لكى ينام في مدينة صغيرة على الطريق الرئيس في مكان كان لا يزال بعيدا عن باريس. ولم يكن شيء يمكن أن يجعله يتجشم عناء هذه الرحلة إلا خطاب جابيل من سجن أباى. وكانت المحنة التي تعرض لها في نقطة حراسة هذه المدينة محنة شديدة لدرجة أنه شعر أن الرحلة قد تمخضت عن محنة. ولقد أصبح لذلك مندهشا كل الدهشة عندما وجد من يوقظه في منتصف الليل.

أيقظه من النوم في منتصف الليل موظف محلى متواضع المظهر وكان معه ثلاثة مواطنين يرتدى كل منهم قبعة حمراء اللون خشنة المظهر، وكان كل منهم يضع غليون دخان في فمه، وجلس الموظف على فراش تشارلس دارنى. وقال الموظف: «أنت مهاجر، وأنا سأرسل بك إلى باريس تحت الحراسة». قفال دارنى: «أيها المواطن، أنا لا أرغب في أي شيء سوى الوصول إلى باريس وأنا لا أحتاج إلى الحراسة». وزأر واحد ممن يرتدون القبعات الحمراء وهو يضرب الفراش بمؤخرة بندقيته: «اسكت. الزم الهدوء أيها الأرستقراطى!» وقال الموظف: «الحقيقة هي ما يقوله هذا المواطن الصالح. أنت أرسقراطى. ويلزم أن تكون تحت الحراسة. ويلزم أن تدفع مقابل الحراسة». وقال تشارلس دارنى: «لا خيار لى في ذلك». فقال

الموظف: «أنت ليس لك أن تختار. انهض والبس ملابسك أيها المهاجر». وأطاع دارنى وأعاده إلى المخفر حيث كان مواطنون آخرون يرتدى كل منهم قبعة حمراء وكانوا يدخنون ويشربون وينامون بالقرب من نار موقدة. وهنا دفع دارنى مبلغًا كبيرا كأجر للحراسة التي فرضت عليه، ومن تلك النقطة بدأ في الرحيل مع الأفراد المعينين لحراسته فوق الطريق المبتل في الثالثة صباحا.

وكانت الحراسة مكونة من مواطنين اثنين يمتطى كل منهما حصانا، ويرتدى فوق رأسه قبعة حمراء تتدلى منها ثلاثة أشرطة ذات ألوان مختلفة، وهما مسلحان بالبنادق المحلية الصنع وبسيفين معقوفين، وركبا حوله بحيث كان واحد منهما على جانب من الجانبين. وسافر بهذا التشكيل الذي لم يتغير طوال الفراسخ العديدة المتبقية وبين العاصمة. وواصل السفر أثناء الليل واستراحوا بعد ساعة أو ساعتين من طلوع النهار حتى غروب الشمس. وطلع عليهم ضوء النهار أمام جدران المنازل في باريس. وكان مدخل المدينة مغلقا وعليه حراسة مشددة عندما وصل ركبهم إليه.

وسألهم رجل قوى الشكيمة من المسئولين عندما ناداه أد الحراس: «أين أوراق هذا السجين؟» وصدمت كلمة (السجين) بطبيعة الحال مشاعر تشارلس دارنى وطلب من الرجل الذي قالها أن يلاحظ أنه مسافر حر ومواطن فرنسى برفقة حارسين كانت حالة الاضطراب في فرنسا قد فرضتهما عليه وقد قام بدفع نفقات وتكاليف حراستهما له.

وقال نفس الشخص دون أن يعبأ بكل ما قاله دارنى: «أين أوراق هذا السجين؟» وكان المواطن السكران يضع أوراق السجين تحت قبعته

فأخرجها وقدَّمها. وأظهر الشخص الواقف داخل البوابة شيئا من الدهشة عندما اطلع على خطاب جابيل، ونظر نحو دارنى بمزيد من الاهتمام.

وترك الرجل فردَىْ الحراسة دون كلمة واحدة ودخل إلى حجرة الحراسة بينما جلس كل من رَجُلَىْ الحراسة فوق حصانه خارج بوابة مدينة باريس. وبعد أن كان دارنى قد بقى جالسا فوق سرج حصانه حوالى نصف ساعة وجد دارنى نفسه في مواجهة الرجل الذي يقف داخل بوابة باريس مرة أخرى، وطلب الرجل من دارنى أن ينزل عن ظهر حصانه، واقتاده إلى داخل حجرة المخفر، وكانت تفوح من الرجل رائحة الخمر والدخان الرخيص وكان بعض الجنود وبعض المواطنين بين نائم وراقد وبين مستيقظ، وبين مخمور وغير مخمور. وكانت بعض الدفاتر مفتوحة فوق منضدة، وكان أحد الضباط يهيمن على هذه الدفاتر. وقال الضابط للشخص الذي كان يتولى قيادة دارنى. «أيها المواطن ديفارج، هل هذا هو المهاجر إفريموند؟» فقال ديفارج: «هذا الرجل هو المهاجر افريموند» . فقال الضابط: «ما عمرك يا إفريموند؟» فقال دارنى: «سبعة وثلاثون». فقال الضابط: «لقد تقرر التحفظ عليك يا إفريموند في سجن لافورس».

وصاح دارنى قائلا: «يلسماء! بأي قانون وبأية جناية؟» ورفع الضابط عينيه عن قصاصة من الورق لحظة ثم قال: «لدينا قوانين جديدة يا غفريموند وجنايات جديدة بعد الوقت الذي كنت أنت موجودا فيه هنا». وابتسم الضابط ابتسامة مريرة قاسية واستمر في الكتابة. وقال دارنى: «أنا أتوسل إليك أن تراعى أننى قد حضرت هنا بمحض إرادتى الحرة استجابة لهذه الورقة المكتوبة لكى أساعد أحد المواطنين كما تشهد بذلك الورقة الموجودة أمامك. وأنا لا أطلب أكثر من أن أتمكن من تقديم هذه المساعدة دون أي تأخير. أليس هذا من حقى؟» وكانت الإجابة المريرة هي قول

الضابط: «ليس للذين هاجروا من فرنسا أي حقوق يا إفريموند». واستمر الضابط: «ليس للذين هاجروا من فرنسا أي حقوق يا إفريموند». واستمر الضابط في الكتابة حتى أنهى ما كان يريد أن يكتبه ودفع بالورقة التي فرغ توا من كتابتها إلى ديفارج وعليها كلمتان هما: «بطريقة سرية».

ومشى ديفارج نحو السجين الذى تعين عليه أن يرافقه. وأسلم السجين له قياده، ورافقهما حرس مكون من اثنين من المواطنين وكانا مسلحين.

وقال ديفارج بصوت خفيض وهما يهبطان السلم المفضى إلى باريس: «أهو أنت الشخص الذي تزوج من ابنة الدكتور مانيت الذي كان مسجونا في الباستيل؟» وقال دارنى وهو ينظر إلى ديفارج مندهشا: «نعم». فقال ديفارج: «أنا اسمى هو ديفارج، وأنا صاحب محل لبيع النبيذ في حى سانت أنطوان. ومن الجائز أن تكون قد سمعت عنى». فقال دارنى: «هل أنت الشخص الذي كانت زوجتى قد ذهبت إلى بيته لكى تستلم أباها؟ نعم أنت!» فقال ديفارج: «بحق تلك الأنثى المسنونة المولودة حديثا واسمها هو مقصلة الجيلوتين، لماذا عدت إلى فرنسا؟» فقال دارنى: «لقد سمِعْتَنِى أذكر سَبَبَ عودتى إلى فرنسا منذ دقيقة واحدة مضت. ألا تصدق أن هذه هي الحقيقة؟» فقال ديفارج: «حقيقة هى أسوا ما تكون الحقيقة بالنسبة لك أنت شخصيا». وكان ديفارج مقطب الجبين وهو ينظر أمامه فقال دارنى: «هل تجينى عن سؤال واحد؟»

فقال ديفارج: «ربما. حسب طبيعة السؤال. تستطيع أن تقول ما هو السؤال». فقال دارنى: «هل ستتاح لى فرصة الاتصال بالعالم الخارجى في هذا السجن الذي سأذهب إليه ظلما وعدوانا بهذه الطريقة؟» فقال ديفارج: «أنت سترى». فقال دارنى: «لا ينبغى أن أدفن هناك قبل أن أحاكم وبدون أي

إمكانية لنظر قضيتى؟» فقال ديفارج: «أنت سترى بنفسك بالتأكيد. ولكن، ماذا في هذا؟ إن أناسا أخرين قبلك كانوا قد تم دفنهم بطريقة مماثلة في سجون أكثر سوءا في وقت سابق للوقت الحاضر». فقال دارنى: «ولكن لم يحدث ذلك بسببى أو بسلطتى أنا أيها المواطن ديفارج».

وأطال ديفارج النظر إليه وهو يبحث عن رد يرد به على ملاحظة دارنى الأخيرة، ولم يجد ردا فلزم الصمت واستمر في المشى. ووصلوا في صمت تام إلى سجن لافورس.

وفتح رجل منتفخ الوجه الخوخة الموجودة في باب السجن وقَدَّم إليه ديفارج «المهاجر إفريموند مع توصية التعامل معه بطريقة سرية». وقال الرجل ذو الوجه المنتفخ: «بحق الشيطان! كم عدد من سيصل إلينا منهم أكثر من ذلك؟» واستلم ديفارج إيصال تسليم المهاجر إفريموند إلى سجن لافورس في صمت دون أن يعبأ بملاحظة الرجل ذى الوجه المتفخ وانسحب مع المواطنين اللذين كانا يحرسانه وصوت الرجل ذي الوجه المتنفخ يترامى إليه وهو يقول: «أقول مرة أخرى، بحق الشيطان، كم سيصلنا منهم أكثر مما عندنا. تعال معى أيها المهاجر».

وفي ضوء الغسق داخل السجن الكئيب اصطحب بواب السجن عهدته الجديد في ممرات مع نزول بعض السلالم وصعود الأخرى والمرور من عديد من الأبواب التي كانت تفتح لهما ويتم إغلاقها وراءهما حتى وصلا إلى باب به قضبان، وانفتحت خوخة ذلك الباب لتقضى درجات سلم حجرية سلم حجرية تصعد إلى أعلى. وعندما صعدا أربعين درجة (قام السجين بإحصائها فعلا) فتح مرافقه باب منخفضا أسود اللون وَصَلا منه إلى زنزانة للحبس الانفرادى كانت مفزعة البرودة والرطوبة ولكنها كانت

مضاءة. وقال موظف السجن: «زنزانتك». فقال دارنى: «ولماذا أحبس حبسا انفراديا؟».

فقال الرجل: «وكيف يتسنى لي معرفة السبب في ذلك؟» فقال دارنى: «هل أستطيع أن أشترى قلما وحبرا وبعض الورق؟» فقال الرجل: «لا يتم ذلك بأوامرى. سيصلك زائرون بالتأكيد وتستطيع أن تسأل عن ذلك من خلالهم، في الوقت الحاضر يجوز لك أن تشترى طعاما فقط ولا شيء سوى طعامك يمكن لك أن تشتريه الآن».

وكان يوجد بداخل الزنزانة كرسى ومنضدة ومرتبة من القش. قام السجان بالتفتيش على هذه الأشياء وتأكد من وجود الجدران الأربعة قبل أن يخرج.

ولقد كان بنك تلسون يشغل جزءا من مبنى كبير في حي سانت جرمان في باريس، وكان الدخول إلى البنك يتم مرور بفناء يفصله عن الشارع جدار عال به بوابة قوية.

وكان السيد جارفيز لورى يجلس إلى مدفأة اشتعل فيها الخشب منذ وقت ضئيل (وكان ذلك العام الذي قل فيه التعامل مع البنك باكر البرد) وكان يخيم على وجهه النبيل الجرىء الملامح ظلال لم تستطع أنوار المصباح المضاء أن تبددها لأنها كانت ظلال رعب دفين غامض.

وكان لورى يشغل حجرات ملحقة بالبنك، وكان مخلص كل الإخلاص في اضطلاعه بمهام العمل بالبنك الذي عاش طيلة عمرة وهو في خدمته فأصبح بمثابة واحد من جذور البنك الحية القوية. وفي الجانب الآخر من الفناء الموجود أمام البنك، وتحت صف من الأعمدة كان يمتد مكان معد لوقوف العربات حيث كانت بعض العربات تقف فيه بالفعل. وكان مصباحان كبيران يتوهج نورهما وهما معلقان فوق عامود من تلك الأعمدة،

وفي ضوء هذين المصباحين كان يوجد حجر طاحونة ضخم كان يبدو أنه قد وضع على عجل بعد انتزاعه من محل حداد كان يشحذ عليه السكاكين وغيرها ليكون حدها أكثر رهافة أو أي محل آخر. وارتجف جسم لورى مقشعرا وهو ينظر إلى هذه الأشياء ورجع إلى مقعده بجوار المدفأة. كان قد فتح النافذة وأزاح عنها الستارة ايضا ثم أغلقها بسرعة وقد اعترته رعشة. ومن خلال الشوارع وراء الجدار والبوابة القوية، كان يأتى إلى مسامعه الأزير المعتاد للمدينة مع رنين لا يمكن وصفه كان يصل أيضا إلى مسامعه من آن إلى آن آخر منذرا بشؤم لم تشهد له الأرض مثيلا. وقال السيد لورى لنفسه: «حمد للّه إذ أنه لا أحد من أقربائى أو الأعزاء على نفسى موجود في هذه المدينة المخيفة في هذه الليلة وليرحم اللّه كل أولئك الناس الذي يتعرضون للخطر!»

وبعد ذلك بقليل دق جرس البوابة القوية الموجودة في سور الفناء وقال في نفسه: «لقد رجعوا». ولكن لم يكن هنالك الصخب الذي كان يتوقعه وسمع صوت البوابة وهي تصفق مرة أخرى ثم ساد الهدوء.

وكان التوتر العصبى والفزع مبعثهما في نفسه هو عدم استقرار الأمور بالنسبة لتعاملات البنك التي يمكن أن يعتريها تغييرات كبيرة. كانت الحراسة على البنك جيدة، وكان يمر على الناس الموثوق بهم الذين كانوا يحرسونه عندما انفتح الباب فجاة واندفع إلى الداخل شخصان وقع لورى على ظهره عندما شاهدهما.

لوسى وأبوها! لوسى وذراعاها ممدودتان نحوه، وفي عينيها نظرتها القديمة المتوسلة في تركيز شديد على التوسل. وصاح لورى يقول: «ما هذا؟ ماذا جرى يا لوسى؟ ماذا جرى يا مانيت؟ ماذا جاء بكما هنا؟»

وقال لوسى وقد تركزت نظراتها نحوه: «آه أيها الصديق العزيز! زوجى!» وقال لورى: «زوجك يا لوسى؟ ما خطبه؟» فقالت: «إنه هنا». فقال لورى: «هنا، في باريس؟» فقالت: «لقد جاء إلى هنا منذ بضعة أيام، ثلاثة أيام أو أربعة أيام – لست أعرف كم عدد الأيام – أنا لا أستطيع أن أستجمع شتات أفكارى. لوثة من لوثات الكرم قد جاءت به إلى هنا دون أن نعلم. واوقفوه عند الحدود، وزجوا به إلى السجن».

وأفلت من الرجل العجوز صيحة رغم إرادته. وفي نفس اللحظة تقريبا دق جرس البوابة الرئيسة مرة أخرى، وتدفقت إلى الداخل أصوات وقع أقدام كثيرة تدخل إلى الفناء الموجود أمام البنك. وقال الدكتور مانيت: حفاظا على حياتك لا تلمس الستارة فوق النافذة!»

واستدار الطبيب للخلف ويده لا تزال على النافذة الموصدة وقال وفوق شفتيه ابتسامة فيها هدوء وجرأة: «يا صديقى العزيز، لقد عشت حياة مدهشة في هذه المدينة. لقد كنت سجينا في سجن الباستيل. ولا يوجد أي مواطن في باريس يعرف أننى كنت مسجونا في الباستيل ثم يلمسنى بأي أذي، وهو لا يستطيع أن يفعل حيالى أي شيء سوى أن يطوقنى بذراعيه ليغمرنى بقبلاته، أو يحملنى على كتفيه بكل فخر واعتزاز. إن آلامى القديمة قد منحتنى الآن سلطة ونفوذا وقوة مما أتاح لنا أن نجيء إلى هنا عبر الحدود وهو أيضا الاعتبار الذي أتاح لنا أن نعرف معلومات عن تشارلس منذ دخولنا من الحدود حتى وصلنا إلى هنا. ولقد كنت أعرف أن هذا هو ما سيحدث. وكنت اعرف أننى سأتمكن من أن أساعد تشارلس لينجو من كل خطر يتهدده، ولقد أخبرت لوسى بكل ذلك – ما هذه الضجة؟» ووضع الدكتور مانيت يده مرة أخرى فوق النافذة.

وصاح لورى مرة أخرى: «لا تنظر من النافذة! لا، يا لوسى! ولا أنت يا عزيزتى!» ووضع ذراعه حولها وأمسك بها وهو يقول لها: «لا تخافى إلى هذا الحد يا حبيبتى. أقسم لك أننى لا أعلم أن أي ضرر قد أصاب تشارلس، وأنا حتى لا أعرف أنه موجود في هذا البلد الرهيب. في أين سجن حبسوه؟» فقالت لوسى: «لافورس؟» فقال لورى: «لافورس! يا لوسى، يا ابنتى، لو أنك تتصفين حقا بالشجاعة والقدرة على أداء خدمة لى – ولا يخالجنى شك في ذلك– فأنت ستفعلين بالضبط ما سأقوله لك لأن الكثير يعتمد على ذلك. لا شيء يمكن أن تفعليه في هذه الليلة. وأنت لا تستطعين مجرد النظر إلى الخارج. ويلزم أن تدعينى أضعك في حجرتك هنا. ويجب أن تتركينى مع والدك بمفردنا لمدة دقيقتين، بمفردنا لمدة دقيقتين، وكما أنه يوجد في العالم موت وحياة لا يجب أن تتأخرى». وقالت لوسى: «سأكون مستسلمة لكل ما تقوله لى. وأنا أقرأ في وجهك أنك تعرف أنه لا يمكننى أن أفعل شيئا غير ذلك. وانا أعرف أنك على صواب في ذلك».

وقبلها الرجل العجوز وأسرع بها وأدخلها إلى حجرته وأدار المفتاح في الباب وبعدئذ أسرع بالعودة إلى الدكتور مانيت وفتح النافذة وأزاح جزءا صغيرًا من التسارة ووضع يده على ذراع الدكتور مانيت ونظرا سويا إلى الفناء وشاهدوا خليطا محتشدا من الرجال والنساء كان أصحاب المنزل قد أدخلوهم من البوابة واندفعوا بقضهم وقضيضهم إلى الحجر الضخم الموجود بالفناء أمام البنك، وكان يبدو كما لو كان ذلك الحجر قد وضع في ذلك المكان خصيصا من أجلهم ومن أجل الغرض الذي يريدونه في المكان المناسب لهم. ولكن، يا لهم من أناس مرعبين! ويا له من غرض رهيب!

كان للحجر الضخم مقودان، وكان يديره رجلان بكل ما لديهم من جنون القوة وكان وجه كلًا منهما يبدو أكثر فظاعة وقسوة من وجه أشرس الناس المتوحشين في أكثر حالات الوحشية والبربرية. وبينما كان هذا الوحشان يديران الحجر الضخم كانت جدائل شعر كل منهما تطير لتصبح مدلاة فوق عينيه حينا ثم تطير لتصبح وراء كتفيه حينا آخر، وكانت بعض النساء يضعن أمام فم كل منهما النبيذ لكى يشرب كل منهما ما يشاء منه ولك أن تتخيل منظر قطرات من الدم تتساقط، ولك أن تتخيل منظر قطرات من النبيذ تتساقط، ولك أن تتخيل منظر الشرر المتطاير من الحجر الدائر. كان كل منظرهم الشرير يبدو خليطا من الدم والنار. ولم تكن العين يمكن لها أن تشاهد مخلوقا واحد بين أفراد ذلك الحشد غير ملطخ بلطخة من الدم أو أكثر من لطخة من الدم. وكانوا يتزاحمون متدافعين بمناكبهم بسبب التسابق أيهم يصل إلى الحجر الدائر أولا قبل غيره ولطخات الدم تكسو أطرافهم وأجسامهم، وكان الرجال يرتدى كل منهم كل أنواع الخرق الملطخة بالدم بما في ذلك ملابس النساء بما عليها من أشرطة وزخارف والبقع فوق هذا الخليط كله مندمجة في صباغته وكأنها من صميم هذه الصباغة. وكانوا قد جلبوا كل أنواع البلطات والسكاكين والحراب والسيوف لكى يشحذوها ويجعلوها هاجزة للذبح وكانت كلها ملوثة بالدم الأحمر. وعندما كان حاملوا هذه الأسلحة المخبولون يجذبون أسلحتهم من بين الشرر المتطاير من الحجر الضخم السريع الدران ويندفعون وهم يحملونها في غمار الشارع كان نفس اللون الأحمر هو اللون الأكثر شيوعا في عيونهم.

كل تفاصيل هذا المنظر شوهدت في لحظة واحدة. وتراجعا بسرعة عن النافذة، ونظر الدكتور مانيت في وجه صديقه لورى الرمادى اللون طالبا

تفسيرا لذلك المنظر البشع. وهمس لورى يقول: «إنهم يقتلون السجناء. لو أنك متأكد من صحة ما قتله لي، لو كانت لك في حقيقة القوة التي تعتقد أنها متاحة لك – كما أعتقد أنا أنها متاحة لك– أعلن عن حقيقة شخصيتك لهؤلاء الشياطين، واذهب معهم إلى سجن لافورس. ربما يكون الوقت متأخرا وهذا ما لا علم لي به، ولكن لا تتأخر وقيقة واحدة».

وصافحه الدكتور مانيت وضغط على يده، وأسرع إلى الخروج حاسر الرأس، وكان قد وصل إلى الفناء عندما أزاح لورى الستارة. وكان الدكتور مانيت بشعره الطويل المتموج الأبيض، ووجهه المتميز القسمات، وثقته الجامحة بنفسه البادية في مسلكه قد استطاع أن ينحى مختلف أنواع الأسلحة من طريقه لكى يجد نفسه في وسط ذلك الحشد الصاخب حول حجر شحذ الأسلحة الدائرة بكل قوة وسرعة. وران الصمت على الحشد الكبير لحظة واحدة ثم علا الهمس وطغت الهمهمة ثم لم يلبث لورى أن شاهده يحوطه كل المتحشدين، وهو في وسط صف مكون من عشرين من أطول الرجال قامة وقد التصق الكتف بالكتف وأمسكت يد أحدهم بكتف الآخر وقد أسرعوا يهتفون: «يحيا سجين الباستيل. النجدة لصهر سجين الباستيل في سجن لا فورس! أفسحوا مكان لسجين الباستيل في المقدمة».

وأغلق لورى النافذة وقلبه يخفق بين جنبيه واسرع إلى لوسى وأخبرها أن أباها يساعده كل الناس في باريس قد ذهبوا لكى يبحثوا عن زوجها، ووجدها ومعها ابنتها والآنسة بروس، ولكنه لم يخطر له أنه سيندهش أبدا كما اندهش عندما جلس ينظر إليهم وهم في هدوء تام كما شاهدهم في تلك الليلة.

الفصل الرابع عشر

الظل

The Shadow

كان أول اعتبار من الاعتبارات المهمة التي خطرت بذهن السيد لورى المتمرس بالعمل بعد انقضاء ساعات العمل هو أنه لا يحق له أن يُحَمِّلَ بنك تلسون تبعات إيواء زوجة شخص مهاجر مسجون بأحد السجون تحت سقف البنك. إنه على أتم استعداد أن يضع تحت تصرف لوسى وابنتها ممتلكاته الشخصية وأن يخاطر من أجلهما بمطالب أمنه الشخص وبحياته ذاتها دون لحظة ندم، ولكن الأمانة الكبرى المتعلقة بشئون البنك المودعة بين يديه لم تكن ملكية خاصة.

وعندما جاء وقت الظهيرة ولم يعد إلى البنك الدكتور مانيت وكان التأخير في اتخاذ قرار والتصرف بمقتضاه يشكل خطورة على البنك في كل دقيقة تمر، فلقد تشاور لورى مع لوسى التي قالت إن إباها كان قد تحدث إليها عن رغبته في استئجار مسكن على مقربة من مقر البنك في نفس الحى. وإذ لم يكن ثمة ما يمنع من ذلك، وحيث إن تشارلس دارنى في حالة إطلاق سراحه لم يكن ثمة أمل في أن يغادر باريس بسرعة، فلقد خرج لورى من البنك بحثا عن مثل ذلك المسكن المطلوب وعثر على مسكن مناسب في طابق مرتفع في منزل بأحد الشوارع الجانبية القريبة من مقر بالبنك.

وعلى الفور، نقل لوسى وابنتها والآنسة بروس إلى ذلك المسكن، وهيأ لهن كل أسباب الراحة ومطالب الحياة في ذلك المسكن فورا قدر استطاعته وبأكثر مما كان متاحا له بمسكنه في البنك. وترك خادمه جيرى معهن ليقبع أمام باب مسكنهن ليواجه أي طرقات يمكن أن تصل إلى باب ذلك المأوى وعاد لورى بعد ذلك إلى مأواه في البنك. وكان ذهنه يئن تحدث كثير من المشاغل وانقضى النهار ثقيل الخطى بالنسبة له. وظل مشغول الذهن حتى أغلق البنك أبوابه. ووجد لورى نفسه مرة أخرى بمفرده في حجرته كما كان في الليلة الماضية وهو يفكر فيما يتعين عليه أن يقوم به من أعمال فيما بعد، عندما سمع وقع أقدام على السلم. وبعد أن نظر إليه الرجل نظرة فاحصة خاطب الرجل لورى مناديًا له باسمه فقال له لورى: «أنا في خدمتك. هل تعرفنى؟»

وكان الرجل قوى البنية فوق رأسه شعر غامق اللون مجعد ويبلغ من العمر حوالى خمسة وأربعين أو خمسين سنة، وكرر الرجل نفس الكلمات: «هل تعرفنى؟» فقال لورى: «رأيتك في مكان ما». فقال الرجل: «ربما بمحل بيع النبيذ الذي أمتلكه؟» فقال لورى في شغف وحب استطلاع: «هل أنت قادم من عند الدكتور مانيت؟» فقال الرجل: «نعم، أنا قادم من عند الدكتور مانيت». فقال لورى: «وماذا يقول الدكتور مانيت؟ ماذا يبعث به إلىَّ؟»

ووضع ديفارج في يد لورى المتلهفة قصاصة من الورق بدون مظروف. وكان مكتوبا على الورقة كلمات بخط يد الدكتور مانيت وتقول هذه الكلمات: «تشارلس في أمان. ولكننى لا أستطيع أن أترك هذا المكان باطمئنان الآن. ولقد استطعت الحصول على ميزة أن حامل هذه الرسالة

إليك يحمل أيضا رسالة موجزة من تشارلس إلى زوجته. دع حامل هذه الرسالة يقابل لوسى».

وقال لورى بابتهاج وقد استراح بالُه بعد قراءة تلك الرسالة: «هل تتفضل بأن تصحبنى إلى حيث تقيم زوجة تشارلس؟» فقال ديفارج: «نعم». ولم يأبه لورى بأن يلاحظ في ذلك الوقت كيف كان يتكلم ديفارج بطريقة متحفظة ومقتضبة ووضع قبعته على رأسه ونزلا إلى الفناء الموجود أمام البنك وفي ذلك الفناء وجدا امراتين تنتظران، وكانت إحداهما تقوم بأشغال الإبرة.

تنتظران، وكانت إحداها تقوم بأشغال الإبرة.

وقال لورى الذي كان قد شاهدها من قبل بنفس هيئتها وبنفس مظهرها منذ سبعة عشر عاما: «هذه بالتأكيد هى مدام ديفارج!» فقال زوجها: «إنها هى مدام ديفاريج».

وعندما لاحظ لورى أن مدام ديفارج تسير نفس مسارهما سأل زوجها قائلا: «هل ستذهب مدام ديفارج معنا؟» فقال ديفارج: «نعم، لكى تكون قادرة أن ترى الوجوه وتتعرف عليها وتعرف الأشخاص. وهذا من أجل توفير السلامة والأمن».

وإذ بدأ لورى يصدم من جراء كلام ديفارج عن توفير السلامة والأمن فلقد نظر إلى ديفارج في شيء من التوجس والارتياب ومضى في طريقه وتبعتهما كلتا المرأتين. وكانت المرأة الثانية اسمها ذا فينجانس أي الانتقام. ومشوا في الشوارع المتعرجة بكل سرعة ونزلوا سلالم المنازل والمحلات الجديدة، ووصلوا إلى المنزل الذي تقيم فيه لوسى، وسمح لهم جيرى بالدخول ووجدوا لوسى وهي تبكى بمفردها. وكانت تتفاذفها أمواج من

الأمل واليأس من الأخبار التي أمدها بها لورى عن زوجها وتشبثت باليد التي امتدت إليها برسالة زوجها وهي تفكر في حالته وهو يكتبها لها في تلك الليلة وتمنت لو كانت على مقربة منه وقرأت رسالته كما يلى:

«يا أغلى الناس، تشجعى. أنا بخير ولوالدك نفوذ كبير يحيطنى به هنا. لا يمكن لك تقديم رد كتابى على رسالتى هذه. قبلى ابنتنا من أجلى». وكان ذلك هو ما تتضمنه الرسالة. ولقد كانت تعنى الكثير بالنسبة لها عندما تحقق لها أن تستلمها على كل حال لدرجة أنها استدارت نظراتها عن ديفارج نحو زوجته وقبلت يدها وهى تعمل بأشغال الإبرة. وكان ذلك تصرفا عاطفيا مفعما بالمحبة والمتنان ذا طابع نسائى، ولكن اليد التي تلقت تلك القبلة لم تبد أي تجاوب، ونزلت باردة ثقيلة تلتقط شغل الإبرة مرة أخرى.

وكان في ملمسها شيئا ذا دلالة بالنسبة إلى لوسى. وتوقفت عن الاسترسال مع عواطفها ووضعت الرسالة في صدرها ومدت يديها ومدت عنقها ونظرت بفزع نحو مدام ديفارج. وقابلت مدام ديفارج الحاجبين المرفوعين والجبهة المرفوعة بنظرة طويلة باردة غير معبرة عن أي معنى. وقال لورى محاولًا تخفيف الحرج: «يا عزيزتى توجد أحداث شغب في الشوارع، ورغم أنها لن تسبب لك أي مضايقة، فالسيدة ديفارج ترغب في أن ترى الأشخاص الذين تجد لديها القدرة على أن توفر لهم الحماية في مثل هذه الأوقات مما يحتم أن تكون على معرفة بهم ويحتم أن تتعرف عليهم سلفًا». وعندما لاحظ لورى الحالة المتحجرة الباردة على رفاقه الثلاثة: ديفارج وزوجته والمرأة فينجانس فلقد استطرد قائلا: «هل يجوز لى أن أعتقد أننى قد قدمت تصويرا صحيحا للحالة السائدة أيها المواطن ديفارج؟»

ونظر ديفارج نظرة كئيبة نحو زوجته، ولم يعط إلا همهمة تفيد الموافقة فقال لورى: «يحسن يا لوسى أن تحضرى ابنتك الغالية هنا وكذلك الآنسة بروس. إن الآنسة بروس يا سيد ديفارج إنجليزية الجنسية وهي لا تعرف اللغة الفرنسية».

وعندما جاءت الآنسة بروس كان مظهرها يدل على كامل قناعتها أنها أكثر من ند لأى أمراة غير إنجليزية، ولم ينل من كبريائها ولم تهتز إزاء وجود أي محنة أو أي خطر، وظهرت أمامهم وقد طوت ذراعيها على صدرها ونظرت بطريقتها الإنجليزية إلى المرأة فينجانس وكأنما كانت نظرتها تقول لها: «أنا واثقة من نفسى يا ذات الوجه المتجهم! وأنا آملُ أن تكونى على ما يرام!» وقامت الآنسة بروس أيضا بتحية مدام ديفارج بفاصل من السعال الإنجليزى. ولكن لم تهتم بها المرأتان الفرنسيتان.

وقالت مدام ديفارج وهي تتوقف عن شغل الإبرة لأول مرة: «هل هذه هي ابنته؟» وأشارت بالإبرة إلى لوسى الصغيرة كما لو كانت الإبرة أصبع القدر. وقال لورى: «نعم يا سيدتى، هذه هى ابنة سجيننا المسكين، وهي ابنته الوحيدة».

وبدا كما لو كان الظل المصاحب لمدام ديفارج والفريق المصاحب لها يسقط بظلمته وتهديداته على الأم وابنتها. وقالت مدام ديفارج: «هذا يكفى يا زوجى. لقد شاهدتهم. يجوز لنا أن ننصرف». واستأنفت أشغال التريكو وخرجت. وتبعتها المرأة فينجانس. وكان ديفارج هو الذي خرج أخيرا وأغلق الباب وراءه.

وقال لورى: «تشجعى يا عزيزتى لوسى، تشجعى، تشجعى، تشجعى! حتى الآن تمض كل الأمور وتشير سيرا حسنا - إن الأمور الآن أفضل بكثير مما كانت عليه عندما كانت أرواحنا تكاد تزهق. أبشرى خيرا، وليكن قلبك قلبا شاكرا». فقالت لوسى: «أنا لست جاحدة للشكر فيما آمل، ولكن هذه المرأة المخيفة تبدو كما لو كانت تلقى بظلالها فوقى وفوق كل آمالى». فقال لورى: «تت، تت! ما هذا اليأس؟ إنها مجرد ظل، وهي ليست شيئا حقيقيا! لا شيء يمكن أن يكون موجودا داخل الظل يا لوسى».

ولكن الظلال الممتدة من عائلة ديفارج وهيئتهم التى بدوا بها كانت ظلالًا مظلمة معتمة في قرارة نفسه هو شخصيا بالرغم من كل شيء، ولقد أشقاه ذلك لا شعوريا إلى حد كبير.

لم يعد الدكتور مانيت حتى صباح اليوم الرابع لخروجه من البنك واندماجه مع الجمع الحاشد الذي كان أفراده يشحذون أسلحتهم في الفناء الموجود أمام البنك. وكثير جدا مما كان قد حدث في ذلك الوقت الرهيب ظل مطويا مخفيا عن علم لوسى بكل حرص واهتمام لدرجة أنها لم تعرف مثلا أن ألفا ومائة من السجناء الضعفاء العزل من السلاح رجالًا ونساء مختلف الأعمار قد قتلوا بأيدى الرعاع والدهماء من أهل باريس، ولم تعرف لوسى هذه المعلومة على سبيل المثال إلا بعد مغادرتها باريس إلى لندن بوقت طويل. لقد عرفت فقط أنه كان هنالك هجوم على السجون وأن كل المسجونين السياسيين كانوا معرضين للخطر وأن بعضهم قد تم جرهم من داخل سجونهم بأيدى جماهير من الناس حيث قتلوا.

وأوضح الدكتور مانيت للسيد لورى أن ذلك الحشد من الناس كان قد اقتاده لكى يشاهد منظر مذبحة بأحد السجون. وهناك وجد نفسه يجلس بين أعضاء محكمة. وكان قد أعلن عن نفسه ذاكرا اسمه ومهنته باعتبار أنه كان قد أمضى ثمانية عشر عاما محبوسا بدون محاكمة وبطريقة سرية في سجن الباستيل، وقام شخص من أعضاء المحكمة وشهد بصحة أقواله، وكان ذلك الشخص هو ديفارج. وعرف أن زوج ابنته كان موجودا بين السجناء الأحياء وكان يطالب بشدة أن يحاكم لينجو بحياته ويحصل على حريته. وأنه تقدير لشخصه كرجل قاسى من العهد البائد الذي تم إسقاطه فلقد تمت الموافقة له على أن تتم محاكمة تشارلس دارنى أمام تلك المحكمة غير القانونية وأن يتم النظر في حالته وذكر الدكتور مانيت أنه يظن أنه كان قد أوشك أن يصل إلى إمكانيه إطلاق سراح زوج ابنته عندما ظهر اتجاه (غير مفهوم) أفضى إلى تبادل بعض الهمسات عن ضرورة ان تكون المناقشات سرية. وبعد ذلك أبلغ رئيس المحكمة الدكتور مانيت أن المسجون يلزم أن يظل في الحبس، ولكنه، ومن أجل خاطره سيتم حبسه في سجن يتوافر فيه الأمن. وعلى الفور وبمجرد إشارة واحدة تم إدخال السجين إلى السجن مرة أخرى، ولكن الدكتور مانيت رجا أعضاء المحكمة أن يظل موجودا ليتأكد من سلامة زوج ابنته، وحصل على تصريح بذلك. وظل الدكتور مانيت موجودًا بالسجن حتى زال خطر قتل المساجين دون أن يمس زوج ابنته أي أذى ودون أن يُقْتَل.

وفي ذلك الوقت، برزت أمام الدكتور مانيت أمور أعظم أهمية من الهدف الذي كان قد نذر نفسه له. واثناء بقائه في مكانه كطبيب، كان عمله يتطلب منه أن يتعامل ويبذل رعايته الطبية لكافة طبقات البشر، مسجونين ومطلقى

السراح، أغنياء وفقراء، أشرار وطيبين وكان الدكتور مانيت يستخدم نفوذه بحكمة وتعقل وترو إلى حد أتاح له أن يكون هو المفتش الطبى لثلاثة من السجون من ضمنها سجن لافورس. ولقد استطاع الآن أن يؤكد لابنته لوسى أن زوجها لم يعد مسجونا في زنزانة للحبس الانفرادى، ولكنه في زنزانة كبير يشغلها معه كثير من المساجين، وأكد لها أنه كان يستطيع أن يقابل زوجها مرة كل أسبوع، وكان يحضر لها رسائلة الحلوة المطمئنة مباشرة من بين شفيته، وكان زوجها في بعض الأحيان يتمكن من كتابة رسالة بخط يده إليها، ولكن لم يكن مسموحا لها ان تكتب له أي رسالة لأنه من بين كل الجرائم كانت الشكوك في السجن تحيط بالمهاجرين الذي كان لهم صداقات وعلاقات بأصدقاء لهم خارج فرنسا.

ولكن بالرغم من كل شيء لم يكف الدكتور مانيت عن محاولة إطلاق سراح تشارلس دارنى أو على الأقل تعجيل محاكمته، ولقد كان التيار العام للأحداث سريع الخطى بالنسبة له. كانت حقبة جديدة ومرحلة جديدة من الثورة قد بدأت. حوكم الملك، وحكم عليه بالإعدام، وقطعت رأسه. جمهورية الحرية والمساواة والإخاء أو الموت، أعلنت شعار النصر على أعداء فرنسا أو الموت وهى تواجه سلاح أعداء فرنسا بالسلاح. وكان العلم الأسود يعلو خفاقا فوق أبراج نوتردام، وأعلن ثلثمائة ألف رجل في فرنسا أن يكافحوا الطغيان والطغاة في كل مكان على سطح الأرض، وزار بهذا الشعار كل أنواع البشر في فرنسا. أي شأن خاص لأى إنسان كان يمكن أن يعبر عن نفسه بأي كلام في مواجهة الطوفان المصاحب للعام الأول من تاريخ الحرية في العالم، وهو الطوفان الذي كان ينبع من قاع الشعب الفرنسى، ولم

يكن طوفانا تنهمر المياه فيه من علٍ، وكانت نوافذ السماء أثناء ذلك الطوفان موصدة وليست مفتوحة!

وأطل شبح كان مختبئا ثم اكتسب شهرة سريعة كما لو كان قد تسلل إلى العالم من جميع المؤسسات الموجودة في العالم، وكان ذلك الشبح هو شبح أنثى حادة النصل أطلقوا عليها اسم الجيلوتين أو المقصلة. ولقد أصبحت هذه المقصلة هي المحور الأساسى لكل النكات والطرائف التي شاعت بين الناس في فرنسا في ذلك الوقت. كانت هى العلاج للصداع. كانت تمنع الشعر منعا تاما من أن يخالطه شعر المشيب. كانت تحمل العلاج الفعال لكل الأمراض الجلدية. كانت أداة الحلاقة التي لا تضارعها أداة أخرى. اي شخص يعانق الجيلوتين ينظر من نافذتها ثم يغطس داخل جوال ليستريح إلى الأبد.

وبين هاتيك الأهوال ومع كل الكآبة المصاحبة لها، كان الدكتور مانيت يمشى مرفوع الرأس، واثقا من قدراته، لا يشك أبدا في أنه سيتمكن من أن يطلق سراح زوج ابنته في النهاية. وبالرغم من ذلك، كان تيار الزمان يكتسح كل شيء في طريقة بقوة ومن الأعماق، ثم كان الوقت يمضى بسرعة وبشراسة لدرجة أن تشارلس دارنى بقى في السجن سنة كاملة وثلاثة شهور، وكان الطبيب رابط الجأش واثقا من قدرته على أن يطلق سراحه وازدادت شرور وشراسة الثورة في شهر ديسمبر من ذلك العام لدرجة أن أنهار جنوب باريس كانت مليئة بالجثث التي تم إغراقها أثناء الليل، وكان الرصاص يطلق على السجناء وهم مرصوصون في صفوف أو داخل مربعات تحت شمس الشتاء. وكان الدكتور مانيت لا يزال يمشى بين هذه الفظائع المخيفة وهو

رابط الجأش. ولم يكن شخص معروفا في باريس بقدر ما كان الدكتور مانيت معروفا ومشهورا. ولم يكن شخص في باريس له ظروف غريبة مثل ظروفه الغريبة. كان يلتزم الصمت، وكان مفعما بالإنسانية، ولم يكن من الممكن الاستغناء عن خدماته سواء في عيادته أو في السجن، وكان يوزع مهارته الطبية على قدم من المساواة بين القتلة وبين الضحايا. كان رجلا فريد نوعه. لم يشتبه فيه أحد ولم يتعرض لأي استجواب سوى سؤال واحد كان يوجه إليه عما إذا كان حقيقة قد عاد إلى الحياة من براثن الموت.

وانقضت سنة وثلاثة شهور، وطوال تلك المدة لم تكن لوسى متأكدة أبدا من إمكانية إنقاذ زوجها، وكانت تشعر من ساعة إلى أخرى أن تلك الجيلوتين ستقطع رقبة زوجها في اليوم التالى. وكل يوم كانت تشاهد عربات نقل المحكوم عليهم بالإعدام تمشى في الشوارع بين أحد السجون وبين المقصلة وهى مثقلة بأحمالها من المحكوم عليهم بالإعدام تحت سيكن الجيلوتين: بنات جميلات، ونساء محترمات، من ذوات الشعر الأسود أو الشعر البنى اللون، ورجالا، شيبا وشبابا، طوال القامة، وقصار القامة، ممن ينحدرون من سلالة سكان المدن، أو ممن ينحدرون من سلالة سكان الريف، وكانت عربات نقل المحكوم عليهم بالإعدام تقدمهم جميعا كمجرد نبيذ أحمر تشربه الجيلوتين، وعربات نقل المحكوم عليهم بالإعدام تحمله إليها كل يوم ويرى المحكوم عليهم بالإعدام بعد إخراجهم من زنازنهم ليركبوا عربة المحكوم عليه بالإعدام وليشاهدوا ضوء النهار في الهواء الطلق لآخر مرة ثم تفرغهم العربات عند الجيلوتين لكى نروى ظمأها من دمائهم تحت شعار: الحرية والمساواة والإخاة أو الموت، وكان آخر مفردات ذلك

الشعار وهو الموت هو نصيب أولئك المحكوم عليهم بالإعدام من مفردات ذلك الشعار وهو الأسهل تحققا لهم أيتها الجيلوتين!

ولو كانت مفاجأة المصيبة قد تحققت لها، ولو كانت عجلات الزمن لم يطل دورانها زمنا طويلا وابنة الدكتور مانيت تنتظر نتيجة جهود أبيها في يأس لا أمل في انقضائه لكان الخطب ممكن الاحتمال كما يحدث لكثير من الناس ممن لم يطل انتظارهم مثلها ولكنها منذ اللحظة التي احتضنت فيها رأس أبيها المجللة بالشعر الأبيض إلى صدرها في ذلك المخزن الكائن فوق دكان النبيذ في حى سانت أنطوان وهى مثقلة بأداء واجباتها ومخصلة لها.

لم تتغير كثيرا في مظهرها وإن كان لون بشرتها قد خبا كثير من نضارته وظل تعبير وجهها المعبر عن اعتدادها بنفسها مستمرا، وكانت أحيانا وهي تقبل أباها يغلبها البكاء للحزن الذي كانت تختزنه طول النهار، وكانت تقول له أنه هو الأمل الوحيد الباقى لها تحت السماء. وكان يقول لها دائما: «لا شيء يمكن أن يحدث له دون علمى، وأنا أعرف أننى أستطيع أن أنقذه يا لوسى».

ولم يكونا قد قاما بمواجهة هذا الموقف لمدة بضغة اسابيع عندما قال لها أبوها ذات مساء بعد عودته إلى البيت: «يا عزيزتى، توجد نافذة مرتفعة في السجن، ويستطيع تشارلس أن يصل إليها في الساعة الثالثة بعد الظهر. وعندما يستطيع في بعض الأحيان أن يصل إليها حسب الظروف والأحوال، فهو ربما يستطيع أن يراك في الشارع الذي تطل عليه هذه النافذة فيما يعتقد هو لو أنك كنت واقفة في مكان أستطيع أن ارشدك إليه. ولكنك لن تكونى قادرة على رؤيته يا ابنتى المسكينة، ولو أمكنك أن تشاهديه فمن الخطورة

بالنسبة لك أن تعمد إلى عمل أي إشارة تدل على أنك تعرفينه». فقالت لوسى: «أوه، أرنى هذا المكان يا أبي وأنا سأذهب إليه كل يوم».

ومنذ ذلك الوقت، وتحت كل الظروف الجوية، كانت تنتظر في ذلك المكان لمدة ساعتين. وعندما كانت الساعة تدق معلنة عن الساعة الثانية بعد الظهر، كانت تذهب إلى ذلك المكان، وكانت تعود إلى البيت في الساعة الرابعة، وعندما لم يكن الجو ممطرًا أو شديد البرد كانت تأخذ ابنتها معها، وفي أوقات أخرى كانت تذهب غلى ذلك المكان بمفردها، ولكنها لم تتخلف عن الذهاب إلى ذلك المكان يوم واحدا.

وكان ذلك المكان عبارة عن ركن قذر في شارع ملتوٍ. وكان كوخايقيم به رجل يقطع الأخشاب قطعا مستطيلة لتستخدم في إشعال المدافئ وهو المنزل الوحيد في نهاية ذلك الشارع. ولا حظها ذلك الرجل في اليوم الثالث لإلمامها بذلك المكان وقال لها: «طاب يومك أيتها المواطنة». فقالت له: «طاب يومك أيها المواطن». وكان الرجل الذي يحترف قطع الأخشاب (وكان من قبل من عمال إصلاح الطرق) يشير إلى السجن وهو يضع أصابع يديه أمام عينيه إشارة إلى قضبن السجن ينظر من خلال تلك القضبان ويطيل النظر ثم قال الرجل كما لو كان يخاطب نفسه: «ولكن ليس هذا من شأنى». واستمر يقطع الخشب بالمنشار.

وفي كل الأجواء، تحت ثلوج وصقيع الشتاء، وفي مواجهة رياح الربيع الباردة، وتحت حرارة أشعة الشمس الساخنة في فصل الصيف، وتحت أمطار الخريف ثم تحت ثلوج وصقيع الشتاء مرة أخرى، كانت لوسى مانيت تقضى ساعتين من كل يوم في ذلك المكان. وكان زوجها يراها (كما علمت

ذلك من أبيها) ربما مرة خلال خمس أو ست زيارات من جانبها لذلك المكان، وربما رآها مرتين أو ثلاث مرات متتالية، وربما لم يكن قد تمكن من رؤيتها لمدة أسبوع كامل أو أسبوعين. لقد كان يكفى أنه قد استطاع بالفعل أن يراها عندما كانت الفرص متاحة لرؤيتها.

واستمر الحال يجرى على هذا المنوال حتى حلول شهر ديسمبر. وذات يوم بعد الظهر في جو مشوب بالثلج الخفيف، وصلت لوسى مانيت إلى الركن المعتاد. وكان ذلك اليوم يوما من ايام الابتهاج الشعبى بحلول عيد من أعياد الثورة. وكانت قد شاهدت المنازل وهي تمشى في الطريق، مزدانة بالرماح الصغيرة، وبالقبعات الحمراء الصغيرة الملصقة على واجهاتها وكذلك بأشرطة ذات ثلاثة ألوان، وكذلك بشعار: جمهورية واحدة لا تتجزأ، وكذلك شعار: الحرية والمساواة والإخاء أو الموت. وكان المحل البائس المملوك لقاطع الأخشاب مغلقا ولم يكن صاحبه موجودًا مما أراح صدر لوسى إذ تركها في المكان هذه المرة لتكون بمفردها.

ولكنه لم يكن بعيدا عنها بمسافة كبيرة لأنها بعد قليل من الوقت أصبحت الآن تسمع أصوات حركات مضطربة وأصوات صيحات عالية مختلطة تأتى إلى مسامعها من بعيد مما ملأها خوفًا ورعبًا وكادت تتولى عن المكان هربا، ولكن إلى أين وهى لا تعرف ما سيصادفها لو تحركت من مكانها فظلت واقفة في مكانها لا تجد منه مفرا ولا مهربا. وبعد لحظة ظهر أمامها حشد هائل من الناس كانوا يتدفقون حول ركن من أركان السجن وكان معهم الرجل صاحب كوخ قطع الأخشاب وهو يضع يده في يد المرأة فنجانس. ولم يكن من الممكن أن يكون عدد أفراد ذلك الحشد أقل من خمسمائة فرد،

وكانوا يرقصون فيبدو منظرهم كما لو كانوا خمسة آلاف شيطان. ولم يكن معهم أي نوع من أنواع الموسيقى وكانوا يرقصون فقط وفقا لإيقاع أغانيهم وأنشيدهم. كانوا يرددون نشيد الثورة مع وقفات رهيبة في انسجام مع إيقاع النشيد والرقصات بدا مثل صرير الأسنان. وبدا الحشد في البداية كما لو كان عاصفة مندفعة من القبعات الحمراء والخرق الصوفية المهلهلة، ولكن عندما امتلأ بهم المكان ووقفوا يرقصون حول لوسى مانيت بدا كما لو كان سبح مجنون ضخم قد انبثق من كتلة الحشد. وتقدموا وتراجعوا وتشابكت أيديهم وتصادمت رؤوسهم، ودار بعضهم كل واحد حول نفسه أو أمسك أحدهم بالآخر ليدوروا معا حول نفسيهما في ثنائيات متعددة حتى تساقط كثير منهم فوق الأرض، وبينما كان بعضهم قد سقط فوق الأرض أمسك كل من الباقين بيد الآخر وأخذوا يدورون في حلقة واحدة لا تتوقف عن الدوران. ثم تفرقت الحلقة الكبيرة الواحدة إلى حلقات صغيرة عديدة يتكون كل منها من اثنين أو أربعة أفراد، وكل حلقة تدور وتدور حتى توقفت جميع الحلقات عن الدوران فجأة. ثم أخذت الحلقات في الدوران مرة أخرى، وتصادمت وتلاصقت، واندمجت حلقة راقصة مع حلقة أخرى راقصة في حلقة واحدة راقصة ثم تنفصل الحلقتان مرة أخرى، وكل حلقة تدور في مواجهة الحلقة الأخرى. وفجاءة توقفوا جميعا مرة أخرى عن الرقص وأراحوا الزمان من ضجيجهم برهة من الوقت، ثم اصطفوا في صفوف ملأت اتساع الشارع ورؤوسهم منخفضة وأذرعهم مرتفعة إلى أعلى وهم يصرخون.

كانت تلك هو رقصة الكارمانيول، انتهت تاركة لوسى مانيت مرعوبة مرتجفة مختبئة في منزل قاطع الأخشاب بينهما كان زغب الصقيع ينهمر بهدوء وينزل ناعما أبيض اللون كأنه لا شيء. وهتفت تقول عندما رفعت

يديها عن عينيها فشاهدت أباها يقف أمامها: «آه يا أبى! أه من هذا المنظر القاسى الردئ!» وقال لها أبوها: «اعرف يا عزيزتى، أعرف. لقد رأيت ذلك المنظر مرات كثيرة. لا تخافى! لن يؤذيك أحد منهم». فقالت : «لست خائفة على نفسى يا أبى. ولكن عندما أفكر في زوجى تحت رحمة أولئك الناس –» فقال: «سنضعه فوق مستويات رحمتهم في القريب العاجل. لقد تركته وهو يتسلق لكى يصل إلى النافذة وجئت لكى أخبرك بذلك. لا أحد هنا يراك من الغوغاء. تستطيعين أن تقبلى يدك تجاه أعلى سياج النافذة». فقالت: «أفعل ذلك يا أبى وأرسل إليه روحى مع قبلتى!» وسمعا وقع أقدام فوق الثلوج: وقالت مدام ديفارج: «أحييك أيتها المواطنة، وأحييك أيها المواطن». قالت ذلك وهى تمر بهم. ولم تقل شيئا أكثر من ذلك، وانضرفت مدام ديفارج مبتعدة عنهما مثل ظل فوق الطريق المتشح ببياض الثلوج.

وقال الدكتور مانيت: «هاتى ذراعك يا حبيبتى. مُرِّى من هذا المكان وكأنك مبتهجة بكل شجاعة نم أجل خاطره. لقد أحسنت التظاهر على هذا النحو». وكان الحشد قد انصرف بقضه وقضيضه عن المكان عندما قال الدكتور مانيت: «لن يكون ما بذلناه من جهود بدون طائل. تشارلس سيستدعى للمحاكمة غدا». فقالت: «سيستدعى للمحاكمة غدا!» فقال الدكتور مانيت: «لا ينبغى أن نفقد أي وقت أنا مستعد استعدادا جيدا. ولكن توجد بعض الاحتياطات التي يلزم الأخذ بها، وهي مما لا يحسن توفيره إلا عندما يستدعى فعلا للمثول أمام المحكمة. إنه لم يستلم الإعلان حتى الآن ولكننى أعرف أنه يجرى استدعاؤه الآن للمثول أمام المحكمة غدا ثم ستتحول أوراقه إلى أعضاء مجلس الثورة. هل أنت الآن مطمئنة أم أنك لا تزالين خائفة؟» وجاهدت لكى تستطيع أن تقول: «إننى أثق بك». فقال لها

على الفور: «ثقى بى. إن محنتك قد أوشكت أن تنتهى يا حبيبتى. سنسترده إلى الحياة معك بعد سويعات قليلة. لقد أحطته بكل حماية ممكنة. يلزم أن أقابل لورى».

وتوقف عن المشى. كان من الممكن أن يطرق السمع عندئذ ضجيج عجلات عربات مسرعة وعرفا جيدا ماذا كان يعنه وقع عجلات تلك العربات. عربة. عربتان. ثلاثة عربات. ثلاث عربات كانت تجرى حاملة حمولاتها المخيفة الخائفة فوق الثلوج المحطمة تحت عجلات تلك العربات. وكرر الدكتور مانيت قوله: «يلزم أن أقابل لورى». وانحرف بابنته في اتجاه طريق آخر. وكان الرجل العجوز الصلد القوى العزيمة لا يزال واثقا من قدراته لم يفارق الثقة بنفسه ولم تفارق الثقة نفسه. وكانت السماء يختلط فيها الضباب الأحمر بالضباب الأصفر، وكان بعض الضباب يرتفع ويتصاعد من جهة نهر السين. مما كان يعلن عن قرب حلول الظلام. وكان الظلام يشمل كل المكان عندما وصلا إلى البنك. من هذا الذي يجلس مع السيد لورى عندما وصلا إلى البنك إن لم يكن واحد ممن يجلسون على كراسى القضاة في المحكمة وما كان يجب أن يرى في مكان غير المحكمة؟ ومنه عرف وهو فرح ومندهش ليضم ابنته بين ذراعيه ما قاله لا بنته بصوت عال وهو يدير رأسه نحو الحجرة التي سمع منها الخبر المفرح: «هل تصدقين أنه قد أحيل للمحاكمة أمام أعضاء مجلس الثورة وتحددت له جلسة الغد؟».

❋❋❋❋

الفصل الخامس عشر

زَهْوُ الانتصار
Triumph

كانت هيئة المحكمة الرهيبة بقضاتها الخمسة، ولمدعى العمومى، وهيئة المحلفين المتزمتين تنعقد كل يوم. وكانت قوائم الأحكام التي يصدرونها تمضى ذاهبة كل مساء إلى السجون المختلفة حيث يقوم موظف بكل سجن من تلك السجون بقراءة مضمونها على المساجين المساكين. وكانت العبارة المضحكة المبكية التي اعتاد موظف السجن أن يقولها على مسمع من المساجين كل مساء هى: «تعالوا هنا واسمعوا أبناء صحافة المساء، أنتم يا من بداخل الزنازن».

«تشارلس إفريموند المدعو دارنى!» هكذا، بمناداة هذا الاسم انتهت قراءة صحيفة المساء في سجن لافورس. وكان الممر المفضى إلى البوابة (حيث تتم قراءة الصحيفة) قصيرا ومعتما، وكان الليل في زنازين السجن بكل ما فيها من حشرات ضارية متجبرة طويلا وشديد البرودة. وفي اليوم التالى تم اقتياد خمسة عشر سجينا لتنفيذ حكم الإعدام فيهم كانت أسماؤهم قد نوديت قبل اسم تشارلس دارنى وذلك بعد محاكمة لم تستغرق سوى ساعة ونصف ساعة، ثم نودى اسمه: «تشارلس إفريموند المدعو دارنى».

وكان القضاة يجلسون إلى المنصة وهو يرتدون رؤوسهم قبعات محلاة بالريش، ولكن أهم م كان يميزهم هو القبعة الحمراء الخشنة المظهر يحيط

بها شريط عليه ثلاثة ألوان. ولو نظر إنسان إلى هيئة المحلفين وجمهور المشاهدين يتبادر إلى ذهنه أن النظام القضائى مستتب وأن العدالة قد استعادت مجراها السليم وأن القضاة يحاكمون بالعدل والقسطاس البرئ، وهو برىء حتى تثبت إدانته. (ولم تكن تلك هي الحقيقة!) كان جمهور الحاضرين هو أحقر جمهور واكثر الجماهير قسوة، وهو خلاصة حثالة المدينة، يعلق على كل عبارة وكل جملة تقال بصوت عال، ويوافق على ما يصادف هواه، ويعارض كل ما لا يصادف هواه، يصدر الأحكام مقدما ويستعجل استخلاص النتائج قفزًا فوق العديد من المقدمات التي يهدر دلالتها دون أي محاولة للتمحيص. وكان الرجال من هذا الجمهور مدججين بالأسلحة بمختلف الطرق، وكان بعض النساء يمسكن بالسكاكين وبعض الخناجر، وكان بعض أفراد الجمهور يأكلون ويشربون وهم يتفرجون، وكان كثير من النساء يشتغلن بالتطريز وبأعمال التريكو، وكان في الصف الأول من هاتيك النساء المتشغلات بالتريكو امرأة تضع قطعة من شغل التريكو تحت ذراعها وهي تجلس بجوار رجل لم يره دارنى إلا في يوم عبوره الحدود داخلا إلى فرنسا، ولكنه تذكر أنه الرجل الذي كان قد أخبره أن اسمه هو ديفارج. وأهم ما لاحظه دارنى بالنسبة للرجل ديفارج وزوجته هو أنهما مع أنهما كانا يعرفانه جيدا، فهما لم ينظرا إليه نظرة واحدة على الإطلاق. وكانا يبدو عليهما كما لو كانا يترقبان حدوث شيء معين بشغف محموم كشغف الكلاب في انتظار الطعام، وكانا يتطلعات باستمرار إلى المحلفين، ولا شيء غير المحلفين. وفي الكرسى الموجود أمام رئيس المحكمة كان يجلس الدكتور مانيت وهو يرتدى ملابسه المعتادة الوقورة. وبقدر قدرة دارنى على الإبصار، فهو لم يشاهد أي رجال يرتدى أحدهم الملابس العادية إلا الدكتور مانيت والسيد لورى، ولم يكن دارنى قد اكتحلت عيناه من قبل بمشاهدة خليط ملابس راقصى رقصة الكارمانيول.

ولقد كان تشارلس إفريموند المدعو دارنى متهما بواسطة المدعى العمومى باعتبار أنه أحد الذين هاجروا خارج فرنسا للعمل ضد فرنسا من الخارج، وبذا كانت حياته مناهضة عدائية للثورة وللجمهورية وفقا للمرسوم الذي يقضى على كل المهاجرين من فرنسا بأن يذوقوا عقوبة وآلام الموت. ولا عبرة لكون المرسوم قد صدر بعد عودته إلى فرنسا. ها هو ذا أحد المهاجرين ماثل أمام المحكمة، والمرسوم الذي يقضى عليه بعقوبة الإعدام موجود سارى المفعول. ولقد قبض على المتهم في فرنسا، ورأسه مطلوبة. وصاح الجمهور يهتف قائلا: «اقطعوا رأسه! إنه عدو الجمهورية!».

وقرع رئيس المحكمة الجرس تحت يده لكى يُسْكَت تلك الصيحات، وسأل المتهم ما إذا كان غير صحيح إنه كان قد عاش سنوات كثيرة في إنجلترا؟ وكان ذلك الادعاء صحيحا دون ريب. ألم يكن مهاجرا إلى إنجلترا بناء على ذلك؟ بم يسمى نفسه في سنوات إقامته في إنجلترا؟ غير مهاجر وفقا لروح وجوهر القانون؟ ولماذا لا يعتبر مهاجرًا وفقا لظاهر نص القونون؟ والإجابة هي أنه كان قبل سفره إلى إنجلترا قد تنازل عن لقب الماركيز الذي كان قد ورثه إذ لم يكن متنقعًا به، وهو كان قد غادر وطنه بكل تأكيد قبل أن تكون كلمة المهاجر بمفهومها الموجود لدى هيئة المحكمة موجودة في مجالات الاستخدام- وذلك لكى يعيش ويكسب عيشه من عمله وعرق جبينه في إنجلترا مفضلا ذلك على أن يعيش على كدح الناس الكادحين المكدودين من شعب فرنسا. وكان السؤال التالى هو: ما هو دليله على صحة هذا الذي يقوله؟ وقام دارنى بتسليم رئيس الجلسة ورقة تحمل اسم شاهدين أولهما هو تيوفيل جابيل وثانيهما هو الدكتور مانيت. وبعد ذلك قال له رئيس الجلسة: «ولكنك قد تزوجت في إنجلترا؟» فقال دارنى: «هذا صحيح، ولكنها ليس إنجليزية». فقال رئيس الجلسة: «هل هي

سيدة فرنسية؟» فقال دارنى: «نعم، بحكم مولدها على أرض فرنسا». فقال رئيس الجلسة: «ما اسمها؟ وما عائلتها؟» فقال دارنى: «لوسى مانيت، الابنة الوحيدة للدكتور مانيت، الطبيب الطيب الذي يجلس هناك». وأشار بأصبعه نحو الدكتور مانيت.

وكانت الإجابة ذات وقع حسن على الجمهور. وامتلأت القاعة بصيحات الاستحسان والتقدير للطبيب الطيب المشهور. ولقد كانت مشاعر الناس في قاعة الجلسة قوية جياشية لدرجة أن الدموع انحدرت من العيون إلى قسمات كثير من وجه الحاضرين الذين كانوا يهتفون من قبل منذ لحظات قليلة سابقة ضد المتهم السجين.

وبهذه الخطوات القليلة على امتداد طريقه الحفوف بالخطر، كان تشارلس دارنى قد وضع قدمه على بداية طريق النجاة كما حددها له الدكتور مانيت. ونفس المجلس القضائى وَجَّه كل خطوة من تلك الخطوات نحو طريق النجاة من أجل الدكتور مانيت. وسأله رئيس الجلسة: ولماذا عاد إلى فرنسا عندما عاد إليها وليس قبل ذلك؟ فأفاد دارنى أنه لم يعد إلى فرنسا في موعد مبكر عن موعد عودته فعلا ببساطة لأنه لم يكن لديه وسيلة لكسب عيشه في فرنسا إلا تلك الوسيلة التي كرهها وتخلى عنها (وهي العيش على كدح الآخرين مثل سائر النبلاء) أما في إنجلترا فلقد كان يحاضر في اللغة الفرنسية وفي الأدب الفرنسى. ولقد عاد إلى فرنسا عندما عاد إليها تحت ضغط وإلحاح رسالة وصلت إليه من مواطن فرنسى كانت حياته مهددة بالخطر بسبب عدم وجود دارنى على أرض فرنسا. وهو قد عاد إلى أرض فرنسا فعلا لكى ينقذ حياة ذلك المواطن، ولكى يتقدم بشهادته لصالحه مهما كان العناء الذي يتجشمه شخصيًا عناءً كبيرًا من أجل إظهار الحقيقة. وتساءل دارنى في النهاية قائلا: هل هذه جريمة في نظر وشرائع الجمهورية؟ وصاح

الجمهور الذي لم يهدأ واستمر الجمهور يصبح مرددا كلمة «لا» حتى كف الجمهور عن الصايح من تلقاء نفسه.

وسأل الرئيس عن اسم ذلك المواطن الذي كان دارنى قد عاد إلى أرض فرنسا لكى يدلى بشهادته لصالحه ولينقذه من مصيرٍ مؤلم. وأوضح دارنى أن ذلك المواطن هو الشاهد الأول الذي كان قد ذكرً اسمه من قبل. وأشار دارنى أيضا إلى خطاب ذلك المواطن الذي كان قد أخذ منه عند اجتيازه الحدود قادما إلى فرنسا ولكنه لم يكن يشك في وجوده ضمن الأوراق الموجود آنذاك أمام رئيس الجلسة.

وكان الدكتور مانيت قد اهتم شخصيًا بأن يكون ذلك الخطاب موجودًا أمام رئيس الجلسة، وتم استخراج ذلك الخطاب من بين الأوراق وجَرَتْ تلاوته واستدعى المواطن جابيل لتقديم شهادته وأيد صحة أقوال دارنى بشأن ذلك الخطاب. أشار جابيل ببراعة وأدب مع تقديره لوقت ومشاغل المحكمة أنه كان ضائعا في سجن أبای منذ ثلاثة أيام فقط، ولم يطلق سراحه ولم ينل حريته إلا منذ ثلاثة أيام عندما عاد تشارلس دارنى إلى فرنسا فاستطاع الحصول على حريته.

وتم استجواب الدكتور مانيت بعد ذلك. ولقد أحدثت شهرته الشخصية وأحدث وضوح إجابته انطباعا هائلا، ولكنه عندما ذكر أن المتهم كان صديقه الأول بعد إطلاق سراحه من سجنه لمدة طويلة، وأنه ظَلَّ دائما صديقا مخلصا له وزوجا مخلصا لابنته في منفاه، وأنه كان قد حوكم في إنجلترا باعتبار أنه جاسوس موالٍ لحكومة فرنسا وصديق للولايات المتحدة الأمريكية وهي في حالة حرب مع إنجلترا، عندما ذكر الدكتور مانيت كل هذه الحقائق والملابسات بكل صدق وعفوية، أصبح المحلفون والجمهور في صعيد واحد هو صعيد التعاطف مع المتهم كل التعاطف. وأعلن المحلفون أنهم

قد سمعوا كل ما يكفيهم الاستماع إليه وأعلنوا أنهم قد أصبحوا مستعدين أن يدلوا بأصوات اقتراعهم على الحكم في القضية لرئيس الجلسة لو كان مستعدًا لسماع الحكم منهم.

وعندما كان كل واحد من المحلفين يدلى برأيه في الحكم علنًا وبصوت عال واحدًا بعد الآخر، كان الجمهور ينهض وقوفا على الأقدام ويهتف ويصفق مؤيدا ومجندًا براءة المتهم. وكانت كل أصوات المحلفين في صالح تبرئة ساحة المتهم، وأعلن رئيس الجلسة أنه قد تقرر إطلاق سراحه.

وبعد ذلك حدث مشهد من تلك المشاهد الغريبة التي يعبر بها الجمهور عادة عن تقلب مشاعره وعواطفه من النقيض إلى النقيض مندفعا إلى إظهار الرحمة والرأفة بدلا من العنف في القسوة كما لو كانت تلك المبالغة في إظهار الرحمة والرأفة مجرد كفارةً عما كان الجمهور قد تورط فيه دون وجه حق م عنف وظلم وقسوة.

وعندما خرج تشارلس دارنى والدكتور مانيت من باب قاعة الجلسة، كان حولهما حشد كبير من الناس شاهد فيهم دارنى كل وجوه الناس الذين حضروا الجلسة ا عدا شخصين لم يجد لهما أثرًا. ووضعه الجمهور فوق كرسى ضم كانوا قد أخذوه من المحكمة نفسها، وفوق هذا الكرسى الذي أطلقوا عليه اسم عربة الانتصار حملوه من الطريق إلى منزله. وعدما احتضن لوسى إلى صدره، وقبلها، بدأ عدد قليل من الناس فر الرقص. وعلى الفور بادر كل الناس المتجمهرين إلى الرقص، وامتلأ الفضاء الموجود أمام المحكمة برقصة الكارمانيولا. ثم وضع الراقصون امرأة شابة فوق كرسى آخر وأطلقوا عليها اسم إلهة الحرية، ثم تقدموا وانسابت جموعهم تتحرك في الشوارع المجاورة للمحكمة وعلى امتداد ضفة النهر، وفوق القنطرة، وقد اندمجوا في رقصة الكارمانيولا، وكان كل فرد منهم يرقص وهو يمشى راقصًا مستمرًا في رقصة الكارمانيولا.

الفصل السادس عشر

طارق بالباب

A Knock At The Door

في خضم المخاوف العالمية وانعدام الثقة فيما تلزم بشأنه الثقة في ذلك الوقت الحالك الظلام، تغيرت أنماط وطرق وأساليب حياة الناس التي لم يكن فيها أي ضرر تغيُّرًا كبيرا. وفي بيت الدكتور مانيت وبين أفراد أسرته المحدودة العدد، كما في كثير من البيوت الأخرى، كانت حاجبات وكميات الاستهلاك اليومى التي يمكن ابتياعها كل مساء يتم ابتياعها بكميات ضئيلة من الدكاكين المتعددة الصغيرة. وشغل كل من الآنسة بروس والسيد كرانشر وظيفة متعهد التوريدات لشراء حاجيات المنزل وكانت الآنسة بروس تحمل النقود والسيد كرانشر يحمل المشتروات في السلة. وكل يوم بعد مضى ساعات الظهيرة عندما تكون مصابيح الشوارع على وشك أن تضاء، كانا ينطلقان للقيام بهذا الواجب المعتاد، وكانا يشتريان ويحضران للبيت كل ما يلزم للبيت شراؤه. وكان ذلك يحدث على هذا المنوال بعد عودة تشارلس دارنى والدكتور مانيت ظافرين وكان من المعتاد أن تقول الآنسة بروس: «الآن يا سيد كرانشر، لو أنت جاهز فأنا مستعدة. وهكذا انطلقا ذات يوم من المنزل مخلفين لوسى وزوجها وطفلتهما والدكتور مانيت بالقرب من

المدفأة المتوهجة النيران. وكان من المنتظر وصول السيد لورى في أي لحظة من مبنى البنك. وكانت الآنسة بروس قد أضاءت المصباح ووضعته في أحد الأركان الجانبية لكى يتم الاستمتاع بدفء النار في هدوء. وكان كل شيء هادئا بالفعل ومريحا، وكانت لوسى قد هدأ روعها عن ذى قبل، ولكنها صاحت فجأة تقول: «ما هذا؟» وقال أبوها: «يا حبيبتى، وتمالك ى نفسك. ما هذه الحالة التي لا تزال تسيطر على مشاعرك؟» فقالت لوسى وقد شحب لون وجهها بصوت مرتجف: «ظننت يا أبي أننى قد سمعت وقع أقدام غريبة على درجات السلم». فقال أبوها: «يا حبيبتى، درجات السلم صامتة كالموت». وعندما قال ذلك سمعوا صوت خبطة على الباب. فقالت لوسى: «أوه يا أبى، يا أبى! ماذا عساه أن يكون هذا؟ فلنخبئ تشارلس. أنقذوه يا أبى!» فقال أبوها وهو ينهض واقفًا: «يا ابنتى الصغيرة، أنا بالفعل قد أنقذته. ما هذا الضعف يا عزيزتى! دعينى أذهب إلى الباب».

وأمسك الدكتور مانيت بالمصباح في يده، وعبر الطرقة بين الحجرتين وفتح الباب. وسمعوا صوت وقع أقدام فوق الأرض تندفع للأمام، وظهر أربعة رجال مظهرهم خشن ويرتدون القبعات الحمراء، وهم مسلحون بالسيوف الطويلة المقوسة وبالمسدسات ودخلوا إلى احجرة. وقال أولهم: «المواطن إفريموند الشهير باسم دارنى». فقال دارنى: «من الذي يريده»؟ فردَّ عليه الرجل قائلًا: «أنا أريده. نحن نريده. أنا أعرفك يا إفريموند. لقد رأيتك من قبل يوم المحاكمة اليوم أنت مسجون تحت التحفظ من مساجين الجمهورية». وأحاط الرجال الأربعة بالسيد تشارلس دارنى كان هو يقف وتمسك به زوجته وابنته متشبثين به كل التشبث.

وقال تشارلس دارنى: «أخبرنى كيف ولماذا أسجن مرة أخرى؟» فقال الرجل: «يكفى أن تعود إلى الحبس وستعرف غدا جواب سؤالك». وكان الدكتور مانيت قد حولته هذه الزيارة المفاجئة إلى ما يشبه الحجر لدرجة أنه ظل واقفا والمصابح بيده كما لو كان تمثالًا وضعوا في يده مصباحا وقد بدأ يتحرك الآن بعد سماع كل ما دار من كلام. ووضع المصباح على الأرض، وواجه الرجل الذي كان يتصدى للكلام مع دارنى وقال له: «أنت قلت له إنك تعرفه، فهل تعرفنى أنا؟» فقال الرجل: «نعم، أنا أعرفك. أنت المواطن الطبيب»، وقال الرجال الثلاثة سويا: «نحن جميعا نعرفك أيها المواطن الطبيب».

وحدق الدكتور مانيت في وجوههم وهو شارد الذهن ثم قال بعد قليل بصوت خفيض: «هل تجيبون سؤاله من أجل خاطرى أنا؟ كيف يحدث هذا ولماذا؟» فقال الرجل الأول بحذر واهتمام: «أيها المواطن الطبيب، لقد أقيم عليه الإدعاء من حى سانت أنطوان». وأشار إلى المواطن الذي كان ثاني الأربعة الذين دخلوا إلى الحجرة وقال: «هذا المواطن من حى سانت أنطوان».

وأومأ المواطن المشار إليه برأسه علامة الموافقة على أقوال زميله ثم أطاف إلى ذلك قوله: «إنه متهم من جهة حى سانت أنطوان». وسأل الطبيب: «بم يتهمه حى سانت أنطوان؟» فقال الرجل الأول: «أيها المواطن الطبيب، لا تسل أسئلة أكثر من ذلك. ولو كانت الجمهورية تتطلب منك تضحيات، فلا شك وأنت مواطن صالح ستقوم بهذه التضحيات بكل سعادة. يا إفريموند،

أنت تحت التحفظ». فقال الدكتور مانيت بتوسل: «كلمة واحدة. هل تخبرنى من الذي يتهمه؟» فقال الرجل الأول: «هذا مخالف للتعليمات. ولكنك تستطيع أن تسأل الشخص الذي يقيم في حى سانت أنطوان الموجود معنا». واتجه الدكتور مانيت بعينيه نحو ذلك الرجل الذي تحركت قدماه بقلق وأخذ يحك ذقنه بأصابع يده قليلا وبعد تردد قال: «حسنا، هذا مخالف للقانون أن أذكر مثل هذه التفاصيل، ولكنه متهم من جانب المواطن والمواطنة ديفارج بتهمة كبيرة. ويشترك معهم في نفس اتهامهم له رجل آخر». فقال الدكتور مانيت: «ومن هو هذا الرجل الآخر، وما شأنه ودخله في هذا الاتهام الذي يوجهه إلى زوج ابنتى السيد والسيدة ديفارج؟» فقال الرجل: «هل أنت الذي تسأل أيها المواطن الطبيب؟» فقال: «نعم». فقال الرجل الذي جاء من حى سانت أنطوان وهو ينظر إلى الدكتور مانيت نظرة غريبة: «إذن ستعلم ذلك غدا. والآن، أنا أبكم لا أستطيع الكلام!».

وكان السيد لورى قد انتهى توًّا من تناول وجبة العشاء، وكان يجلس أمام قطعة أو قطعتين مشتعلتين من الخشب في المدفأة، وربما كان ينظر نحو اللهب المتصاعد من المدفأة وقد استرجع خياله ذكرى لهب مماثل في مدفأة مماثلة كان يصطلى دفء نارها ذات ليلة في فندق ويال جورج في دوفر عندما كان لا يزال رجلًا أكثر شبابا من العاملين في بنك تلسون منذ سنوات كثيرة مضت. وأدار لورى رأسه عن نيران المدفأة عندما كان سيدنى كارتون يدخل عنده ويبدى دهشته التي قابلها لورى بدهشة أكبر.

وقال سيدنى كارتون: «طالب مساؤك يا سيد، اقدم لك السيد بارساد». فقال لورى: «بارساد؟ بارساد؟ إن لى سابق معرفة بهذا الاسم وبهذا الوجه».

فقال سيدنى كارتون مخاطبًا بارساد: «لقد قلت لك من قبل إن لك وجها لا يُنْسَى يا سيد بارساد. أرجوك أن تجلس». وبينما كان كارتون يجلس على أحد المقاعد أضاف التوضيح الذي كان يترقبه السيد الورى فقال كارتون: «إنه أحد الشهود في تلك المحاكمة (التى كانت قد جرت لتشارلس دارنى في إنجلترا). وتذكره لورى على الفور، ونظر نحو الزائر الجديد نظرة لا تخلو من الاشمئزاز.

وقا ل سيدنى كارتون: «السيد بارساد قد جاء هنا بعد إقناعى له أن يأتى معى هنا ليناقش في موضوع يتعلق بمهام العمل. عندى أخبار سيئة. لقد ألقى القبض على تشارلس دارنى مرة أخرى». وعندما صدمه التعبير المفاجئ في موضوع الكلام صاح الرجل العجوز قائلًا: «ما هذا الذي تخبرنى به! لقد تركته سليما معافى مطلق السراح منذ ساعتين فقط، وأنا على وشك العودة إليه!» فقال كارتون: «ألقى القبض عليه بالرغم من كل ذلك الذى تقوله. متى تم إلقاء القبض عليه يا سيد بارساد؟» فقال بارساد. «الآن توًّا». فقال سيدنى: «السيد بارساد هو أفضل حلقات الاتصال بالسلطات الرسمية هنا يا سيدى. ولقد عرفت هذه المعلومة من اتصالات السيد بارساد بأحد أصدقائه الجواسيس ونحن نشرب زجاجة من النبيذ، وعرفنا أن إلقاء القبض على دارنى قد تم بالفعل. لقد شاهد رجال الضبط والإحضار يدخلون إلى منزل

دارنى. بعد أن سمح لهم البواب بذلك. لا شك في أنه قد تم القبض على دارنى وأخذ إلى السجن من جديد».

وقرأت عين السيد لورى الممترسة بخبرة رجال الأعمال أنه من غير المجدى ومما يضيع الوقت فقط أن يجادل في هذه المسالة. وكان مضطربا، ولكنه كان مدركا أنه من الممكن له الحصول على ميزة ما لو تمالك رباطة جأشه، فتمالك أعصابه وظل صامتا يترقب. قال له سيدنى كارتون: «والآن، أنا واثق أن اسم ونفوذ الدكتور مانيت ربما يضمنان له مثولًا دون أذى أمام المحكمة مرة أخرى غدا. هل قلت إنه سيمثل أمام المحكمة مرة أخرى غدا يا بارساد؟» فقال بارساد: «نعم، أنا أعتقد ذلك». فقال سيدنى: «سيكون في موقف جيد غدا كما لو كان كان في موقف جيد اليوم. ولكن ألا يجوز ألا يكون الأمر كذلك. أنا أعترف لك يا سيد لورى أننى منزعج من أن الدكتور مانيت لم تكن لديه القدرة على أن يمنع عملية إعادة إلقاء القبض عليه».

فقال لورى: «ربما لم يكن قد عرف بها قبل حدوثها». فقال كارتون: «ولكن نفس هذه الظروف إنما هى ظروف مزعجة عندما نتذكر كم هى معروفة علاقته بزوج ابنته». فقال لورى: «هذا صحيح». ووضع يده على ذقنه مرتبكًا مركزًا عينيه القلقتين على سيدنى كارتون الذى قال «باختصار، هذا وقت اليأس عند ممارسة لعبة يائسة ورهان على جياد خاسرة. أرجو أن تحث الدكتور مانيت على أن يلعب هو اللعبة الرابحة، بينما سألعب أنا عند الضرورة اللعبة الخاسرة. لا تستحق حياة أي إنسان أن تعرض للشراء. وأي شخص يحمله الناس على الأعناق اليوم ربما يحكمون عليه بالإعدام غدا.

والحصان الذي أراهن أنا عليه الآن في حالة حدوث أسوأ ما يمكن أن يحدث إنما هو صديق في هيئة المحكمة، والصديق الذي أهدف إلى أن أكسبه هو السيد بارساد». وقال الجاسوس: «إننى بحاجة إلى أوراق جيدة لتلعب بها يا سيدى». وقال كارتون: «سأعدها جيدا. أنا أعرف كيف أدير الأوراق في يدى عند اللعب – يا سيد لورى، أنت تعرف كم أنا ظمآن. هات لى مشروبا».

ووضع المشروب أمامه بكيمة كبيرة. وشرب ملء الكأس الأول. وشرب ملء الكأس الثاني ثم أزاح الزجاجة بعيدا عن متناول يده ثم قال كارتون بلهجة وهيئة شخص يمعن النظر في أوراق اللعب التي بيده: «يا سيد بارساد، إن غنم السجون، وجواسيس لجان الثورة، ربما يكونون هم الذين يحرسون المساجين الآن، وربما يصبحون هم المساجين داخل الزنازين غدا. وهم في كل الأحول جواسيس الآن، وربما يصبحون هم المساجين داخل الزنازين غدا. وهم في كل الأحوال جواسيس ومخبرون سريون. والسيد بارساد الآن موظف من موظفى حكومة الجمهورية الفرنسية، كان بالأمس من في خدمة الحكومة الأرستقراطية الإنجليزية، ، أكبر عدو لفرنسا وللحرية. هذه ورقة أهم وأحسن الأوراق الرابحة في يدى. وهذه معلومة واضحة وضوح النهار في منطقة يسودها الشك والارتياب في كل شيء وفي كل شخص. والسيد بارساد الذي لا يزال يتقاضى أموالا من حكومة إنجلترا الأرستقراطية هو في حقيقة أمرة جاسوس لرئيس الوزراء الإنجليزى (بت) أنت إذن العدو الإنجليزى الخائن والعميل الذي يعمل لحساب أس البلاء الذي يتحدثون عنه كثيرًا ومن الصعب عليهم كثيرًا أن يعثروا عليه. هذه ورقة يستحيل أن يخسر من يمتلكها ويلعب بها. هل عرفت بعض ما في يدى من أوراق لعبة

رابحة يا سيد بارساد؟» وقال الجاسوس بشيء من عدم الارتياح: «أنا لا أفهم طريقتك في اللعب جيدا». فقال كارتون: «أنا ألعب الأس الرابح. الإبلاغ عن السيد بارساد إلى أقرب قسم من أقسام لجنة الأمن العام في فرنسا. انظر إلى ما بيدك يا سيد بارساد، وانظر ماذا فيها. لا تتسرع».

وجر كارتون زجاجة الشراب، وسب لنفسه كأسا أخرى مترعة بالشراب وشربها. ولاحظ كارتون أن الجاسوس كان خائفا من إفراطه في الشراب يخشى أن يدفعه السكر إلى الإبلاغ عنه فعلًا إلى أقرب فرع من فروع الأمن العام. عندما لاحظ سيدنى كارتون ذلك، ولمزيد من ترسيخ ذلك الإحساس والشعور بالخوف لدى بارساد، عمدا سيدنى إلى أن يشرب كأسا أخرى مترعة بالشراب ثم قال: «انظر إلى يدك بعناية يا سيد بارساد. تمهل وخذ لنفسك من الوقت ما يكفى».

وكانت يد بارساد يد شديدة الفقر بأكثر مما كان يرتاب في فقرها. ووجد بارساد في يده أوراقا خاسرة لم ير سيدنى منها شيئا يذكر. عندما كان بارساد قد تم فصله من وظيفته كمخبر سرى في إنجلترا على الرغم من جهوده المضنية في بذل الأيمان الكاذبة بساحات المحاكم كلما طلبت منه السلطات ذلك، فلقد اضطر إلى أن يعبر الحدود ويدخل مهاجرا إلى فرنسا وقبل أن يتطوع ويعمل كمخبر سرى للحكومة الفرنسية مهنته الأولى أن يندس بين مواطنيه من الإنجليز المقيمين في فرنسا ويتسقط أخبارهم وينشر الشائعات السارية بينهم، ومهمته الثانية هى أن يعمل كمرشد ومروج إشاعات بين الفرنسيين أنفسهم. وكان يعرف أنه في عهد الحكومة السابقة قبل عهد حكومة الثورة

فلقد كان يعمل كمخبر سرى في منطقة حي سانت أنطوان ومحل بيع النبيذ الذي يمتلكه ديفارج. وكان دائما يتذكر أن تلك المرأة المخيفة كانت تمارس اعمال التريكو عندما كان يتحدق إليها وكانت تنظر بحقد واحتقار إليه بينما كانت أصابعها تتحرك. ولقد كان قد شاهدها بعينيه أكثر من مرة في حى سانت أنطوان تفرد سجلها المشغول بالإبرة وتعلن أسماء أشخاص كانت المقصلة تبتلع حياتهم دون أي مناص من ذلك. وكان يعرف كما كما يعرف كل زملائه الجواسيس في عهد ما قبل الثورة أنه لم يكن بمأمن ابدًا، وكان الهروب من ذلك المصير الرهيب مستحيلًا لدرجة أنه كان يتخيل رقبته مربوطة تحت سيكن المقصلة دائمًا وأن كلمة واحدة من بين شفتى تلك المرأة يمكن أن تجعل سيكن المقصلة تنزل فوق رقبته فعلًا . ولو تم الإبلاغ عنه، وقدمت هي عنه المعلومات التي عرفها عن نفسه وتذكرها ذهنه في تلك اللحظة، فلقد تنبأ بأن تلك المرأة الرهيبة التي رأى كثيرا من الشواهد الدالة على قوة نفوذها يمكن أن تقدم ضده ذلك السجل الرهيب ويمكن أن تسحق آخر فرصة له للبقاء على قيد الحياة. ها هى ذى أوراق سوداء خاسرة تجعل من شأن من يمسك بها في يده يزداد شحوبًا كلما أمعن النظر والتفكير فيها.

وقال كارتون بكل ثقة واقتدار: «أنت لا تكاد تستطيع أن تحب يدك ولا ما بيدك من أوراق اللعب. هل تلعب؟» والتفت الجاسوس نحوه في يأس ثم قال: «لقد بلغ السيل الزبى. سيحين دورى في الخدمة بعد قليل. وأنا لا أستطيع البقاء هنا أكثر مما بقيت هنا. أنت أخبرتنى أن لديك عرضًا تعرضه علىَّ فما هو؟ لا جدوى من أن تطلب منى الكثير الآن. اطلب منى أن أفعل أي

شيء لا يضع رأسى في خطر أكبر وسيكون من الأفضل بالنسبة لى أن أواجه مخاطر الرفض باعتبار أنها أفضل من مخاطر الموافقة. باختصار، أنا سأقوم بهذه المفاضلة. أنت تتكلم عن اليأس. نحن جميعا يائسون هنا. تذكر هذه الحقيقة! أنا يجوز لى أن أبلغ عنك لو اعتقدت أن هذا تصرف مفيد لى. وأنا أستطيع أن أشق طريقى بين الجدران الحجرية. والآن، ماذا تريد منى؟» فقال كارتون: «أنا لا أطلب منك الكثير أنت الحارس الذي معه مفاتيح السجن؟» فقال الجاسوس: «أنا أقول لك لأول مرة ولآخر مرة لا مفاوضة على تهريب مسجون ممكنة». فقال كارتون: «لماذا تقول لي ما لم أطلبه؟ هل أنت الحارس الذي معه مفاتيح السجن؟» فقال بارساد: «في بعض الأوقات». فقال: «من الممكن أن تكون مفاتيح السجن في حوزتك عندما تريدها؟» فقال بارساد: «أنا أستطيع أن أدخل وأخرج كما أشاء». وملأ سيدنى كارتون كأسا جديدة وأخذ يصبها فوق نار المدفأة ويراقب المدفأة وعندما أفرغ كل ما في الكأس نهض واقفا ثم قال: «لقد تكلمنا حتى الآن أمام السيد لورى لكى لا تكون أوراق اللعب محصورة بينى وبينك فقط، تعالى ندخل إلى هذه القاعة المظلمة لكى نتبادل سويًا الكلمة النهائية وحدنا».

❊❊❊❊

الفصل السابع عشر

ويزداد الظل عُمْقًا

The Shadow Deepens

وكان السيد لورى لا يزال جالسا مشتت الفكر بالقرب من الدفأة عندما عاد سيدنى كارتون والجاسوس من الحجرة المظلمة، وقال كارتون: «مع السلامة يا سيد بارساد. اتفاقنا كما ارتضيناه سويا، وليس لديك ما تخشاه من جانبى».

وجلس سيدنى كارتون على مقعد بجوار المدفأة في مواجهة لورى. وعندما أصبحا بمفردهما ساله لورى عما كان قد فعله فقال سيدنى كارتون: «لم أفعل الكثير. لو أعيانى شأن السجين. فلقد تكفلت بما هو أكثر ذات مرة». وتطايرت بددا رزانة وسعة صدر السيد لورى فقال كارتون: «فعلت كل ما كان بوسعى أن أفعله. لو طلبت منه الكثير، لوضعت رأسه تحت سكين المقصلة، وكما قال هو بنفسه لا شيء أسوأ من ذلك يمكن أن يحدث له في حالة الإبلاغ عنه». فقال لورى: «ولكن الزيادة التي يتحملها لو ساءت الأمور قبل المحاكمة لن تنقذه». فقال كارتون: «أنا لم أقل إنها ستنقذه».

وتحولت أنظار لورى بالتدريج نحو نار المدفأة. أضعفه تعاطفه مع محبوبته وخيبة الأمل الثقيلة المتمثلة في هذا الاعتقال للمرة الثانية. كان قد أصبح رجلًا عجوزًا في تلك اللحظة وكان يثقل على كاهلة ما يفوق طاقة احتماله من جراء القلق إزاء الأحداث الأخيرة، وتساقطت الدموع من عينيه.

وقال له سيدنى كارتون: «أنت رجل طيب وصديق مخلص. سامحنى عندما أقول إنك قد تأثرت بحيث لم تعد تحتمل. وأنا لا أستطيع أن أرى أبى يبكى وأنا أجلس بالقرب منه بدون أي اكتراث. وأنا لا أستطيع أن أحترمحزنك بأكثر من ذلك، لو أنت والدى بالفعل. وعل كل حال أنت بمنجاة من سوء الحظ لو كنت أنت بالفعل والدى. من حسن حظك أنك لست بالفعل والد ابن مثلى».

وعلى الرغم من أنه كان قد قال هذه الكلمات الأخيرة من أثر انسياقه مع مشاعر جعلته يتصرف بطريقة غير طريقته المألوفة، فلقد كان هنالك شعور صادق بالاحترام سواء في نبرات صوته أو لمسات يده لدرجة أن لورى الذي لم يكن قد رأى الجانب الأفضل من شخصية سيدنى كارتون لم يكن مهيأ النفس لذلك ومد لورى يده نحو سيدنى كارتون الذي ضغط عليها بهدوء ولطف ثم قال كارتون: «عندما تذهب المرة القادمة إلى منزل تشارلس دارنى المسكين، لا تقل لها أي شيء عن هذه المقابلة وما جرى أثناءها. ربما لن تكون قادرة أن تذهب لرؤيته. ولا تتكلم إليها عنى. وكما قلت لك عندما جئت إلى هنا في بدء زيارتى أنه من الأفضل ألا اقابلها. وربما أمد يدى لكى أقوم بأى عمل تصل إليه يدى لمساعدتها دون أن أقابلها. أنت ستذهب إليها فيما آمل؟ من الضرورى أنها يائسة جدا الليلة». فقال لورى: «أنا ذاهب الآن مباشرة». فقال كارتون: «أنا مسرور بذلك. إنها متعلقة بك إلى حد كبير وهى تعتمد عليك كثيرا. كيف حالها؟» فقال لورى: «قلقة وغير سعيدة، ولكنها جميلة جدًا». فقال حالها؟» فقال لورى: «قلقة وغير سعيدة، ولكنها جميلة جدًا». فقال كارتون: «آه!»

وكان صوته صوتا ممطوطا ومحزونا وهو يبدو كما لو كان يتنهد تنهدًا يكاد يكون نسيجا محزنا مما جذب انتباه لورى أن ينظر في وجه كارتون الذي كان يبدو كما لو كان تحرقه النار. ولقد كان كارتون يرتدى معطف ركوب الخيل وكان معطفه أبيض اللون، وحذاء طويل الرقبة وفيما عدا ذلك كان يرتدى الملابس المعتادة، وكان الضوء المنبعث من المدفأة عندما يقع على تلك الملابس يجعله يبدو شاحب الوجه بشعره الرمادى الطويل منكوشا كله تتطاير خصلاته كيفما اتفق وكيفما طاب لها التطاير.

وأخيرًا قال كارتون: «هل انتهيت من واجبات أعمالك في البنك هنا يا سيدى؟» فقال لورى: «نعم، كما قلت لك في الليلة الماضية عندما جاءت لوسى هنا دون أن نتوقع حضورها، فلقد قمت بأداء كل ما يلزم هنا. وكنت آمل أننى قد تركتهم في أمان تام، وكنت آمل أن أغادر باريس. معى تصريح بالمرور. لقد كنت مستعدا للسفر إلى إنجلترا».فقال كارتون بعد فترة من الصمت: «حياتك حياة طويلة عندما تلقى عليه النظر مسترجعا لوقائعها يا سيدى. أليس كذلك؟». فقال لورى: «أنا في الثامنة والسبعين من العمر.» فقال كارتون: «ولقد كنت طبعا ذا نفع وفائدة طول حياتك، وكان لديك ما يشغلك على الدوام، وكنت مؤتمنًا، ومحترمًا، وينظرون إليك باحترام» فقال لورى: «كنت رجل أعمال منذ غدوت رجلًا». فقال كارتون «انظر إلى المركز الذي تشغله وأنت في الثامنة والسبعين من عمرك. كم سيفتقدك الناس عندما تترك هذا المركز شاغرًا؟» فقال لورى: «وهل أنا إلا عجوز عزب يعيش بمفرده؟» ثم هز لورى رأسه وأضاف قائلا: «لا أحد سيبكينى بعد موتى». فقال كارتون: «كيف تستطيع أن تقول ذلك؟ أفلن تبكيك لوسى؟ أفلن تبكيك ابنتها؟» فقال لورى: «نعم، نعم، حَمْدًا للّه. أنا لم أقصد

تمام ما سبق لى قوله». فقال كارتون: «هذا شيء يلزم بالتأكيد أن تحمد اللّه عليه، ألا يستحق ذلك؟» فقال لورى: «بالتأكيد، بالتأكيد». فقال كارتون: «لو انك استطعت أن تقول بحق وصدق لقلبك الذي ظل وحيدا بين ضلوعك الليلة: لقد تجنبت الحب ولوعته وآلامه، ولم أحظ بأي شكر أو امتنان من أي إنسان، ولو تبوأت مكانًا مرموقًا ولكننى لم أفعل أي شيء طيب أو لخدمة إنسان آخر لكى يتذكرنى مكانًا مرموقًا ولكننى لم أفعل أي شيء طيب أو لخدمة إنسان آخر لكى يتذكرنى به، لو كان ذلك كذلك لكانت سنوات عمرك الثمانية والسبعين كلها لعنات، أليس كذلك؟» فقال لورى: «أنت تقول الحق يا سيد كارتون. أنا أعتقد أنها ستكون كذلك». فقال كارتون: «أنا سأمشى معك حتى باب بيتها. أنت تعرف عاداتى في التشرد وعدم الاستقرار على قرار مستقر. ربما أتسكع في الشوارع دون هدف وقتًا طويلًا. لا تقلق، سأظهر مرة أخرى في الصباح. هل ستذهب إلى المحكمة غدًا؟» فقال لورى: «نعم، لسوء الحظ». فقال كارتون: «وأنا سأكون هنالك ولكن كمجرد واحد من الجمهور. جاسوس سيجد لي مكانًا هنالك. خذ بذراعى يا سيدى». وأمسك السيد لورى بذراعه، ونزلا درجات السلالم وخرجا إلى الشوارع. وبعد دقائق وصلا إلى المنزل الذي كان يريده السيد لورى. وتركه كارتون هناك، ولكنه ظل يتسكع على مسافة قريبة، ثم عاد إلى باب المنزل عندما كان يتم إغلاقه، ولمس كارتون الباب بأصابع يده. ولقد كان كارتون قد سمع بذهابها إلى السجن لكى يراها زوجها كل يوم وقال لنفسه: «كانت تأتى إلى هذا الباب وتعود إليه. وهي من الضرورى أنها قد وضعت قدمها على هذه الأحجار في مرات كثيرة. أنا أستطيع أن أمشى نفس خطواتها وأضع قدماى في ذات الأماكن التي كانت تضع عليها قدميها».

وكانت الساعة قد بلغت الساعة العاشرة ليلًا عندما وصل سيدنى كارتون إلى سجن لافورس حيث كانت لوسى مانيت قد وقفت مئات المرات. وكان نجار قصير القامة قد أغلق دكانه وكان يدخن غليونه بالقرب من باب الدكان. وقال له كارتون عندما لاحظ أن الرجل كان ينظر نحوه نظرات مرتابة متسائلة: «طابت ليلتك أيها المواطن». فقال الرجل: «طابت ليلتك أيها المواطن». فقال كارتون: «كيف حال الجمهورية»؟. فقال الرجل: «تقصد المقصلة. لا بأس بها. التهمت ستة وثلاثين من المحكوم عليهم بالإعدام اليوم. ستصل إلى رقم مائة في اليوم قريبا جدا. سامسون الذي يقوم بتشغيل الجيلوتين ومساعدوه يشكون الآن من كثرة العمل هاهاها! إنه مهرج ذلك الرجل المدعو سامسون. إنه مجرد حلاق!» فقال كارتون: «هل أنت تذهب إليه كثيرا لكى ___» فقال الرجل: «لكى أحلق؟ دائما. أنا أذهب إليه كل يوم. يا له من حلاق! ألم تره وهو يعمل بالحلاقة؟» فقال كارتون: «لم أره أبدا». فقال الرجل: «اذهب وانظر إليه عندما يكون عنده كمية كبيرة من العمل. راقبه بنفسك. لقد حلق رأس ستة وثلاثين من المحكوم عليهم بالإعدام اليوم في وقت كاف لتدخين حشوتين من الغليون، وأقل من هذا الوقت لو تكلمت بصراحة». وأمسك غليونه ليوضح الوقت الذي يستغرقه تنفيذ أحكام الإعدام كل يوم. وقال الرجل: «لكنك لست إنجليزيا مع أنك تلبس ملابس إنجليزية؟» فقال كارتون: «نعم». وتوقف عن الكلام ونظر إلى الرجل من وراء كتفيه. فقال الرجل: «أنت تتكلم اللغة الفرنسية مثل رجل فرنسى» فقال كارتون: «أنا طالب علم قديم هنا». فقال الرجل: «آه ها! رجل فرنسى مائة بالمئة! طابت ليلتك أيها الرجل الإنجليزى». فقال كارتون: «طابت ليلتك أيها المواطن».

ولم يغب سيدنى كارتون عن النظر لمسافة طويلة عندما توقف عن المشى في وسط الشارع تحت مصباح متوهج النور وكتب بضع كلمات قليلة بالقلم الرصاص على شريحة من الورق، ثم عبر الشارع بخطوات شخص واثق الخطوات تذكر المسار الصحيح الذي يجب أن يمشى فيه أخيرًا. ودخل إلى شوارع قذرة ومظلمة ثم وقف أمام صيدلية كان صاحبها على وشك أن يغلق بابها بيديه، وحيا كارتون ذلك المواطن أيضًا تحية المساء بينما كان يضع له على مكتبه شريط الورق، وقال الصيدلى وهو يصفر: «ووه، ووه» وقرأ الكلام المكتوب على شريط الورق ثم قال: «هي! هي! هي!» ولم يعبأ سيدنى كارتون بما كان الرجل يصدره من أصوات. وقال له الصيدلى: «من أجلك أنت أيها المواطن؟» فقال كارتون: «من أجلى» فقال له الصيدلى: «هل أنت ستحرص على أن تبقيهما منفصلين أيها المواطن؟ هل تعرف نتائج مزجهما معًا؟» فقال كارتون: «معرفة تامة».

وأعد الصيدلى عبوتين وأعطاهما له. ووضعهما كارتون واحدة بعد الأخرى في جيب داخلى في معطفه، ودفع الثمن للصيدلى، وغادر الصيدلية على الفور وهو يقول لنفسه وهو ينظر إلى القمر في علياء سمائه: «لم يبق شيء أكثر من ذلك لكى أفعله حتى الغد. أنا لا أستطيع أن أنام». ولم يكن في حالة إنهاك قصوى عندما كان يقول هذه الكلمات تحت الغيوم التي كانت تتحرك بسرعة في السماء، ولم تكن كلماته معبرة عن إهمال أو خور ولكنها كانت حالة رجل متعب كان يتسكع في الشوارع ويكافح وقد ضل طريقه، ولكنه في النهاية صادف طريقه الصحيح، ورأى نهاية لضلاله متسكعًا في الشوارع. ومنذ زمان طويل عندما كان مشهورًا بين أترابه وأقرانه ومنافسيه كشاب واعد بمستقبل مرموق مشى في جنازة أبيه إلى المثوى الأخير لأبيه.

وكانت أمه أيضًا قد ماتت قبل أبيه ببضع سنين. وكانت تلك الكلمات الوقورة التي قرئت أمام قبر أبيه قد تلألأت في ذاكرته عندما هبط يمشى في الشوارع المظلمة بين الظلال المتثاقلة المتراكمة، والقمر مبحر والنجوم مبحرة والسحب مبحرة في والسحب مبحرة في السماء العالية فوق رأسه، وردد تلك الكلمات وتمتمت شفتاه ترددان: «أنا البعث والحياة، هكذا يقول الرب، ولكن ذلك الذي يؤممن بي، ولو كان ميتا فهو سيحيا، وكل من يحيا ويؤمن بي لن يموت».

وانقض الليل، بينما كان لا يزال واقفًا فوق القنطرة يصغى إلى خرير المياه، وارتطامها متطايرة الرذاذ على جدران النهر عند جزيرة باريس، وطلع النهار متدثرًا بالبرد الشديد.

وخرج السيد لورى من مسكنه، وكان من الممكن تخمين إلى أين كان الرجل العجوز يتجه. وكان سيدنى كارتون أيضًا لم يشرب في ذلك الصباح شيئًا سوى كمية قليلة من القهوة، وأكل بعض الخبز، ومشى هو الآخر متجها نحو مكان المحاكمة.

وكانت قاعة الجلسة تئز مثل أزيز خلية نحل عندما كانت الأغنام السوداء قد تساقط كثير منهم من هول الرعب وقد أفضى به الزحام إلى مقعد في أحد الأركان. وكان السيد لورى هناك وكان الدكتور مانيت جالسا في أحد الأركان وكانت هي أيضا هناك تجلس بجوار أبيها. وعندما تم إدخال زوجها إلى قاعة المحاكمة أدارت نظرها نحوه مشجعة له مليئة بحب المعجبين ولطف نظراتهم إلى بعضهم، مليئة بالشفقة والعطف والتعاطف، ولها نظرة تحاول أن تبتسم بالشجاعة من أجل خاطره ولتشد من أزره.

واتجهت كل الأنظار إلى المحلفين. إنهم نفس المواطنين المتحمسين الموجودين بالمحكمة أمس، وفي اليوم السابق للأمس، وغدًا وبعد غد. لا شفقة ها هنا. واتجهت كل الأنظار بعد ذلك إلى القضاة الخمسة وإلى المدعى العمومى. ليس هنالك سند موال للمتهم اليوم. والمسألة إنما هي قضية قتل متعمد. وتشارلس دارنى المفرج عنه أمس هو نفسه الذي تم القبض عليه أمس بموجب الإعلان الذي تم تسليمه إليه في الليلة الماضية متهمًا بأنه يعتبر عَدُوًّا للجمهورية. أرستقراطى، وطاغية ينحدر من أسرة من الطغاة، وهو أحد أفراد جنس محكوم عليه بالفناء، حيث إن أبناء ذلك الجنس الذي يلزم إفناؤه قد أساءوا استخدام الامتيازات التي كانت ممنوحة متاحة لهم في مجالات الظلم الرهيب للشعب. إن تشارلس إفريموند الشهير باسم دارنى محكوم عليه حكمًا دامغًا بالإعدام بموجب القانون.

هكذا تكلم المدعى العمومى بمثل هذه الكلمات القليلة وربما تكلم بأقل منها وعلى كل حال كان ذلك هو فحوى كلام المدعى العمومى. وتسائل رئيس الجلسة ما إذا كان المتهم قد تم إعلانه بمحاكمة سرية أم أن المحاكمة علنية. وقال المدعى العمومى إن المحاكمة علنية. وسأل رئيس الجلسة عمن أقام ضده الاتهام وأجاب المدعى العمومى بأنهم ثلاثة مواطنين هم: أرنست ديفارج، صاحب محل لبيع النبيذ في حى سانت أنطوان، فقال رئيس الجسلة: «حسنا» فقال المدعى العمومى: «وتريز ديفارج، زوجته». وقال رئيس الجلسة: «حسنًا». فقال رئيس الجلسة: «وألكساندر مانيت، طبيب».

وعلا زئير ضخم في قاعة الجلسة، وفي خضم هذا الزئير كان يشاهد الدكتور مانيت شاحب الوجه مرتجفًا يقف على قدميه حيث كان يجلس.

وقال الدكتور مانيت: «يا سيادة الرئيس هذا تزييف واحتيال. أنت تعرف أن المتهم هو زوج ابنتى. وأولئك الأشخاص الأعزاء عليها أعز عندى وأغلى من حياتى من هو، وأين هو ذلك الشخص المتآمر المزور الذي يقول إننى أقيم الاتهام ضد زوج ابنتى!». وقال رئيس الجلسة: «أيها المواطن مانيت، اهدأ. عندما تسيء إلى سلطة المحكمة ستضع نفسك في تصادم مع القانون. وفيما يتعلق بما هو أعز وأغلى شيء عندك من حياتك فلا شيء أعز وأغلى عند المواطن الصالح مثل الجمهورية». وحدثت نوبة من نوبات التهليل الصاخب تحية لهذه الدفقة من التأنيب البليغ العبارات. ودق الرئيس جرسه واستأنف الكلام بحماسة وبكل حرارة فقال: «لو تطلبت الجمهورية من أن تضحى بابنتك نفسها، فالواجب الذي لا واجب لك غيره هو ألا تلتفت إلى أي اعتبار سوى أن تضحى بها. أصغ إلى ما يلزم أن تتبعه. وفي نفس الوقت اسكت ولا تتكلم!» وارتفعت أصوات الجمهور مرة أخرى مؤيدة محبذة هذا الكلام الكبير البليغ القوى سبكًا وصياغة. وجلس الدكتور مانيت وعيناه تدوران حوله وشفتاه ترتجفان، واقتربت منه ابنته.

ونودى ديفارج وتقدم للأمام عندما أصبح الهدوء في القاعة يسمح بأن يكون صوته مسموعا، وحكى بسرعة حكاية السجن الذي كان قد حبس فيه الدكتور مانيت وقال إنه كان مجرد صبى في خدمة الطبيب، وحكى قصة الإفراج عن الدكتور مانيت، وحكى عن حالة الطبيب المفرج عنه عندما تم الإفراج عنه وتم له استلامه. وأنطوت صفحة ذلك الاستجواب بسرعة لأن المحكمة كانت في عجلة من أمرها. وأخيرا سئل ديفارج: «هل أسديت خدمة جليلة أثناء الاستيلاء على الباستيل، أيها المواطن؟» فقال ديفارج: «أنا أعتقد ذلك» وسؤال آخر يطلب من ديفارج أن يحكى للمحكمة كل ما

فعله داخل الباستيل في ذلك اليوم. فقال ديفارج وهو ينظر نحو زوجته التي كانت تقف تحت المنصة التي كان يقف عليها وهي تتطلع إليه باستمرار: «أنا كنت قد عرفت هذا السجين الذي تحدثت عنه كان مسجونا في زنزانة هي الزنزانة رقم مائة وخمسة بالبرج الشمالى. عرفت عنه ذلك منه هو نفسه. إنه لم يكن يعرف نفسه إلا باعتبار أنه رقم 105 – البرج الشمالى عندما كان يصنع الأحذية تحت رعايتى له. وبينما كنت أستخدم سلاحى في ذلك اليوم صممت على أنه عند سقوط المكان في أيدينا فمن الضرورى أن أفحص تلك الزنزانة. ويسقط السجن في أيدينا. وأصعد إلى تلك الزنزانة مع زميل مواطن بمساعدة وإرشاد السجان. وأفحص تلك الزنزانة بكل دقة وعناية. وفي ثقب في ماسورة المدخنة حيث كان حجر يغطى موضعه وجدت ورقة مكتوبة. وها هى ذى تلك الورقة. ولقد بذلت كل جهدى واهتمامى في دراسة نماذج من خط الدكتور مانيت. وهذه الكتابة الموجودة في تلك الورقة إنما هي بخط من الدكتور مانيت. وأنا أضع هذه الورقة بخط يد الدكتور مانيت تحت تصرف هيئة المحكمة ورئيس الجلسة شخصيًا». وقال رئيس الجلسة: «فلْتَقْرأ الورقه».

وفي صمت وسكون يضارعان صمت الموتى وسكون حركتهم – كان المسجون رهين المحاكمة ينظر بكل الحب نحو زوجته، وكانت زوجته تنظر فحسب إليه وإلى أبيها في إشفاق وحنان، وكان الدكتور مانيت قد صوَّبَ بَصَر عينيه نحو الشخص الذي أنيط به أن يقرأ الورقة، وكانت مدام ديفارج لا تتحول نظراتها عن السجين، وكان ديفارج لا يرفع عينيه عن زوجته المتوحشة، وكانت كل عيون الناس الآخرين مركزة على الدكتور مانيت الذي لم ير أي واحد منهم، وقرئت الورقة.

الفصل الثامن عشر

الورقة
The Paper

وعندما قرئت الورقة كانت كلمات الورقة تقول ما يلى: «أنا ألكساندر مانيت، الطبيب البائس، المولود في بلدة بوفيه، والمقيم حاليًا في باريس أكتب ما يلى في زنزانتى في سجن الباستيل خلال الشهر الأخير من عام 1776. وأنا أكتبها باستخدام أشياء أمكن لي اختلاسها بصعوبة بالغة ولقد أزمعت أن أخفيها في جدار المدخنة، حيث قد جهزت مكانًا ملائمًا لإخفائها ببطء ودأب شديدين. وهذه الكلمات إنما أقوم الآن بتدوينها باستخدام أحد السنون الصدئة المدببة التي أكتب باستخدامها بكل صعوبة مستخدما في ذلك جذاذات من السناج وفحم المدخنة ممزوجا بالدم في الشهر الأخير من العام العاشر من أعوام أسرى واستعبادى في هذا السجن. لقد زال الأمل تمامًا من صدرى. وأنا أعلم من نذر مخيفة لاحظتها في كيانى ذاته أن عقلى لن يظل سويا غير ملتاث، ولكننى أعلن أننى في هذا الوقت في كامل قواى العقلية –وأن ذاكرتى سليمة مدركة لكل الظروف من حولى وأننى أكتب الحقيقة: ذات ليلة كانت السحب فيها تحجب نور القمر، في الأسبوع الثالث من ديسمبر عام 1757، كنت أمشى بالقرب من نهر السين طلبًا للانتعاش بفضل الهواء المشبع بالصقيع، على مسافة مسير ساعة من محل إقامتى في شارع مدرسة الطب عندما جاءت عربة وراء ظهرى وهي تجرى

بسرعة كبيرة. ووقفت في أحد جوانب الطريق لكى أدع هذه العربة تمر، وبرز وجه شخص من جانب العربة وأمر السائق أن يتوقف. وتوقفت العربة عندما تمكن سائقها من أن يكبح جماح الجياد التي كانت تجرها، وناداني نفس الصوت مستخدمًا اسمى. وأجبت النداء. وكانت العربة آنذاك على مسافة قريبة منى بحيث إننى لمحت رجلين يفتحان الباب وينزلان من العربة قبل أن أصل إلى مكانها. وعندم وقفا أحدهما بجانب الآخر بالقرب من باب العربة، لاحظت أنهما كانا في مثل عمرى أو أصغر منى قليلًا في السن وأنهما كانا متشابهين في الشكل إلى حد كبير، من حيث البنية وطريقة السلوك، والهيئة، والصوت (وفي حدود قدرتى على الإبصار) وكانا متشابهين في الوجه أيضًا. وقال أحدهما: «هل أنت الدكتور مانيت؟» وقلت: «نعم، أنا الدكتور مانيت.» وقال الآخر: «الدكتور مانيت الذي كان من قبل من أبناء بلدة بوفيه، الطبيب الشاب الذي استطاع خلال عام أو عامين أن يحصل على شهرة متزايدة في باريس». فقلت: «أيها السيدين. أنا الدكتور مانيت الذي تتكلمان عنه بكل هذا الثناء العاطر.» وقال أولهما: «لقد ذهبنا إلى مسكنك ولم نجدك هناك. وحيث إننا قد علمنا أنك من المحتمل أنك تتمشى في هذا الاتجاه، فلقد مشينا فيه وجئنا إليك هنا. هل تتفضل بأن تصعد إلى العربة؟» وكانت لهجة كل منهما لهجة آمرة، وكانا مسلحين. وأنا لم أكن مسلحا. ولم أكن أستطيع أن أعمل شيئًا سوى أن أستسلم وأطيع أوامرهما ودخلت العربة في صمت، ودخلا العربة ورائى، وأغلق من صعد العربة منها أخيرًا الباب، واستدارت العربة، وسارت العربة بسرعتها السابقة. ولقد أعدت ذكر تلك المحادثة بالضبط كما حدثت، ولا يخالجنى أي شك في أنها مطابقة لحقيقة ما حدث كلمة كلمة. وأنا اصف كل شيء بالضبط كما حدث مسيطرًا على عقلى بحيث لا يشرد بعيدا عن الهدف المتعلق بوصف ما حدث . وحيثما

أضع هذه العلامة، علامة النجوم الأربعة هكذا (* * * *) فهى تعنى أننى أتوقف عن الكتابة لأي سبب وأضع الورقة في المكان الذي أخفيها فيه كما أفعل ذلك الآن. وخلفت العربة الشوارع وراءها وتجاوزت الطرف الشمالى للمدينة خرجت من الطريق الرئيسى وتوقفت الآن عند منعزل عن أي منزل آخر. ونزلنا من العربة نحن الثلاثة، ومشينا في ممر رطب ناعم التراب إلى باب المنزل، ولم يفتح لنا الباب في الحال ردًا على قرع أحدهما جرس الباب، وضرب أحد مرافقى الرجل الذي فتحه بواحدة من العصى على وجهه. ولم يكن في هذا التصرف شيء يلفت اهتمامى لأننى قد رأيت كثيرا من العامة يضربون أكثر مما تضرب الكلاب، ولكن ثاني الرجلين، لكونه غاضبًا هو الآخر، فلقد ضرب الرجل هو أيضًا بذراعه، وكانت هيئة وتصرف كل من الأخوين متشابهة كل التشابه، لدرجة أننى لأول مرة لاحظت أنهما لابد أن يكونا توأمًا.

ومنذ وقت دخولنا من بوابة المنزل الخارجية كنت أسمع صوت صرخات تنبعث من إحدى الحجرات العلوية. وسرعان ما أرشدونى إلى تلك الحجرة واتجه إليها على الفور ووجدت بداخل الحجرة شخصًا مريضًا بحمى شديدة في المخ، وكانت المريضة طريحة الفراش. وكانت امرأة فائقة الجمال في ريعان الشباب لم يتجاوز عمرها العشرين ربيعًا بكثير بكل تأكيد. وكان شعرها ممزقًا. وكان ذراعاها مربوطين بأربطة من الشاش والمناديل. ولا حظت أن هذه الأربطة إنما هي أجزاء من حلة أحد السادة. وفوق قطعة من أحد هذه الأربطة كانت لفاعًا لحلة من حلل التشريفات وجدت شارة النبلاء وبجانبها حرف E .

وقلبت المرأة على ظهرها بكل ما استطعت من لطف ورأفة ونظرت في وجهها. كانت عيناها واسعتين وحشيتين، وكانت دائمًا تطلق من فمها

صيحات تخترق الفضاء بقوة وهي تقول: زوجى، أبي وأخي! ثم تستمر في العد حتى رقم اثنى عشر ثم تقول: «صه!» وتسكت عن الصياح لحظة واحدة ثم تبدأ الصيحات تخترق الفضاء مرة أخرى وتكرر قولها: زوجي أبي، أخي، وتعد الأرقام حتى رقم اثنى عشر ثم تقول: «صه!» ولم يكن ثمة تغيير في نظام الصيحات، أو في هيئتها، ولم يكن ثمة توقف فيما عدا التوقف لمدة لحظة في إصدار هذه الصيحات. وسألت: «كم من الوقت استمرت هكذا؟» ولكن نميز بين الأخوين، سأستخدم تعبير الأخ الأكبر وتعبير الأخ الأصغر، وأعنى بتعبير الأخ الأكبر الأكثر سلطة وتوجيها للأقوال والأحداث. وكان الأخ الأكبر هو الذي أجاب عن أول أسئلتى بقوله: «منذ حوالى هذه الساعة من الليلة الماضية» وسألت: «هل لها زوج أو أب أو أخ؟» فقال الأخ الأكبر «لها أخ» وسألت: «هل لها علاقة حديثة بالرقم اثنى عشر؟» فقال الأخ الأصغر بنفاد صبر: «لها علاقة بالساعة الثانية عشرة!» وقلت: «انظر أيها السيدين كم أننى لا أستطيع أن أفعل شيئًا مفيدًا بالطريقة التي أحضرتمانى بها هنا. ولو أننى كنت أعرف ما الذي جئت لتوقيع الكشف الطبى عليه لكنت قد استطعت أن أعمل شيئًا مفيدًا أما والحال هى هذه، فالوقت يضيع سدى بدون فائدة. ولا توجد أدوية يمكن الحصول عليها في هذا المكان المنعزل» ونظر الأخ الأكبر إلى الأخ الصغر الذي قال بغطرسة: «توجد حقيبة أدوية هنا». وأحضر الحقيبة من داخل دولاب ووضعها على المنضدة. ***

«فتحت بعض الزجاجات وشممتها ووضعت سدادات الزجاجات على طرف لسانى وشفتاى. وسأل الأخ الأصغر: «هل أنت تشك في هذه الأدوية؟» فأجبت قائلًا: «أنت تدرك يا سيد أنني أريد أن أستخدمها» ولم أقل أكثر من ذلك». وجعلت المريضة تبتلع بصعوبة بالغة وبعد محاولات عديدة الجرعة التي كنت أرغب في أن أعطيها لمها من الدواء. وعندما كنت أنوى

أن أعطيها جرعة أخرى بعد فترة من الوقت، ولأنه كان من الضرورى أن أراقب مفعولها، فلقد جلست على جانب من الفراش وكنت قد جلست في ذلك الموضع لمدة نصف ساعة، والأخوان يرقبان عندما قال الأخ الأكبر: «يوجد مريض آخر». وانزعجت وسألت: «هل حالته مُلِحَّة؟»

فقال: «من الأفضل أن ترى بنفسك» ****

وكان المريض الآخر يرى في حجرة أخرى في الجزء الخلفى من المنزل وراء سلم آخر غير السلم الذي صعدنا منه إلى حجرة المريضة. وكان المكان عبارة عن مخزن في أسطبل للخيل. وكان جزء منه مسقوفًا وبقيته بدون سقف. وكانت توجد عروق من الخشب في السقف. وكان التبن والبرسيم الجاف وأنواع مختلفة من القش مخزونة في ذلك المخزن مع أخشاب معددة لإشعال النار في الأفران أو المواقد أو المدفأة، وكانت توجد بالمخزن أيضًا كمية من التفاح مدفونة في الرمال. وكان من اللازم أن أمر وأمشى بين هذه الأكوام من تلك الأشياء.. إن ذاكرتى لا يفوتها شيء من الظروف والملابسات، وأنا أكتب الآن وهذه التفاصيل موجودة في ذاكرتى بدون أي اهتراز، وأنا أرى كل هذه التفاصيل ماثلة أمامى في زنزانتى هذه بداخل سجن الباستيل قرابة انتهاء السنة العاشرة من عبوديتى هنا. إننى أرى كل هذه التفاصيل بالضبط كما رأيتها في تلك الليلة. فوق بعض القش على الأرض، وقد رميت وسادة تحت رأسه، كان يتمدد راقدًا صبى فلاح مليح الهيئة، كان فتى لم يتجاوز السابعة عشرة من العمر على أكثر تقدير. كان ينام على ظهره ويده فوق جرح في صدره وعيناه المتوهجتان تنظران إلى أعلى ولا تتحولان. وكان الجرح ناجما عن طعنة بالسيف تم توجيهها إليه من عشرين أو أربع وعشرين ساعة، ولكن كان من المستحيل أن تشفيه منها أي مهارة طبية بالغًا ما بلغت حتى لو كان قد أمكن تقديم المساعدة الطيبة

لها فور تلقيه للطعنه دوى أي تأخير. كانت حالته تنحدر بسرعة إذن نحو الوفاة. وعندما أدرت نظرى نحو الأخ الأكبر وجدته ينظر إلى أسفل نحو ذلك الفتى الجميل الهيئة الذي كانت حياته تنسل مفارقة جسده الفتىَّ، كما لو كان أحد الطيور المذبوحة أو أحد الأرانب الوحشية أو المستأنسة وليس إنسانًا بأي حال من الأحول المعتادة للإنسان. وقلت: «كيف حدث ذلك يا سيد؟» فقال الأخ الأكبر: «كلب صغير شأنه شأن كل الكلاب! عَبْدٌ من العبيد المستعبدين لكى يخدموا في أرضنا! وهو كان قد أجبر أخى أن يستل سيفه، وسقط جريحا من جراء ضربة سيف من يد أخى كأى سيد نبيل من السادة النبلاء» ولم يكن في هذا الذي قال الأخ الأكبر أي لمسة أو مسحة من الرحمة أو الأسف أو أي لمسة أو أي مسحة من الإنسانية. لقد كان غير قادر على إبداء أي مشاعر تنم عن العطف على ذلك الفتى أو الحزن لمصيره الحزن. وتحولت عينا الفتى نحوه وهو يتكلم، ثم تحولت عيناه ببطء نحوى أنا ثم قال: «أيها الطبيب، هؤلاء النبلاء متكبرون متغطرسون، ولكننا أيضًا نحن الكلاب من عامة الشعب نمتلك الكبرياء أيضًا في بعض الأحيان. إنهم يمتصون دماءنا ويسرقون عرق جهودنا ويسحقون كرامتنا ويضربوننا ويقتلوننا، وبعد هذا كله يتبقى عندنا شيء من الاعتداد بالنفس والحفاظ على الكرامة وإن كان قليلًا نادر الهور لا نستطيع إظهاره إلا في مناسبات وظروف نادرة إنها ــ هل رأيتها يا دكتور؟». وقلت للشاب المحتضر: «نعم لقد رأيتها» فقال الشاب المحتضر: «هي أختي يا دكتور كانت بنتا طيبة، وكانت مخطوبة لشاب طيب أيضًا هو أحد مستأجرى أرضه، ذلك الرجل الذي يقف إلى جوارك هناك. والرجل الآخر هو أخوه، وهو أسوأ واحد في هذه السلالة الرديئة» وكان الشاب المحتضر يستجمع كل قواه البدنية لكى يستطيع أن يتكلم ولكن روحه كان تصر بشدة على أن يواصل الكلام إصرارً

أكيدًا. وقال الشاب المحتضر: «كلنا نتعرض للسرقة البشعة على يدى هذا الرجل الذي يقف هناك. كما كان يتعرض للسرقة البشعة كل الكلاب من عامة الشعب فوق الأرض المملوكة لأولئك الكائنات البشرية الممتازة والمتميزة بين البشر، وكنا ننحدر من فقر إلى المزيد من الفقر لدرجة أن أبي كان يقول لنا إنه شيء محزن ومفزع أن نتسبب في أن يولد لنا طفل في هذا العالم، عالمنا الملىء بالفقر والبؤس الشقاء. وبالرغم من تلك المقولة يا دكتور، تزوجتأختى وتم زفافها إلى خطيبها الذي أصبح زوجها. وكان رجلًا كادحًا فقيرًا، وهي قد تزوجته لكي ترعى شئونه وتسرى عنه شقاءه، وأقاما في الكوخ الذي نسكنه، ولم يمض على زواجها أسابيع كثيرة عندما شاهدها أخو ذلك الرجل وأعجب بجمالها وطلب من زوجها أن يعيدها له - لأنه لا معنى للزواج بيننا! ولكن أختى كانت صالحة ومتمسكة بفضيلة العفاف وكرهت أخاه كراهية مثل كراهيتى له. بم أقنع الأخوان زوجها أن يفعل لكى يجعلها توافق؟ أنت تعرف يا دكتور أنه بين مزايا وحقوق أولئك النبلاء أن يربطونا في عرباتهم وأن يسوقونا. وهكذا ربطوه وساقوه. وأنت تعرف أنه من ضمن حقوقهم أن يجعلونا نسهر فوق أرضهم طوال الليل لكى نجعل نقيق الضفادع يهدأ حتى ينام النبلاء بدون إزعاج. ولقد حددوا له مكانًا يسهر فيه طوال الليل تحت الضباب، وفي الصباح كانوا يجعلونه يجر لهم العربة طول النهار. ولكنه لم يقتنع أن يفعل ما يطلبانه منه. كلا لقد رفضه رفضًا تامًا! وعندما فك وثاقه عن العربة التي كانت يجرها في ظهيرة يوم من الأيام لكى يأكل أي طعام لو كان يمتلك أي طعام يأكله تشنج اثنتى عشر مرة، مرة مع كل دقة لجرس الكنيسة ثم مات على صدر أختى».

ولم يكن شيء في قدرة البشر يمكن أن يستبقى الروح داخل جسد الشاب المحتضر سوى رغبته الملحة وتصميمه على أن يخبرنى بقصة كل

ما حاق به من الظلم والعسف والطغيان. ثم استطرد الشاب المحتضر يقول: «ثم، وبتصريح من ذلك الرجل وبمساعدته أيضًا، أخذ أخوه أختي الأرملة لكى يستمتع ويلهو بها مدة من الوقت. ورأيتها تمر بي في طريقها، وعندما عدت إلى البيت انفجر قلب أبي دون أن ينطق بكلمة واحدة من الكلام الذي كان يثقل على صدره ويملأ قلبه. وذهبت بأختى الصغرى، لأن لي أختا أخرى، إلى مكان بعيد عن متناول ذلك الرجل حيث يمكن ألا تكون مجرد لعبة بين يديه يلهو بها هي الأخرى. وبعد ذلك اقتفيت أثر ذلك الأخ إلى هنا في الليلة الماضية وتسلقت السور مثل كلب من كلاب عامة الشعب، ولكن كان سيفى في يدى ــ أين نافذة المخزن؟ كانت في مكان ما ها هنا. وكانت الحجرة مظلمة لا يستطيع أن يرى فيها أحدًا. وكانت الدنيا تضيق حوله. وأخذ يجيل النظر بحث عنى ولاحظ أن القش وغيره من الأشياء كان مبعثرًا فوق الأرض كما لو كان هناك صراع قد حدث. وسمعتنى وجرت ودخلت إلى المخزن. ودخل هو قبلها وحاول أن يرشونى ببعض النقود ثم ضربنى بالسياط، ولكننى رغم أننى من الكلاب عامة الشعب هاجمته بسيفى وجعلته يستل سيفه، حطم اللّه سيفه كل تحطيم سيفه الذي لطخه بدمى الشعبى الرخيص، سيفه الذي استله بسرعة فائقة لكي يدافع به عن نفسه وطعننى به بكل براعته في فنون استخدام السيف ومهارته في ذلك دفاعًا عن حياته» ووقع بصرى بعدئذ على بقايا حطام سيف مكسور متناثرة فوق القش، وكان ذلك السلاح سيف واحد من طبقة النبلاء. وفي مكان آخر كان سيف آخر ملقى على الأرض وكان من الواضح أنه سيف جندى بسيط من عامة الجنود. وقال الشاب المحتضر: «والآن، ارفعنى يا دكتور ارفعنى. أين هو؟» فقلت وأنا أساعد الشاب المحتضر: «إنه ليس هنا» وكنت أعتقد أنه كان يعنى الأخ الأصغر. فقال الشاب المتحضر: «إنه هو! إنه متكبر

متغطرس شأن النبلاء المتكبرين المتغطرسين. إنه يخاف أن ينظر نحوى ويرانى. أين الرجل الذي كان هنا؟ أدر وجهى نحوه» وفعلت ما طلبه منى رافعًا رأس الشاب المحتضر فوق ركبتى. ولكنه كان كما لو كان قد حصل على قوة خارقة للعادة أستطاع بها أن يقف تمامًا على قديمه، ثم قال الشاب المحتضر وهو واقف على قدميه: «أيها الماركيز، في يوم ستحاسب فيه عن كل هذه الأمور سوف أدعوك وأدعو بقية جنسك أن تدفع الحساب عنها. وأنا أرسم هذا الصليب بالدم عليك كدليل على أننى سوف أتقاضى منك ذلك الحساب. ويوم تسوى فيه كل الحسابات، وسأطالب أخاك أسوأ شخص في هذا الجنس الردىء الشرير ايضا بالحساب فيما يخصه من هذه الشرور والآثام. وأنا أرسم هذا الصليب بالدم عليه كدليل على أننى سوف أتقاضى منه ذلك الحساب». وكان الشاب المحتضر قد غمس إصبعه في الدم الموجود بالجرح الذي في صدره مرتين، وفي كل مر كان يرسم بأصبعه علامة الصليب في الهواء. وظل واقفا لحظة وأصبعه معلق في الهواء، بعد أن وافته المنية **** وعندما عدت إلى فراش المرأة التي كانت تهذى محمومة بنفس عبارات هذيانها وبنفس نظامه، عرفت أن ذلك يجوز أن يستمر لبضع ساعات ومن المحتمل أن ينتهى هذيانها عندما يتم دفنها في القبر. وكررت إعطاءها جرعات الدواء الذي كنت قد أعطيته لها من قبل وجلست بجانب الفراش حتى انقضى معظم وقت الليل. وسألنى الماركيز الذي سأظل أشير إليه باعتبار أنه الأخ الأكبر قائلا: «هل ماتت؟» وقلت: «لم تمت ولكن يبدو أنها ستموت.» فقال الأخ الاكبر: «أي قوة هذه القوى الموجودة في أجساد عامة الناس!» وأخذ ينظر إلى بكثير من حب الاستطلاع. وأجبته قائلًا: «توجد في أجسادهم قوة إلهية تظهر في أوقات الحزن أو اليأس» وضحك في البداية من قولى ذاك ثم قطب جبينه عندما أعمل ذهنه وفكر فيما كنت قد قلته. ثم

حرك أحد الكراسى بقدمه حتى أصبح قريبًا من الكرسى الذي كنت أجلس عليه وقال في صوت خافت: «يا دكتور، عندما وجدت أخى في ذلك المأزق مع أولئك الرعاع أوصيت بضرورة الاستعانة بخدماتك، إن لك سمعة طيبة. وأنت كرجل شاب يهمك أن تحصل على ثروة تخصك. وأرجو أن تهتم فقط بمصلحتك. والأمور التي شاهدتها هنا إنما هى أمور تشاهد فقط ولا يجب أن يتحدث عنها أحد» وأخذت أصيغ السمع إلى حركة الزفير والشهيق بالنسبة للمريضة متجنبا الرد عليه. وبعد برهة قال: «هل تشرفنى بأن يكون انتباهك معى أن يا دكتور؟» فقلت: «يا سيدى، في مهنتنا هذه أسرار المرضى لدينا في الحفظ والصون» ولقد كنت أحرص على الحذر كل الحذر لأن ذهنى كان مضطربا ومرتاعا من جراء ما سمعت ومن جراء ما رأيت. وكان من الصعب متابعة تردد أنفاسها لدرجة أننى انتقلت بالفحص والمتابعة إلى نبضات قلبها بكل عناية. كان في قلبها بقية من الحياة الضعيفة أضعف مما تكون الحياة، ونظرت حولى عندما ابتعدت بالكرسى الذي كنت أجلس عليه بالقرب من فراشها، ووجدت الأخوين حولى مستطلعين **** أنا أكتب الآن مصعوبة كبيرة، البرد قاس جدًا، وأنا أخاف كل الخوف من أن يكتشف أمر هذا الكلام الذي أكتبه وأخاف كل الخوف أن يتم حبسى في زنزانة تحت الأرض حالكة الظلام تمامًا ولذلك يلزمنى أن أختصر وأوجز هذه القصة. أنا لا أعانى أي ارتباك في ذاكرتى ولا تخوننى الذاكرة في أن أنسى أي شيء من التفاصيل. أنا أستطيع أن أسترجع كل التفاصيل، ولقد ذكرت التفاصيل بكل دقة، وذكرت كل كلمة دارت بينى وبين ذينك الأخوين. ظلَّتْ تصارع الموت لمدة أسبوع. وقبل أن تسلم الروح بقليل، استطعت أن أفهم بعض المقاطع القليلة التي كانت تنفوَّه بها لي عندما كنت أضع أذنى بالقرب من شفتيها. سألتنى أين هي، وأخبرتها عن المكان الذي كانت موجودة فيه، وسألتنى

من أنا، وقلت لها من أنا، ولم يكن يجدى نفعًا أن أسألها عن اسم عائلتها، وهزت رأسها بمنتهى الضعف فوق الوسادة. واحتفظت باسم عائلتها سرا كما كان أخوها الشاب قد فعل وهو يحتضر. وكلما كنت أنظر في عينى الأخ الأصغر، كان تعبيرها يُشْعُرنى أنه يكرهنى كراهية شديدة في أعماق قلبه وذلك بسبب معرفتى كل ما عرفته من الشاب المحتضر. ولا حظت أيضًا أننى كنت عقبة كأداء في ذهن الأخ الأكبر أيضًا. وماتت مريضتى بعد ساعتين من منتصف الليل. وكنت بمفردى معها عندما مال رأسها الشاب البائس اليائس بلطف على أحد الأجناب، وانتهت بذلك كل متاعبها والامها فوق الأرض. وكان الأخوان ينتظران في حجرة بالطابق الأرضى وهما يتحفزان لركوب العربة والانطلاق بها. ولقد سمعتهما منفردين يضربان أحذيتهما ذات الرقبة الطويلة بسياط الركوب وشاهدتهما وهما يمشيان جيئة وذهابًا». وقال الأخ الأكبر: «هل ماتت في النهاية؟» «فقلت ماتت». فقال وهو يستدير على عقبيه: «أقدم لك التهانى يا أخى العزيز» وكان قبل ذلك قد عرض على أن آخذ مبلغا من النقود التي كنت أؤجل استلامى لها منه. وأعطانى صرة من النقود الذهبية فأخذتها من يده ووضعتها فوق المنضدة، وفكرت في الموضوع، واستقر قرارى على ألا أخذ تلك النقود، وقلت له: «أرجوك أن تقبل عذرى. نظرًا لهذه الظروف. لا» وتبادل الأخوان النظرات، وأحنى كل منهما رأسه لي كما كنت قد أحنيت رأسى لكل منهما، وافترقنا دون أي كلمة أخرى *** أنا منهك القُّوىَ منهك القَّوىَ منهك القَّوىَ - يمزقنى البؤس والابتئاس. أنا لا أستطيع أن أقرأ ما كتبته بيدى هذه الشديدة الهزال.

وفي الصباح الباكر وجدت أن صرة النقود الذهبية كانت قد تركت أمام باب الحجرة في صندوق صغير واسمى مكتوب عليه. وكنت منذ البداية قد فكرت فيما يجب أن أفعله. كنت قد قررت في ذلك اليوم أن أكتب خطابا

شخصيا للوزير وأن أذكر في ذلك الخطاب كل الظروف. كنت أعرف مدى نفوذ رجال البلاط، وكنت أعرف مدى الحصانة التي كان يتمتع بها النبلاء ليكونوا بمنجاة من أي مساءلة أمام القضاء، وكنت أتوقع أن المسألة برمتها يمكن ألا تجد أذنا صاغية، ولكننى كنت أرغب في أن أزيح آثار تلك المحنة من داخل ضميرى ومن داخل ذهنى. وأبقيت الموضوع في سريرة نفسي ولم أبح به لأحد ولم أبح به حتى لزوجتى، وهذه الحقيقة أيضًا قررت أن أوضحها في خطابى الذي كنت مزمعًا أن أرسله إلى الوزير. وكنت مشغولا إلى حد كبير في ذلك اليوم ولم أستطع أن أكمل الخطاب في تلك الليلة. واستيقظت من النوم مبكرًا عن موعد استيقاظى لكى أكمله. وكان ذلك في اليوم الأخير من ذلك العام. وكان الخطاب موجودًا أمامى فوق المنضدة بعد أن أكملت كتابته تَوًّا عندما أخبرتُ إن إحدى السيدات كانت تنتظرنى وكانت ترغب في مقابلتى * * * * وشعرت أننى غير كفء للقيام بالعمل الذي كنت أريد أن أقوم به شعورًا كان يتزايد باستمرار. وكنت أشعر أن الجو شديد البرودة يسوده الظلام، وكانت مشاعرى متجمدة مشلولة. وكانت الكآبة المخيمة على روحى كآبة طاغية مخيفة، وكانت السيدة التي كانت تنتظر مقابلتى سيدة تلفت النظر، وكانت حسنة المظهر، ولكن لم يكن يبدو عليها أنها قد تقدم بها العمر إلى حد كبير، كانت في هم شديد وكرب عظيم يجعلها بادية القلق مهمومة. وقدمت لي نفسها باعتبار أنها هي زوجة الماركيز إفريموند. وربطت على الفور بين لقب الماركيز الذي كان الشاب المحتضر ينادى به الأخ الأكبر وبين الحرف الأول المطرز على الشال الذي كانت الفتاة مربوطة به. ولم أجد أي صعوبة في الوصول إلى استنتاج أننى كنت قد تقابلت مع ذلك الماركيز إفريموند، زوج هذه السيدة في وقت ليس بالوقت الطويل. إن ذاكرتى لا تزال قوية دقيقة في قدرتها على التذكر، ولكننى لا أستطيع

أن أكتب كل تفاصيل محادثتى مع تلك السيدة. أنا أعتقد أننى أراقب الآن مراقبة أشد من ذى قبل. وكانت تلك السيدة قد نما إلى علمها حقائق المأساة المروعة التي كانت قد حدثت في القصر الذي كانت تقيم فيه وكانت قد عرفت الدور الذي شارك به زوجها في أحداث تلك المأساة وكانت قد عرفت أيضًا دورى الذي شاركت به في خاتمة تلك الأحداث. وهي لم تكن تعرف أن البنت كانت قد ماتت. وكان أملها كما ذكرته لي في كثير من الحزن واللوعة والأسى كان ينحصر في أنها كانت تريد أن تظهر لتلك البنت، سِرًا، عطف امرأة عليها، وكانت تعتقد أنه كانت توجد لتلك البنت أخت لا تزال موجودة على قيد الحياة، وكانت أمنيتها الكبرى تتركز في أن تساعد تلك الأخت، ولم أستطع أن أخبرها أي شيء أكثر من أنه توجد أخت، وأكثر من ذلك لم أكن أعرف أي شيء. ولقد كان غرض تلك السيدة من زيارتها لي هو أملها في أننى كنت أستطيع أن أخبرها عن اسم تلك الأخت وعن مكان إقامتها بينما أنا حتى هذه الساعة من ساعات حياتى البائسة أجهل ذلك تمامًا

**** قصاصات الورق هذه لا تكاد تسعفنى فيما أريد كتابته. لقد أخذتْ منى إحدى القصاصات التي أعددتها للكتابة أمس. ويلزم أن أنتهى من تدوين هذا السجل اليوم فلأشرع في الكتابة الآن. كانت تلك السيدة التى جاءت لزيارتى سيدة طيبة متعاطفة ولم تكن سعيدة في زواجها. وكيف كان يمكن لها أن تكون سعيدة في زواجها! كان شقيق زوجها لا يثق بها وكان يكرهها. وكان كل نفوذه وكل قوته موجهين ضدها. وكانت تعيش حياتها في خوف وهلع من ناحيته كما كانت تعيش في خوف وهلع من ناحية زوجها أيضًا. وعندما نزلت معها إلى الباب، كانت عربة تقف أمام الباب، وكان بداخل العربة طفل، طفل جميل عمره سنتان أو ثلاث سنوات. وقالت السيدة وهي تشير بإصبعها نحو الطفل: «من أجل خاطره يا دكتور، أنا مستعدة أن أعمل

كل ما يمكننى عمله من التعويضات عن تلك الآثام قدر استطاعتى عن سيئات أبيه وعمه. أنا أشعر شعورًا قويًا أنه إذا لم يتم الانتقام منهما، فسيتم الانتقام منه. وكل ما أرثه أنا قليل بالإضافة إلى مجوهراتى القليلة. وسأجعل أول واجباته في الحياة هو أن يحسن إلى تلك الأسرة، ما استطاع إلى الإحسان سبيلًا لو أمكن له العثور على تلك الأخت.» وقبلت تلك السيدة طفلها وقالت وهي تهدهده. «إنه من أجل خاطرك الغالى. وأنت ستكون أمينًا رحيمًا مخلصا يا ولدى يا تشارلس. هل تعدنى بذلك؟». قال الصبى الصغير بكل شجاعة وحماسة: «نعم» وقبلت أنا يد تلك السيدة الطيبة، وأخذت السيدة ابنها بين ذراعيها ومضت ولم ارها بعد ذلك. ولما كانت قد ذكرت اسم زوجها وهي تعتقد أننى كنت أعرفه، فإننى على الرغم من ذلك لم أذكره في خطابى إلى الوزير. وأغلقت الخطاب، ولم آمن أن أضعه في يد شخص آخر، ووضعته بنفسى في البريد. وكانت تلك الليلة هي آخر ليلة في تلك السنة، وفي حوالى الساعة التاسعة كان رجل يرتدى الملابس السوداء يطرق الباب بمنزلى، وطلب أن يقابلنى، ودخل بسهولة وراء الخادم الذي كان يعمل معى، إرنست ديفارج، وهو شاب في مقتبل العمر، وصعد وراءه السلم. وعندما دخل الخادم حجرتى حيث كنت أجلس مع زوجتى – التي كنت أحبها بكل أعماق قلبى – رأينا ذلك الرجل الذي كان من المفروض أن يظل عن البوابة لا يبارحها، وكان يقف صامتًا وراء خادمى إرنست ديفارج وقال الرجل: «توجد حالة مرضية عاجلة في شارع سانت أونوريه» ولم يكن يعوقنى شيء بالنسبة لبعد المكان فقد كان مع الرجل عربة في انتظارنا. ولقد جاءت بي هنا. جاءت إلى قبرى هذا الذي دفنت فيه حيا. وعندما ابتعدت بي تلك العربة عن منزلى، ألقيت كوفية سوداء اللون على فمى من الخلف وتم ربط ذراعاى كان الأخوان قد عبرا الشارع عند منعطف مظلم وتحققا من

شخصيتى بنظرة واحدة وأخرج الماركيز الخطاب الذي كنت قد كتبته للوزير من جيبه وأرانيه وأحرقه تحت ضوء مصباح كان يحمله معه ودهس رماده تحت قدمه. ولم يتفوه أحد بكلمة واحدة. وتم إحضارى هنا، أُحضِرْتُ إلى قبرى وأنا لا أزال على قيد الحياة ولو اقتضت مشيئة اللَّه أن يضع في القلب القاسى الموجود بين ضلوع أحد الأخوين في هذه السنوات القسية الرحمة بحيث يطلعنى على أي أخبار عن زوجتى الغالية ويكفى أن يجعلنى أعرف ولو بمجرد كلمة ما إذا كانت حية أو ميتة، لو حدث ذلك سأعرف أن اللَّه لم يحرمنى تمامًا من رحمته. ولكننى الآن أعتقد أن علامة الصليب الأحمر هي إشارة تقضى عليهما بالهلاك ولا نصيب لأي من ذينك الأخوين في جزء من رحمة اللَّه، هما وكل ذرية توجد على قيد الحياة لأي منهما، حتى ينقرض من الجنس الذي انحدر منه ذينك الأخوين الآثمين. إننى أنا، ألكساندر مانيت، السجين التعِيسُ الشقِيُّ، أصب عليهما اللعنات وفي كل زمان ومكان في هذه الليلة الأخيرة من سنة 1767، وأنا أقاسى من العذاب الذي يفوق الاحتمال، أصب عليهما اللعنات عندما يحين وقت حساب كل منها عن الذنوب التي اقترفاها، وأنا أشكوهما إلى السماء والأرض».

وبعد الفراغ من قرأة الورقة، ارتفعت في قاعة الجلسة أصوات رهيبة، أصوات تتوسل، وأصوات تتعجل، وكلها أصوات لم تخل من المطالبة بالدم الذي لزم سفحه في مقابل الدم الذي تم في عهود الطغيان سفحه. وطالب الشخص الذي قرأ الورقة بأقصى عقوبات الانتقام التي عرفها الزمان، ولا يوجد رأس أي إنسان فوق أرض الدولة يحق له أن يفلت من الانتقام.

ولا حاجة إلى القول أثناء تلك المحاكمة كيف كانت عائلة ديفارج لم تُذِعْ على الناس نبأ تلك الورقة مع الآثار الكثيرة الأخرى التي كان قد ثم العقور عليها من وثائق عهد طغيان النبلاء عندما تم الاستيلاء على سجن

الباستيل واحتفظ السيد والسيدة ديفارج بتلك الورقة مترقبين أن يجود عليهما الزمان بوقت مناسب لإظهارها. ولا حاجة إلى القول إن اسم عائلة إفريموند كان اسما لعائلة ملعونة أبشع اللعنات في حى سانت انطوان وكان مكتوبًا في سجل المطلوب إعدامهم الذي كانت تطرزه مدام ديفارج بكل دأب وبكل إصرار. ولقد كان الرجل، إعدامهم الذي كانت تطرزه مدام ديفارج بكل دأب وبكل إصرار. ولقد كان الرجل، تشارلس دارنى، لم تطأ قدمه أرض تلك المظالم وكانت فضائله تكفى ألا يقف ذلك الموقف في ذلك اليوم، وكانت فضائله تكفى لتدفع عنه مثل ذلك الاتهام. وبالرغم من ذلك ها هى ذي مدام ديفارج تهمس في أذن جارتهم السيدة فينجانس قائلة لها بكل غلٍ وبكل تشفٍ وهي تبتسم ابتسام الفائزة المنتصرة: «نفوذ طاغ يمتلكه ذلك الطبيب ويحيط بشخصيته من كل جانب. أنقذه الآن يا عزيزى المواطن الطبيب، انقذه وإن استطعت إلى إنقاذه سبيلًا!» وأدلى كل واحد من المحلفين بصوته، وفي أعقاب إدلاء كل واحد منهم بصوته كان الزئير الجماهيرى يعلو. ويدلى محلف آخر بصوته، ويعلو الزئير الجماهيرى ويعلو، ويعلو، ويعلو. وتم التصويت بالإجماع وبدون أن يعارض في الحكم صوت محلف واحد. كان تشارلس دارنى قلبا وقالبا من حيث شخصه ومن حيث سلالته التي انحدر منها عَدُوًّا للجمهورية، وعدوا ظالمًا مستبدا لأبناء فرنسا. يعاد إلى السجن، محكوما عليه بالإعدام خلال أربع وعشرين ساعة!

وهكذا تم الحكم على الزوجة المسكينة لذلك الرجل البرىء أن تموت هي الأخرى، وانهارت لوسى تحت سنابك حكم طاغٍ باغٍ ظالم كما لو كان الموت قد أناخ عليها بكلكله. ولكن لم تفلت بين شفتيها بادئ ذى بدء أي صوت. وكان صوت صامت النبرات يدوى داخل نفسها معلنة لها أنها هى وحدها من بين كل البشر في هذه الدنيا المرأة التي يجب أن تخفف بؤسه ولا

ينبغى أن تضيف إلى بؤسه المزيد من البؤس لدرجة أنها أنهضت نفسها من كبوة الصدمة القاسية. وكان القضاة قد شاركوا لجمهور في مناقشات عامة صاخبة خارج قاعة الجلسة. ولم تكن حركات إخلاء القاعة من الجمهور تتوقف حتى وقفت لوسى على قدميها، وأشرعت ذراعيها ممدوتين أمامها إلى أقصى مدى واندفعت نحو زوجها ولا شيء من المعانى يبدو على قسمات وجهها سوى معنى واحد هو الحب ومعنى ثان هو العزاء. وصاحت لوسى في لوعة وأسى تقول: «ألا يجوز لي، أنا زوجته، أن ألمسه؟! ألا يجوز لى، أنا زوجته أن أحتضنه وأن أقبّله ولو قبلة واحدة أيها المواطنون لو كان لديكم أي ذرة من التعاطف معنا؟!». ولم يكن قد بقى أحد بداخل قاعة الجلسة إلا رئيس حرس السجن ومعه اثنان من الجنود الأربعة الذين كانوا قد ألقوا القبض معه على تشارلس دارنى في الليلة الماضية. وقال أحدهم: «دعوها تقبله إذن. إنها مجرد لحظة» وسمحوا لها في صمت أنت تقترب منه بالقرب من مكان مرتفع ليتمكن زوجها وهو داخل القفص أن يطوى ذراعيه حولها.

«وداعا، يا أعز الأعزاء على نفسى. ولتتنزل بركات وداعى لهذه الحياة على حبى، سنلتقى مرة أخرى عندما سيحل الهناء محل الشقاء.» كانت تلك هى كلمات زوجها إليها وهو يضمها إلى صدره. وكانت كلماتها هي تقول له: «إننى أستطيع أن أحتملها يا تشارلس. يصلنى العَوْن على ذلك من فوق. لا تتألم من أجلى. ولتحل بركات وداعنا هذا على ابنتنا.» فقال دارنى: «أنا أرسل إلى ابنتنا البركات من خلالك أنت. أنا أقبِّلُ ابنتنا في شخصك أنت. أنا أقول لها وداعا وأنا أقول لك وداعا».

وكان أبوها يقف وراءها، وكان على وشك أن يجثو على ركبتيه أمامهما لولا أن أسرع دارنى ومد يده وأمسك به وهو يصرخ به قائلًا له: «لا، لا، ما

هذا الذي تريد أن تفعله؟ هل تريد أن تركع لنا؟! نحن نعرف الآن الكفاح الذي كافحته وناضلت من أجله في الماضى. نحن نعرف الآن كل ما تحملت آلامه في صمت وصمود وأنت تعرف جرائم أبي وعمى. نحن نعرف الآن كل ما كافحت وناضلت وحاربت ضده وانتصرت عليه من أجل ابنتك. ونحن نشكرك. يشكرك كل منا من صميم قلبه. ولتكن السماء معك!»
وكان رد الفعل الوحيد الذي صدر عن الدكتور مانيت هو أن وضع أصابع يديه في شعره الأبيض الطويل ثم اعتصرهما وهو ينشج من فرط العذاب الذي يكابده. وقال السجين المحكوم عليه بالإعدام مواسيا ومشجعًا: «لم يكن من الممكن أن يحدث غير هذا الذي قد حدث. تضافرت وتشابكت وتلاحمت كل الأمور وكل الظروف وحدثت كل الأحداث كما حدثت، ووقعت كل الوقائع كما وقعت. ولقد كانت كل الجهود عديمة الجدوى في تفادى ما تنبأت به أمى المسكينة عندما جعلتنى أقترب منك لأول مرة عند زيارتها لك وكان عمرى آنذاك لا يزيد على عامين أو ثلاثة أعوام كما كتبت أنت بنفسك فيما كتبت وأنت في سجن الباستيل. ويستحيل أن تنبت بذور الخير في أرض جدباء مثل أرض أجدادى النبلاء. ومن المستحيل أن توجد نهاية سعيدة لبداية تعيسة. طب نفسا، وسامحنى. باركتك السماء!».

وسحبوه. وتخلت زوجته عن التشبث به، ووقفت ساكنة حراك تنظر إليه ويداها متلاصقتان في وضع من تؤدى الصلاة في صمت وخشوع، وفوق وجهها يتألق نوع من نور المهابة والجمال والوقار له إشعاع قوى باهر جبار لدرجة أنه قد تألقت فوق شفتيها أيضًا ابتسامة تدل على الراحة وتدل على ما شاع في نفسها من هدوء واستقار. وعندما غادر القاعة نهائيًا واحتواه باب مخصص للخروج بالمحكوم عليه بالإعدام، استدارت لوسى ووضعت

رأسها بكل حب وحنان على صدر أبيها، وحاولت في البداية أن تتكلم إليه وتقول له شيئًا ما، ولكنها لم تتكلم ونزلت برأسها عند قدمى أبيها.

ثم انسل سيدنى كارتون مندفعا من ركن مظلم لم يكن قد تحرك منه من قبل قيد أنملة، وأنهضها ولم يكن هنالك إلا أبوها والسيد لورى. واهتز ذراع سيدنى كارتون مرتعشًا وهو ينهضها ويرفع راسها. وبالرغم من ذلك كان يحوط به مظهر لم يكن فحسب مظهر إنسان يبدى الشفقة والحنو فحسب- ولكنه كان مظهرًا يشع منه ويشيع فيه الشعور بكل الكبرياء والاعتزاز بالنفس أيضًا.

وقال كارتون: «هل لي أن أحملها إلى العربة؟ إننى لن أشعر أبدًا بأي ثقل لجسمها» وحملها كما يحمل أخف الأحمال متجها بها نحو الباب، ووضعها بكل لطف وحنان في إحدى العربات. وركب بجوارها أبوها وصديقهما القديم لورى، واتخذ سيدنى كارتون لنفسه مقعدًا بجوار السائق. وعندما وصلوا إلى بوابة المنزل حيث كان كارتون قد توقف عن المشى أثناء الليل بعد نزوله من ذلك البيت منذ ساعات ليست بالكثيرة لكى يتخيل مواطئ قديمها فوق الأحجار الصلدة، حملها دارنى صاعدًا بها درجات سلم منزلها إلى الحجرة التي كانت تقيم بها، وهناك أرقدها على إحدى الأرائك حيث بدأت ابنتها والآنسة بروس يبكيان حولها. وقال كارتون للآنسة بروس: «لا توقظوها من الإغماء. إنها في حالة أفضل وهي في حالة الإغماء. لا توقظوها حتى تستيقظ هى من تلقاء نفسها». وصاحت ابنتها لوسى الصغيرة قائلة: «أوه يا كارتون، يا كارتون. أيها الإنسان العزيز علينا كارتون! أما وقد حضرت عندنا هنا، فأنا أعتقد أنك ستفعل شيئًا ما لكى تساعد ماما، وستعمل شيئًا لكى تساعد بابا! أوه، انظر هنا يا عزيزى كارتون! هل تستطيع أنت، وأنت بالذات من بين كل الناس أن تتحمل أن تراها هكذا؟» وانحنى كارتون

على الطفلة، ووضع خدها المتوهج على وهجه، ثم نحاها جانبًا، ونظر إلى أمها الغائبة عن الوعى ثم قال: «قبل أن أذهب – ألا يجوز لى أن أقبلها قبلة واحدة؟ ولقد ذكر فيما بعد أنه عندما انحنى عليها ولمس وجهها بشفتيه أنه كان قد قال بعض الكلمات همسًا. وقالت لهم الطفلة التي كانت تقف في مكان أقرب ما يكون إليه إنها كانت قد سمعته يهمس قائلًا: «الحياة التي تحبينها لتبقى بجانبك».

وعندما خرج كارتون من حجرتها وذهب إلى الحجرة المجاورة، التفت فجأة إلى روى وأبيها اللذين كانا يمشيان وراءه وقال لأبيها: «كان لك نفوذ عظيم، ولكن كان ذلك بالأمس وليس اليوم يا دكتور مانيت. دعنا على الأقل نوضع موضع الاختبار. كل أولئك القضاة وكل رجل السلطة علاقتهم ودية معك، وهم يعرفون خدماتك جيدًا، أليس كذلك؟» فقال الدكتور مانيت: «لا شيء يتعلق بزوج ابنتى تشارلس أخفاه أحد عنى. ولقد حصلت على أقوى التأكيدات على أنه سيتسنى لي أن أنقذه. ولقد أنقذته؟» وكان هذا الرد الذي أدلى به قد أدلى به وهو متوتر كل التوتر وبمنتهى البطء. فقال كارتون: «حاول مرة أخرى معهم. الساعات بينن وبين ظهيرة الغد ساعات قليلة قصيرة، ولكن حاول» فقال كارتون: «حسنا، لقد رأيت العزيمة القوية كما هو الشأن بالنسبة لعزيمتك تنجز أكبر إنجاز قبل الآن!» وتنهد مبتسمًا وهو يردف قائلًا: «أكبر إنجاز مثل هذا الإنجاز. ولكن حاول!» فقال الدكتور مانيت: «سأذهب إلى النائب العام وإلى الرئيس مباشرة، وسأذهب إلى آخرين ليس من المناسب أن أذكرهم. وسأكتب العرائض والالتماسات أيضًا ولكن لا تخرج الآن، توجد احتفالات ومظاهرات بالشوارع، ولن يتمكن أحد من المشى في الشارع حتى يخيم الظلام».

وقال كارتون: «نعم، صحيح، حسنا، إنه أمل واهٍ ضعيف في أحسن الحالات وهو ليس أقل ضعفا من أن أتأخر في الانصراف حتى يحل الظلام. والسؤال المهم بالنسبة لي الآن هو: هل لو أنني ذهبت عند السيد لورى في البنك، فهل أستطيع أن أسمع منه أخبار ما قد فعلته سواء كان ذلك من صديقنا لورى أو منك شخصيًا؟» فقال الدكتور مانيت: «نعم» فقال كارتون: «أدعو لك بالتوفيق».

واصطحب لورى السيد كارتون إلى الباب ولمس لورى بيده كتف كارتون وهو يهم بالانصراف مما جعل كارتون يستدير لكى يواجهه فقال لورى: «ليس عندى أي أمل» وقال كارتون: «ولا أنا» فقال لورى: «لو كان أي رجل من أولئك الرجال الذين يعول على نفوذهم الدكتور مانيت أو أي رجال آخرين يستطيعون أن ينقذوه - وهو افتراض فضافض، إذ ماذا تعنيه حياته أو حياة أي رجل بالنسبة لهم!- فأنا أشك في أن تكون لديهم الجرأة على أن ينقذوه بعد صدور الحكم ضده في المحكمة» فقال كارتون: وأنا أيضًا أعتقد ذلك. لقد سمعت صوت سكين المقصلة وأنا أسمع ذلك الحكم بالإعدام يصدر ضده» ووضع لورى ذراعه على خشب إطار الباب ووضع رأسه فوق ذراعه. وقال كارتون «لا تيأس، ولا تحزن. أنا أشجع الدكتور مانيت بالنسبة إلى هذه الفكرة، لأننى أعتقد أن جهوده هذه ستكون عزاء لها في يوم من الأيام القادمة» فقال لورى: «نعم، نعم، نعم. أنت على صواب في هذا ولكنه سيهلك. لاي وجد أمل حقيقى». فقال دارنى : «نعم، سيتم الإعدام. لا يوجد أمل حقيقى». فقال دارنى: «نعم، سيتم الإعدام. لا يوجد أمل حقيقى» ومضى كارتون يهبط درجات السلم مع رجع صدى كلماته تدوى في أعماق لورى.

الفصل التاسع عشر

ظلام

Darkness

وتوقف سيدنى كارتون عن المشى في الشارع وهو لا يستطيع أن يحدد تحديدا قاطعًا أين يتوجه في سيره. وقال في نفسه: «سأكون في بنك تلسون في الساعة التاسعة مساء». ثم قال لنفسه وقد بدت على قسمات وجهه علامات التفكير العميق: «هل سأتصرف بطريقة جيدة في الوقت المناسب؟ أنا أعتقد ذلك. من الأفضل أن يعرف اولئك الناس أن رجلًا مثلى موجود هنا. هذا احتياط مناسب ومن الممكن أن أستعد أستعدادًا ضروريا. ومن الأفضل أن يعرف أولئك الناس أن رجلا مثلى موجود هنا.» ثم أدار سيدنى كارتون وجهه صوب حى سانت أنطوان.

ولقد كان ديفارج قد وصف نفسه في ذلك اليوم أنه صاحب محل لبيع النبيذ في حى سانت أنطوان. ولم يكن من الصعب على رجل يعرف معالم المدينة جيدًا أن يعثر على منزله دون أن يسأل أي سؤال. وبعد أن وصل إلى موقعه مشى كارتون في تلك الشوارع القريبة منه مرة أخرى. وتناول عشاءه في محل من المحلات التي تقدم الخدمات الترفيهية ونام نوما عميقا بعد أن تناول وجبة العشاء. ولأول مرة منذ سنوات كثيرة لم يشرب مشروبًا كحوليا

شديد التأثير. ومنذ الليلة الماضية لم يكن قد شرب إلا كوبًا صغيرًا من النبيذ، وفي الليلة الماضية كان قد سكب البراندى فوق نيران مدفأة لورى كرجل كان قد قرر الإقلاع عن عادة الشرب السيئة.

وكانت الساعة قد بلغت الساعة السابعة عندما صحا من النوم منتعشا وخرج يمشى في الشوارع مرة أخرى. وبينما كان يقترب من حى سانت أنطوان توقف أمام واجهة أحد المحلات الزجاجية حيث كانت توجد بها مرآة وقام بتصحيح وضع رباط عنقه، وياقة معطفة، وأعاد تصفيف شعره الذي كان مهوشا. وعندما أنجز كل ذلك مضى مباشرة إلى محل ديفارج ودخل إلى المحل.

وتصادف أنه لم يوجد بداخل المحل أي زبائن فيما عدا جاك ثلاثة. هذا الرجل كان واقفًا يشرب بجوار المكتب الصغير وهو يتحدث إلى ديفارج وزوجته. وكانت المرأة فينجانس تشترك أيضًا في المحادثة شأنها شأن أي فرد من أفراد العائلة الواحدة.

وعندما دخل كارتون المحل، اتخذ لنفسه مقعدًا وطلب قدرًا ضئيلًا من النبيذ مستخدما لغة فرنسية ضعيفة ركيكة التكوين، ورمقته مدام ديفارج بنظرة ليس فيها أي أكتراث، ثم نظرت إليه باهتمام أكثر، ثم نظرت إليه مرة ثالثة باهتمام أكثر وأكثر ثم تقدمت نحوه بنفسها وسألته عما كان قد طلبه. وكرر كارتون ما كان قد سبق له قوله فقالت: «هل أنت إنجليزى؟» ورفعت حاجبيها بكل ما فيهما من الشعر الغزيز مستفهمة. وبعد أن نظر إليها وملامح

وجهه تدل على أنه لا يكاد يفهم معنى أي كلمة فرنسية قال لها ما معناه: «نعم يا مدام، نعم، أنا إنجليزى!».

وعادت مدام ديفارج إلى مكتبها لتحضر له النبيذ وبينما كان يفرد صفحات صحيفة من الصحف التي كان يصدرها اليعاقبة ويجتهد في أن يفقه معنى ما يقرأ فيها، سمعها كارتون تقول: «أقسم لكم أنه يشبه إفريموند!».

وقدم له ديفارج المشروب بنفسه وهو يقول له: «طاب مساؤك». فقال كارتون: «كيف؟» فقال ديفارج «طاب مسؤك» فقال كارتون وهو يملأ كأسه: «أوه، طاب مساؤك أيها المواطن. آه، هذا نبيذ جيد. أنا أشرب نخب تحية للجمهورية».

وعاد ديفارج إلى المكتب وقال: «بالتأكيد يوجد شبه قليل» وقالت زوجته معترضة: «أقول لك إنه يوجد شبه كبير» فقال جاك ثلاثة: «إن إفريموند يضغط بشدة على ذهنك. ضعى هذا في اعتبارك يا مدام». وقالت المرأة فينجانس وهي تضحك: «نعم يا حبى! وانت ترغبين بكل سرور في أن تشاهديه وهو يحاكم مرة أخرى غدًا».

واستمر كارتون يتابع السطور والكلمات في الصحيفة بتحريك إصبعه ببطء من كلمة إلى أخرى. وكانوا كلهم يتكئون بمرافق سواعدهم على المكتب وقد تقاربت رؤوسهم، وكانوا يتكلمون بصوت منخفض. وبعد صمت استمر بضع دقائق كانوا خلالها ينظرون نحوه محاولين ألا يلفتوا انتباهه عن الانهماك في مطالعة صحيفته وقراءة المقالة الافتتاحية بها مع ضعف لغته الفرنسية استمروا في محادثتهم.

وقال جاك ثلاثة: «ما تقوله مدام ديفارج صحيح. لماذا نتوقف عن اتخاذ تصرف؟ توجد خطورة كبيرة في هذا. لماذا نتوقف؟» وقال السيد ديفارج برزانة: «حسنًا، حسنًا، ولكن يجب أن يتوقف الإنسان في مكان من الأماكن. وفي النهاية يظل السؤال هو السؤال وهو: أين يتوقف؟» وقالت زوجته: «عندما يتم الإعدام» وقال جاك ثلاثة: «هذا شيء عظيم». ووافقته على ذلك المرأة فينجانس كل الموافقة. وقال ديفارج: «الإعدام معتقد جيد يا زوجتى. وعموما، أنا لا أقول في معارضته أي شيء. ولكن هذا الطبيب قد قاسى كثيرًا. لقد شاهدته اليوم. ولقد كنت تراقبين وجهه! نعم لقد اقبت وجهه. ولقد لاحظت أن وجهه لا يمكن أن يكون وجه صديق للجمهورية الفرنسية. أنصحه أن يحذر على وجهه!» فقال ديفارج في محاولة للتهدئة من غضبها: «وأنت قد لاحظت يا زوجتى لوعة وآلام ابنته التي يلزم أنها قد آلمته كثيرًا!» فقالت زوجته: «لقد راقبت ابنته، نعم، راقبت ابنته أكثر من مرة. وراقبتها اليوم، وراقبتها في أيام سابقة. راقبتها في المحكمة. وراقبتها في الشارع المجاور للسجن. ويكفى أن أرفع إصبعى-» ويبدو أنها كانت قد رفعت إصبعها آنذاك إذ كانت عينا كارتون الذي كان يتسمع الكلام دائمًا فوق سطور الصحيفة. واستمرت مدام ديفارج تقول: «ويكفى أن أرفع إصبعى وأن أخفضه لتجد أمامها محنة أخرى كما لو كانت سكين المقصلة ستعمل عملها من جديد. وبالنسبة لك أنت، لو كنت في هذه المسألة أعتمد عليك، فأنت لن تنقذ هذا الرجل حتى الآن» فقال ديفارج معترضًا: «لا! أنت لن تفعلى ذلك مهما تحاولين. يلزم أن تقف الأمور عند هذا الحد. أنا أقول فلنقف عند هذا الحد». وقالت مدام ديفارج: «انظر أنت إذن يا جاك. وانظرى أنت

أيضًا يا صغيرتى فينجانس، انظرا أنتما الاثنان! وأصغيا! لقد سجلت أسماء أفراد ذلك الجنس من الطغاة الظالمين في السجل الموجود عندى ومحكوم عليهم جميعًا بالهلاك. اسألا زوجى: هل هذا صحيح؟» فقال ديفارج قبل أن يسألاه «هذا صحيح» وقالت مدام ديفارج: «في بداية تلك الأيام العظيمة عند سقوط الباستيل، عثر زوجى على تلك الورقة التي قرئت في المحكمة. وعندما كان قد أحضرها إلى هنا، وفي منتصف تلك الليلة، وعندما كان هذا الحل مغلقا، قرأناها سويا بالقرب من نور هذا المصابح. اسألاه، أليس هذا صحيحًا؟» وقال ديفارج: «هذا صحيح» وقالت مدام ديفارج: «في تلك الليلة أخبرته أننى عندى سر أحتفظ به لنفسى. اسألاه أليس هذا صحيحًا؟» وقال ديفارج: «هذا صحيح» فقالت مدام ديفارج: «أنا أخبره الآن حقيقة هذا السر. يا ديفارج. لقد ترتبيت أنا بالقرب من شاطئ البحر، وعائلة الفلاحين التي تعرض أفرادها لذلك الأذى الفظيع الذي كان قد اقترفه الأخوان إفريموند هم أفراد أسرتى. يا ديفارج، أخت ذلك الشاب المجروح جرحا مميتا ويلفظ أنفاسه الأخيرة على الأرض هي أنا، وذلك الزوج الذي مات مقهورًا هو زوج أختى وذلك الأخ الذي مات جريحا هو أخى. وذلك الأب هو أبي وتلك الأخت التي ماتت حزنية مقهورة هي أختى، أولك المصروعين كانوا قتلاى. وأنا التي أناط بىَّ القدر أن أطالب أولئك الطغاة أن يدفعوا حساب طغيانهم. أسألاه: هل هذا صحيح؟» ووافق ديفارج» مرة أخرى وقال: «هذا صحيح». فقالت مدام ديفارج: «إذن، سل الريح أين يقف، وسل النار أين تقف، ولا تسلنى أين سأتوقف».

وبدأ زبائن المحل يدخلون إلى المحل، وتفرقت المجموعة. ودفع الزبون الإنجليزى ثمن ما قدم إليه، وقام بإحصاء باقى نقوده، وكأى شخص أجنبى عن البلاد سأل أين يوجد القصر الجمهورى. وطلب من الموجودين بالمحل أن يوجهوه إليه. ثم مضى في الطريق الذي شرحوه له، وسرعان ما ابتلعه ظلام الليل. وفي الساعة المتفق عليها ذهب إلى مسكن السيد لورى مرة أخرى حيث وجد الرجل العجوز يمسى جيئة وذهابًا في قلق مضن. وقال لورى أنه كان موجودًا مع لوسى حتى حان موعد لقائه مع كارتون بمسكنه الذي وصل إليه منذ بضع دقائق فقط لكى يكون موجودًا في الموعد المتفق عليه. ولم يظهر أي أثر لأبيها منذ غادر مقر البنك في الساعة الرابعة. وانتظر السيد لورى حتى الساعةً العاشرة، ولكن الدكتور مانيت لم يعد، وإذا كان لا يريد أن يترك لوسى بمفردها فلقد استقر الرأى على أن يعود إليها بعد أن ينتهى من مهامه في البنك عند منتصف الليل، وفي نفس الوقت يمكن للسيد كارتون أن سينتظر بالقرب من المدفأة عودة الدكتور مانيت.

وانتظر كارتون وطال انتظاره حتى بلغت الساعة الثانية عشرة، ولم يعد الدكتور مانيت. وعاد لورى ولم يجد أي أخبار عنه، ولم يحصل لورى على أي خبر جديد من أي مصدر آخر. أين يمكن أن يوجد الدكتور مانيت؟ وكان كل من كارتون ولورى يتناقشان في هذه المسألة وكانا يبنيان الآمال الضعيفة على طول غيابه عندما سمعا وقع أقدام الدكتور مانيت على درجات السلم. ولحظة أن دخل الحجرة كان من الواضح أن كل أمل قد ضاع واختفى ولم يبق له أي أثر.

وعندما وقف الدكتور مانيت في الحجرة ينظر إليهما لم يوجه أحدهما له أي سؤال. أنبأتهم ملامح وجهه كل شيء. وقال الدكتور مانيت: «أنا لا أستطيع أن أعثر عليها. يلزم أن أحصل عليها. اين هى؟» وكان رأسه خاويا من أي شيء وكانت حنجرته أيضًا خاوية، وعندما قال تلك الكلمات ونظراته تتجول عاجزة عن إبصار أي شيء وإدراك ماهيته، خلع معطفه وتركه يسقط بجواره على الأرض ثم قال: «أين المقعد الذي أصنع الأحذية وأنا جالس عليه؟ لقد كنت أبحث في كل مكان عن مقعدى ولا أستطيع أن أعثر عليه. ماذا فعلوا بكل ما عملت؟ الوقت يمر: يلزم أن أتم العمل في هذا الزوج من الأحذية» ضاع الدكتور مانيت. ضاع كل الضياع: ولم يكن من المأمول إحراز أي نجاح في مناقشته أو إعادته إلى صوابه. ووضع كل منهما يده على كتف الدكتور مانيت من تلقاء نفسه كما لو كانا قد اتفقا على ذلك، ولاطفوه لكى يجلس أمام المدفأة، ووعداه أن يحصل على عمله ولوازمه في أقرب وقت. وغاص في مقعده وأخذ ينظر بثبات في نيران المدفأة ويبكى. وبدا الأمر كما لو كان كل ما حدث منذ الوقت الذي كان الدكتور مانيت موجودًا أثناءه في ذلك المخزن فوق محل ديفارج كان مجرد لحظة خيالية أو مجرد حلم مضى في غياهب النسيان، ورآه لورى تنكمش ملامحه لكى يتحول مظهره كله مثل نفس مظهره عندما كان موجودًا تحت رعاية ديفارج. وكان كارتون هو أول من تكلم فقال: «ضاعت آخر فرصة، ولم تكن تلك الفرصة فرصة كبيرة. من الأفضل أن يذهب عند ابنته. ولكن، وقبل أن تذهب، هل تتفضل يا سيدى لورى بأن تصغى جيدًا إلى ما سأقوله لك؟ ولا تسلنى لماذا أعمل الترتيبات التي سأعملها وأريدك أن تعدنى أن تفعل ما أطلبه منك بالضبط. أنا عندى

الأسباب التي تحتم ذلك، وهي أسباب قوية» فقال لورى: «أنا لا أشك في ذلك. استمر وأكمل كلامك».

وكان الهيكل البدنى الموجود أمامهما طوال الوقت يؤرجح بدنه للأمام وللوراء بطريقة آلية رتيبة وهو يئن، وكانا يتكلمان كما لو كان شخصان يتكلمان بجوار فراش أحد المرضى أثناء الليل.

وانحنى كارتون والتقط المعطف من فوق الأرض عند قدميه. وعندما فعل ذلك سقطت حافظة صغيرة كان الدكتور مانيت يكتب فيها مواعيد وعنوانين الحالات التي تحتاج إلى خدماته ووقعت الحافظة فوق الأرض. والتقطها كارتون، وكان بداخلها ورقة مطوية. وقال كارتون: «يجب أن نفحص هذه الورقة» وأومأ له لورى برأسه موافقًا على ذلك. وفتح كارتون الورقة وصاح قائلًا: «شكرًا للَّه!» فقال لورى بشغف: «ماذا بها؟» فقال كارتون «انتظر لحظة. دعنى أتكلم عن ذلك في الموضع المناسب من كلامى أولًا. ووضع كارتون يده في جيب معطفه وأخرج ورقة أخرى ثم استطرد قائلًا: «هذا هو التصريح الذي يمكننى أنا سيدنى كارتون من الخروج من هذه المدينة. انظر إليه. مكتوب فيه كما ترى: سيدنى كارتون، رجل إنجليزى». وتناول منه لورى التصريح وحملق فيه فقال له كارتون: «احتفظ لي بهذا التصريح حتى الغد. سأرى هذا التصريح معك غدًا. تذكر ذلك. وليس من المفيد أن آخذه معى إلى السجن» وقال لورى: «ولماذا لا تأخذه؟» فقال كارتون: «أنا لا أعرف السبب. أفضل ألا آخذ هذا التصريح معى إلى السجن. وخذ هذه الورقة التي كان يحملها الدكتور مانيت معه. إنها عبارة عن تصريح ماثل

بمغادرة مدينة باريس له ولا بنته ولا بنتها في أي وقت بمغادرة باريس. وبمغادرة فرنسا كلها والخروج من الحدود. هل تراه؟» فقال لورى: «نعم». فقال كارتون: «ضع التصريح الخاص بالدكتور مانيت وأسرته مع التصريح الخاص بي مع التصريح الخاص بك، والآن أصغ إلى جيدًا. ما أقوله مهم عندما ستحتاج إليه، وستحتاج إليه في القريب العاجل، وعندى سبب قوى للاعتقاد بأن ذلك سيحدث فعلًا». فقال لورى: «هل تريد أن تقول إن الدكتور مانيت وابنته في خطر. ليس هذا معقولًا؟» فقال كارتون: «إنهم في خطر كبير داهم. إنهم معرضون لخطر أن تتهمهم مدام ديفارج ثم تحكم عليهم بالإعدام. لقد عرفت هذه الحقيقة من شفتى مدام ديفارج نفسها. لقد استرقت السمع إلى كلام هذه المرأة بنفسى الليلة وهو ما جعلنى أرى الخطر المحيق بالدكتور مانيت وابنته بألوانه القوية الصارخة الصريحة. ولم أشِعْ أي وقت منذ تلك اللحظة. قابلت الجاسوس. وهو متفق معى على ما أطلبه وأريده منه. إنه يعرف ذلك الرجل صاحب دكان قطع الأخشاب الموجود بجوار جدار السجن، وهذا الرجل يخضع تمامًا لسيطرة مدام ديفارج، ولقد حرضته مدام ديفارج على أن يستعد للشهادة بأنه كان يشاهدها، يشاهد لوسى مانيت، دون أن يذكر اسمها. وهي تقوم بعمل إشارات وتلميحات للمساجين داخل السجن. ومن السهل أن تلاحظ أن الادعاء ادعاء عام من الادعاءات الشائعة الاستخدام في المحاكم هنا، ولكنه يكفى لسحق حياتها، وربما حياة ابنتها أيضًا، وربما حياة أبيها أيضًا لأنهما كانا يشاهدان معها في بعض الأحيان في ذلك المكان. لا ترتعد هكذا أنت ستنقذهم جميعًا». وقال لورى: «أرجو أن تساعدنى السماء في ذلك يا كرتون! ولكن كيف؟» فقال

كارتون: «سأخبرك كيف ستتمكن من إنقاذهم. إنقاذهم يعتمد بالفعل عليك أنت، ولا يعتمد على أحد أفضل منك. هذا الاتهام الجديد لن يتم توجيهه حتى بعد غد. وأنت معك النقود، وأنت تستطيع أن تشترى أو تستأجر وسائل الانتقال إلى شاطئ البحر بكل سهولة بأسرع ما يمكن أن يكون ذلك. إن الأشياء اللازمة للسفر معدة جاهزة، وتستطيع العودة بهم إلى إنجلترا في غضون أيام قليلة. اجعل جيادك جاهزة للسفر اعتبارًا من الصباح الباكر غدا، لكي تبدأ في التحرك في الساعة الثانية ظهرًا». فقال لورى: «سأفعل ذلك!» وكانت لهجة كارتون مفعمة بالصدق والحماس لدرجة أن عدوى الصدق والحماس كانت قد انتقلت إلى لورى أيضًا وجعلته يصبح متحمسًا في كل شيء حماسة الشباب.

وقال كارتون: «قلبك إنما هو قلب رجل نبيل. هل أنا قلت لك أننا لا نستطيع الاعتماد على رجل أفضل منك؟ أخبرها الليلة عن كل ما عرفته أنت عن الخطر الذي يتهددها ويتهدد طفلتها ويتهدد أباها. وركز الاهتمام على هذا الاعتبار تركيزًا شديدًا، لأنها من الممكن أن تضع رأسه تحت المقصلة لتصبح رأسها مجاورة لرأس زوجها وهى مبتهجة». وتوقف كارتون عن الكلام برهة ثم مضى يقول: «من أجل خاطر ابنتها وأبيها اضغط عليها كل الضغط لكى توافق على أن تغادر باريس وهما معها، وأنت معها في الساعة التي اتفقنا عليها. أخبرها أن ذلك الترتيب إنما هو الترتيب الأخير الذي أوصى به زوجها. وأكد لها أن كل شيء يعتمد على تنفيذ هذا الترتيب بأكثر مما يمكن لها أن تتصور أو تأمل. ألا تعتقد أن أباها في حالته الراهنة سيفرض تأثيره عليها؟» فقال لورى: «أنا متأكد أنها ستتأثر بذلك وستوافق على مغادرة

باريس؟» فقال كارتون: «وأنا أشاطرك هذا الاعتقاد. أتمم كل الاستعدادات اللازمة للرحلة لتكون جاهزة في فناء البنك هنا كلى تتخذ مكانك في العربة المستعدة للرحلة ثم انطلق بها في اللحظة التي أصل بها إلى العربة وفيها لوسى وأبوها وابنتها عندما أصل أنا ثم تجرى بنا العربة في رحلتها مغادرة باريس ثم نغادر الحدود» فقال لورى: «هل أفهم من ذلك أنه من الضرورى أن أنتظر وصولك في كل الظروف والأحوال ولا أتحرك بالعربة أبدًا قبل وصولك؟». فقال كارتون: «إن معك تصريح الخروج الخاص بي مع بقية التصاريح، وأنت تعرف ذلك. وأنت ستحتفظ لي بمكانى في العربة مهما تكن الظروف. لا تنتظر أي شيء سوى أن أجلس في مكانى بالعربة ثم انطلق إلى إنجلترا!» فقال لورى: «ولماذا إذن يعتمد كل شيء على رجل عجوز مثلى. إننى سأجد بجانبى رجلًا شابًا وجسورًا وذكيًا» فقال كارتون: «بمساعدة السماء سيتحقق لك ذلك! عدنى الآن أنه لن يؤثر عليك أي ظرف من الظروف بحيث تغير أي تغيير في هذا الترتيب الذي اتفقنا عليه سويا».

وقال لورى: «لن يحدث ما تخشاه يا كارتون»: «تذكر هذه الكلمات غدًا: التغيير في الترتيبات أو التأخير في عمل كل ما تتطلبه - لأى سبب من الأسباب سيترتب عليه استحاله إنقاذ أي روح من الأرواح، ولا مفر من التضحية بأرواح كثيرة» فقال لورى: «سأتذكر ذلك. وأنا آمل أن أؤدى دورى كاملًا بكل إخلاص». فقال كارتون: «وأنا آمل أن أؤدى دورى الذي يخصنى، والآن وداعًا!»

وعلى الرغم من أن سيدنى كارتون قال كلمة الوداع وهو يبتسم ابتسامة جادة حزينة، وبالرغم من أنه كان قد رفع يده عن الرجل العجوز إلى شفتيه، لم يبارح كارتون مكانه أمام لورى. وحتى بعد ذلك ببضع دقائق لم يغادر كارتون المكان، بل ساعد لورى في أن ينهض ذلك الهيكل العظمى المتداعى، وأن يضع على كتفيه عباءة، وأن يقتاداه سويا إلى حيث كان يستطيع أن يجد مقعده الذي كان قد اعتاد أن يجلس عليه وهو يعمل في صناعة الأحذية، وأخرجا له ذلك المقعد، وكل الأدوات اللازمة له في العمل من مخبأها. ومشى كارتون في الجانب الآخر من المنزل. ودخل إلى الفناء وظل واقفا هنالك بمفرده بضع لحظات. وقد شخص ببصره إلى أعلى حيث كان النور ينبعث من نافذة حجرتها. ثم مشى خارجا من الفناء وتمتم ببعض الكلمات مباركًا لها، ثم همس نحوها بكلمة الوداع.

❊ ❊ ❊ ❊

الفصل العشرون

اثنان وخمسون

Fifty - Two

وفي السجن الأسود الخاص بالمحكوم عليهم بالإعدام، كان المحكوم عليهم بالإعدام ينتظرون مصيرهم، كان عددهم يماثل عدد الأسابيع في السنة. كان الرقم اثنان وخمسون هو رقم الضحايا المحكوم عليهم بالإعدام في ظهيرة ذلك اليوم لكى تحملهم حركة المد والجزر إلى بحر الفاء الذي لا تحده حدود.

وكان تشارلس دارنى وحيدًا في زنزانته، وقد وطد نفسه على أن يتخلص من هلوسة الأمل في البقاء على قيد الحياة منذ خرج من مبنى المحكمة. في كل سطر من السطور التي تضمنتها تلك المحاكمة التي سمعها، كان قد سمع الحكم الذي يقضى عليه بعقوبة الإعدام. وبالرغم من أنه كان قد عقد العزم على أن يتخلى عن كل أمل في النجاة، فلم يكن هذا العزم الذي اعتزمه سهلًا كل السهولة وهو يتخيل في ذهنه وجه زوجته المحبوبة وكل ملامح وجهها الجميلة لا تزال طازجة أمام عينيه ثم وهو يعمل ذهنه فيما ستتحمله من آلام بالضرورة ولكنه بالتدريج هدأ وأصبحت حالته النفسية في وضع أفضل عندما استطاع أن.

يسمو بفكره إلى آفاق أعلى لكى يستنزل على نفسه الشعور بشيء من الراحة. وقبل أن يستقر في زنزانته المظلمة في الليلة التي أعقبت النهار الذي

كان قد تم الحكم بالإعدام عليه فيه، كان قد سافر بفكرة وبعقله رحلته في آخر طريق يرحل عبره الرحلة الأخيرة له في الحياة. وعندما نام فوق فراشه المصنوع من القش اعتقد أنه قد فرغ من هذه الحياة الدنيا.

ولقد كان قد أحيط علما بأن آخر ساعة له في السجن هي الساعة الثالثة بعد منتصف الليل وكان يعرف أنه سيتم استدعاؤه قبلها ببعض الوقت الذي يكفى لتذرع فيه عربات نقل المحكوم عليهم بالإعدام المسافة من السجن إلى الجيلوتين. ولذلك قرر أن يضع الساعة الثانية بعد منتصف الليل في اعتباره باعتبار أنها هي الساعة التي عليه أن يشد فيها أزر عزيمته عندما تحين تلك الساعة لكى يتمكن من أن يشد أزر رفاقه لو احتاج أحدهم إلى ذلك. وعندما كان يمشى في زنزانته جيئة وذهابا وذراعها معقودتان أمام صدره، سمع الساعة تدق معلنة عن الساعة الواحدة بعد منتصف الليل بدون أن يندهش.

صوت أقدام فوق الممر الحجرى الموجود أمام الباب! والمفتاح يوضع في قفل باب حجرته، قبل أن ينفتح الباب كما انفتح الباب سمع صوت رجل يتكلم باللغة الانجليزية بصوت خفيض ويقول: «إنه لم يرنى من قبل هنا، لقد كنت أبتعد عن طريقه. ادخل أنت بمفردك. سأنتظر أنا هنا. لا تضع الوقت!».

وانفتح الباب بسرعة وانغلق، ووقف أمامه وجها لوجهه وهو هادئ متعاطف معه تعلو ملامح وجهه ابتسامة خفيفة. وقد وضع إصبعه فوق شفتيه سيدنى كارتون وهو يقول له: «هل كنت تتوقع ألا ترانى من بين كل الناس على وجه الأرض؟» فقال دارنى: «لو كنت أتوقع أن يأتى عندى هنا أحد، فلم أكن أتوقع أن تكون أنت الذي تحضر عندى هنا الآن. وأنا لا أكاد أصدق ذلك حتى الآن. أنت لست ــ) وخطرت بذهنه الفكرة التي يعبر عنها في التو

واللحظة وأكمل الجملة المعبرة عن المعنى الذي لمع فجأة في ذهنه وقال: ألست مسجونا هنا؟» فقال كارتون: «لا، أنا لست مسجونا هنا. لي بالصدفة تأثير على أحد حراس السجن هنا، وبفضل هذا التأثير، هأنذا أقف أمامك. أنا قادم إليك من عندها – من عند زوجتك يا عزيزى دارنى.» واعتصر السجين يد كارتون في يده. وقال له كارتون: «جئت لك منها برجاء هي التي ترجوه منك». فقال دارنى: «ما الذي ترجوه هى منى؟» فقال كارتون: «ليس لديك الوقت الذي يكفى أن تسألنى لماذا جئت إليك بهذا الرجاء منها، وليس عندى الوقت لكي أجيب مثل هذه الأسئلة. وأنت يلزمك أن تلبى رجاءها. اخلع هذه الأحذية التي ترتديها، والبس هذين الحذاءين خاصتى أنا.»

وكان يوجد كرسى بجوار حائط الزنزانة خلف دارنى. واندفع كارتون إلى الأمام، وأجلسه كارتون بسرعة البرق فوق الكرسى، ووقف كارتون أمامه وهو عارى القدمين ثم قال له: «البس هذا الزوج من الأحذية الذي كان يخصنى أسرع». فقال دارنى: «يا كارتون، يستحيل الهروب من هذا المكان. يستحيل أن يتم. كل ما في الأمر أنك ستموت معى، هذا جنون». فقال له كارتون: «سيكون هو الجنون بعينه لو طلبت منك أن تهرب. هل أنا طلبت منك أن تهرب؟ عندما أقول لك اخرج من هذا الباب قل لي إن هذا جنون، ولا تخرج وابق هنا. البس رابطة العنق هذه التي تخصنى بدلا من رابطة العنق التي تخصك واستبدل معطفك هذا بمعطفى، وبينما أنت تفعل ذلك، دعنى أنتزع هذا الشريط الذي تحزم به شعرك لأحزم أنا به شعرى، ومشط شعرك ليكون مثل شعرى كما تراه الآن!».

وبسرعة مدهشة، بقوة إرادة وبقدرة على أداء العمل بسرعة فائقة فرض كارتون كل هذه التغييرات على دارنى. وقال دارنى: «يا كارتون، يا عزيزى كارتون، هذا جنون! لا يمكن أن يتم هذا الذي تفكر فيه. يستحيل أن يحدث

هذا كل الاستحالة، لقد حاول بعضهم مثل هذه المحاولة وفشلت المحاولة. أنا أتوسل إليك ألا تضيف وفاتك إلى مرارة موتى»: فقال دارنى: «هل أنا أطلب منك يا عزيزى أن تعبر هذا الباب وتمر خارجًا منه؟ عندما أطلب منك هذا، ارفض مطلبى منك. يوجد قلم وحبر وورق فوق المنضدة. هل يدك قوية بدرجة تكفى أن تكتب؟» فقال دارنى: «كانت يدى قوية قبل أن تأتى وتدخل عندى». فقال دارنى: «استنهض قواها مرة أخرى. واكتب ما سأمليه عليك. أسرع يا صديقى أسرع!»

وضغط دارنى بيده على جبهة رأسه وجلس إلى المنضدة. ووقف كارتون بجواره ويده اليمنى على صدره ثم قال له: «اكتب بالضبط الكلام الذي سأتكلم به» قال دارنى: «من المخاطب بهذا الكلام». فقال كارتون ويده لا تزال فوق صدره: «لا مخاطب يتجه إليه هذا الكلام؟» فقال دارنى: «هل أضع تاريخًا؟» وقال كارتون: «لا». وتطلع نحوه المسجون عند كل سؤال وإجابة، وكان كارتون لا يزال واقفا بجواره ويده اليمنى فوق صدره ثم أملى كارتون ما يلى: «لو أنك تتذكرين الكلمات التي دارت بيننا منذ زمن طويل مضى فأنت ستفهمين هذا فور رؤيتك له. أن تتذكرين هذه الكلمات وأنا أعرف أنك تتذكرينها وليس في طبعك ما يجعلك بحاجة إلى نسيانها.» وكان كارتون يخرج يده ويبعدها عن صدره وهو يملى الكلمات السابقة. وعندما تطلع دارنى بسرعة وهو في دهشة مما كتبه إلى أعلى، توقفت يد كارتون حيث كانت، وأغلقت يده شيئًا ما. وسأل كارتون: «هل كتبت؟» وليس في طبعك ما يجعلك بحاجة إلى نسيانها؟» فقال دارنى: «كتبتها. هل هذا الذي في يدك اليمنى سلاح؟» فقال كارتون: «لا أنا لست مسلحا بأي سلاح.» فقال كارتون: «فما هو هذا الذي في يدك؟» فقال كارتون: «ستعرف بعد قليل. اكتب، لن تكتب إلا كلمات قليلة بعد ما كتبته». وشرع كارتون في

الإملاء مرة أخرى وقال: «أنا شاكر أن الوقت قد حان عندما أستطيع الآن أن أبرهن على صدقى فيما قلته لك من قبل وهذا الذي أفعله أنا الآن ليس موضعًا للأسف أو الحزن». وعندما أملاه هذه الكلمات وعيناه مركزتين على دارنى وهو يكتب تحركت يد كارتون ببطء وهدوء واقتربت من وجه دارنى وهو يكتب. وسقط القلم من يد دارنى وهو يكتب ونظر حوله بدون أي تركيز وانتباه وقال: «ما هذه الرائحة؟» فقال كارتون: «رائحة؟» فقال دارنى: «شيء أشمه» فقال كارتون: «أنا لا أشم أي شيء. لا توجد أي رائحة غير معتادة هنا خذ القلم وأكمل. أسرع. أسرع!».

وحاول دارنى أن يستجمع أطراف قواه الذهنية وحاول أن يظل منتبهًا. وبينما كان ينظر إلى كارتون وإلى عينيه الملونتين، وقد تغيرت وتيرة عملية التنقس الخاصة به، عادت يد كارتون مرة أخرى إلى صدره، ونظر نحو دارنى فاحصا ومدققا وقال له: «أسرع، أسرع!» وانحنى دارنى على الورقة مرة أخرى. وأملاه كارتون ما يلى : «وإذا لم يتحقق ذلك». وكانت يد كارتون مرة أخرى تهبط ببطء متسللة إلى أسفل وهو مستمر في الإملاء ويقول: فإنا لم ألجأ حتى الآن إلى انتهاز أكثر الفرص طولًا ودوامًا، وإذا لم يتحقق ذلك أيضًا». ونزلت يد كارتون لتقترب من وجه دارنى مرة أخرى ثم أملاه قائلًا: «لكان من الضرورى أن أحاسب على ذلك حسابًا عسيرًا. وّإذا لم يتحقق ذلك، ـــ» ونظر كارتون إلى القلم، ووجد أنه يخط خطوطا لا معنى لها وعلامات لا يمكن قراءتها.

ولم تتحرك يد كارتون لتصل إلى صدره بعد ذلك ونهض دارنى واقفًا زائغ النظرات، ولكن يد كارتون كانت قوية عند خياشيم دارنى بينما التفت يده اليسرى حول خصر دارنى، وكافح دارنى لمدة ثوان قليلة مع الرجل

الذي كان قد أتى لإنقاذه، ولكن بعد دقيقة واحدة، كان دارنى يرقد ممددًا على الأرض فاقدا لكل إحساس.

وبسرعة فائقة، وبيدين كان فيهما من الجرأة على إنجاز ما يلزم إنجازه مثل ما كان في قلبه من الجرأة ارتدى كارتون كل الملابس التي كان يرتديها دارنى، ومشط شعره ثم ربطه بالشريط الذي كان دارنى يربط به شعره ثم نادى بكل هدوء: «أنت هناك، هيا ادخل الآن» ودخل الجاسوس إلى الزنزانة، فقال له كارتون: «ها أنت ذا ترى! هل وساوسك لا تزال كبيرة؟» ودس الورقة التي كان دارنى قد كتبها في صدر دارنى وهو راكع بجواره، ودارنى لا يحس ولا يشعر بأي شيء مما يدور حوله. وأجابه الجاسوس بقوله: « يا سيد كارتون لا تتعلق وساوسى بهذا الشخص الفاقد لكل مشاعره، بل تتركز هواجسى كلها في أن تكون صادقا في مجمل ما اتفقت أنت معى عليه». فقال دارنى: «لا تخف من ناحيتى. سأكون صادقًا حتى الموت». فقال الجاسوس: «من اللازم والضرورى أن تكون صادقا معى إلى النهاية يا سيد كارتون لو انتهت قصة المحكوم عليه بالإعدام رقم اثنين وخمسين لنهاية المتفق عليها بيننا ولو صدقت معى وأنت تلبس ملابسه هكذا للنهاية، لن يكون عندى أي خوف». فقال كارتون: «لا تخف! أنا سأخرج بسرعة من الطريق الذي يأتيك منه الأذى. وسيكون الباقى بعيدًا عن هنا. ساعدنى يا إلهى استدع مساعديك وخذنى إلى العربة. فقال الجاسوس بعصبية: «أنت؟» فقال كارتون: «هم يا رجل مع من استبدلت معه ملابسى. ستخرج أنت به من البوابة التي أدخلتنى منها». فقال الجاسوس: «طبعًا». فقال كارتون: «لقد كنت أنا ضعيفًا وقد أغمى علىَّ عندما أدخلتنى، وأنت تخرجنى لأننى ازددت ضعفا ومرضا. مثل هذا يحدث هنا مرارا وتكرارا، أسرع باستدعاء مساعديك». فقال الجاسوس: «هل تقسم ألا تخوننى؟» وأرتجف الجاسوس وهو يوجه إلى

كارتون ذلك السؤال. فقال له كارتون: «يا رجل، يا رجل هل أنا قد أقسمت أي يمين محترم حتى الآن وحنثت فيه حتى أحنث بالقسم هذه المرة. خذه بنفسك إلى الفناء الذي تعرفه. أجلسه بنفسك في العربة. أره بنفسك للسيد لورى. أخبره بنفسك ألا يعطيه أي مادة تعيد له انتباهه بحيث لا يستنشق إلا الهواء، وقل للسيد لورى ألا ينسى كلماتى معه الليلة الماضية وإلا ينسى وعدة الليلة الماضية وأن يبتعد بالعربة!».

وأنسحب الجاسوس، وجلس كارتون إلى المنضدة وهو يريح جبهته فوق راحة يده. وعاد الجاسوس في الحال ومعه رجلان. وقال أحدهما: «كيف حالة الآن؟ هل هو حزين جدًا لأنه وجد أن صديقه قد ربح جائزة يانصيب القديسة الجيلوتين؟». وقال الآخر: «المواطن الصالح يستحيل أن يحزن عندما يسحب أرستقراطى ورقة غير رابحة».

ورفعا جسم المريض الغائب عن الوعى فوق محفة كانا قد أحضراها إلى الباب وانحنيا لكى يحملاه ويخرجاه بعيدا. وقال الجاسوس: «الوقت قصير يا إفريموند» وقال كارتون: «أنا أعرف ذلك جيدا. كن أن حذرا يا صديقى. أنا أتوسل إليك، ودعنى أنا لشأنى». فقال الجاسوس بارساد: «تعالوا إذن أيها الأولاد. ارفعوه وأخرجوه!».

وانغلق وراءهم الباب وبقى كارتون وحده، يستجمع قواه للإصغاء إلى أي صوت يمكن أن يكون مسموعا. وظل كارتون يصغى إلى أي احتمال لوجود صوت ربما يعلن عن شيء من الريبة أو ينذر بوقوع أي حدث غير عادى. ولم يكن هنالك أي صوت من هذا القبيل. كانت المفاتيح تدار في الأقفال. وكانت الأبواب تصفق وهي تفتح، وكانت أصوات وقع الأقدام تسمع من بعيد في الممرات الطويلة، ولم ترتفع أي صيحة تنبئ عن حدوث

أي شيء غير عادى. ولم يكن هنالك أي نداء يحث على الاستعجال في مواجهة أي شأن من الشئون. وتنفس كارتون بارتياح لمدة قصيرة وهو جالس إلى المنضدة ثم أصاغ السمع مرة أخرى حتى دقت الساعة الثانية.

وسمع أصواتًا لم يكن يخاف منها أو يخشى أي شيء لأنه كان يدرك ما تدل عليه تلك الأصوات التي بدأت تبدو مسموعة واضحة الدلالة في أذنيه. انفتحت أبواب متجاورة الواحد منها تلو الآخر، وأخيرًا انفتح باب زنزانته. ونظر أحد حراس السجن داخل الزنزانة وهو يمسك بيده قائمة بالأسماء والأرقام. ولم يقل أكثر من أن قال: «تعال معى يا إفريموند!». وتبعه إفريموند إلى حجرة واسعة مظلمة تقع على مسافة كبيرة من زنزانته. وكان ذلك اليوم يوما من أيام الشتاء، وكان الظلام أثناء ليل ذلك اليوم حالكا، ولم يكن يستطيع أن يرى الناس الآخرين الموجودين معه في الحجرة الواسعة إلا بصعوبة كبيرة، وكانت يدا كل احد منهم مصفدة بالأغلال، وبينما كان كارتون المفترض أنه هو إفريموند يقف بجوار الجدار اقتربت منه امرأة شابة تبدو هيئتها كما لو كانت لا تزال بنتا عذراء، وكان وجهها حلو القسمات، وإن كان يبدو فاقدا للون. وكان لها عينان واسعتان مفتوحتان إلى أقصى مدى، ونهضت من المكان الذي كانت تجلس فيه وتقدمت مقتربة منه لتتكلم معه. وقالت الفتاة: «أيها المواطن إفريوند، أنا خياطة صغيرة فقيرة كنت محبوسة معك في سجن لافورس» وأجابها بقوله: «هذا صحيح. ولقد نسيت التهمة التي دخلت أنت السجن بسببها» فقالت: «التآمر ضد الجمهورية، على الرغم من أن السماء تشهد أننى بريئة من الاشتراك في أي مؤامرات ضد الجمهورية. هل هذا ممكن؟ من ذا الذي يفكر في التآمر ضد الجهورية مع مخلوقة فقيرة ضعيفة مثلى أنا». ولقد تأثر كل التأثر بالابتسامة البرئية التي كانت تعلو شفتيها وهي تقول ذلك لدرجة أن الدموع بدأت تتجمع في مآقى

عينيه واستطردت البنت تقول: «أنا لست خائفة من أن أموت أيها المواطن إفريموند ولكنن لم أرتكب أي جريمة. وأنا لست أرغب عن أن أموت لو أن موتى فيه أي نفع للجمهورية التي يفترض أنها تعمل الكثير من أجلنا نحن الفقراء، ولكن موتى ليس فيه أي نفع للجمهورية. وأنا لا أعرف أي نفع للجمهورية في موتى يا أيها المواطن إفريموند. أنا مجرد مخلوقة ضعيفة صغيرة!»

ولو كان قلبه لا يرق ولا يشعر بالحنان تجاه أي شيء في الحياة لرقَّ قلبه وامتلأ بالحنان لهذه الفتاة البائسة. وفاجأته الفتاة بقولها: «سمعت أنهم كانوا قد أطلقوا سراحك أيها المواطن إفريموند. ولقد كنت آمل أن يكون هذا الخبر خبرا صحيحًا. أليس هذا الخبر صحيحًا؟» فقال لها: «كان هذا الخبر خبرا صحيحًا، ولقد ألقوا القبض على مرة أخرى وأخذونى من جيديد وحكموا على بالإعدام». فقالت الفتاة: «لو قدر لي أن أركب معك في عربة واحدة من عربات المحكوم عليهم بالإعدام أيها المواطن إفريموند، فهل ستسمح لي أن أمسك بيدك؟ أنا لست خائفة، ولكننى صغيرة وضعيفة، وسيعطينى ذلك شجاعة أكثر».

وعندما ارتفعت عيناها الكليلتان إلى وجهه، رأى فيهما الشك المفاجئ والارتياب، ثم الدهشة العارمة، وضغط بشدة على أصابعها المطبوعة بطابع العمل الشاق وبطابع الصبا الغض أيضًا، ورفع إصبعه غلى شفتيه، فقالت الفتاة: «هل ستموت من أجله؟» فقال لها: «ومن أجل زوجته وإبنته. صه! نعم» فقالت: «أوه هل أنت ستدعنى أمسك بيدك الشجاعة أيها الرجل الذي لا أعرف له اسما؟» فقال لها: «صه! اسكتى. نعم، يا أختى المسكينة، للنهاية».

وكانت نفس الظلال فوق مبنى السجن تسقط أيضًا في نفس الوقت عند الحدود وعند الحشود المتزاحمة لعبور الحدود عندما وصلت عربة قادمة من باريس إلى نقطة التفتيش. وقال أحدهم: «من المسافرون؟ من معك داخل العربة؟ الأوراق؟» وتم تسليمه الأوراق وقرأها بصوت عال قائلا: «ألكساندر مانيت. طبيب فرنسى. أيهم هو؟. ها هو ذا. إنه عاجز عن الحركة، وهو رجل طاعن في السن». وقال مفتش الجوازات: «من الواضح أن المواطن الطبيب ليس في حالته العقلية السليمة؟ هل كانت حمى الثورة قوية بالنسبة له أكثر مما ينبغى؟». وكانت الإجابة هي: كانت قوية بالنسبة له جدا. فقال مفتش الجوازات: «هاها! يعانى كثير من الناس منها» ثم قال: «لوسى، ابنته فرنسية. أين هي؟». «هذه هى». «من الواضح أنه من الضرورى أن تكون هي زوجة إفريموند، أليست هي زوجة إفريموند؟» إنها هي فقال: «هاها! كان لدى إفريموند اتصال بمكان آخر. لوسى ابنتها. إنجليزية. أين هى؟» إنها هي هذه ولا أحد غيرها. قبلينى يا طفلة إفريموند. أنت الآن قد أعطيت قبلة لرجل من أفضل أنصار الجمهورية، وهذا شيء جديد في أسرتك. تذكرى هذه القبلة يا طفلة إفريموند». ثم قال: «سيدنى كارتون. محامى إنجليزى. من هو؟» – إنها ينام هنا في هذا الركن من العربة. وهو أيضا قد تم التعرف عليه وفحص تصريح مروره. وقال مفتش الجوازات: «من الواضح أنه مغمى عليه وهو فاقد القدرة على الحركة؟ أليس كذلك؟» وكان الجواب هو: نأمل أن يسترد حواسه عندما يستنشق هواء أفضل. من الواضح أنه ليس في حالة صحية جيدة، ولقد كان ذلك نتيجة للفراق الذي تم بينه وبين صديقه الذي لم يكن هنالك ود بينه وبين الجمهورية. فقال مفتش الجوازات: «هل هذا هو كل شيء؟ ليس هذا شيئا غريباً كثير من الناس ممتعضون من الثورة ويلزم أن ينظر من النافذة الصغيرة الموجودة في أحد أجناب المقصلة. من الباقى؟

آه، جارفيز لورى. موظف بالبنك إنجليزى. من هو؟» كانت الإجابة هي: «أنا هو. ومن الضرورى أن أكون أنا الأخير». ولقد كان جارفيز لورى هو الذي أجاب عن كل أسئلة مفتش الجوازات. كان جارفيز لورى هو الشخص الذي نزل من العربة ووقف عند بابها وهو يجيب أسئلة عدد من الموظفين الحكوميين المختصين بجوازات المرور والسفر الذي كانوا يدورون حول العربة ويصعدون فيها وينظرون داخلها، ويفتشون الامتعة القليلة الموجود فوق ظهرها، ثم يعودون إلى العربة ويقتربون من الباب ينظرون بداخلها. ثم قال أحدهم: «خذ أوراقك يا سيد جارفيز لورى مختومة». فقال لورى: «هل نستطيع أن نرحل أيها المواطن؟» وقال الرجل: «تستطيع أن ترحل. رحلة طيبة!» وقال لورى: «أنا أحييكم أيها المواطنون ـــ» ثم قال في نفسه: «زال أول جانب من جوانب الخطر!».

كانت تلك هي كلمات جارفيز لورى وهو يضم كفيه وينظر نحو السماء. ويوجد رعب داخل العربة وبكاء وصوت التنفس الثقيل للمسافر الغائر عن الوعى. وتسأل لوسى قائلة: «ألسنا نتحرك ببطء؟ ألا يمكن إخبارهم بأنه من الضرورة أن يسوقوا العربة بأسرع من سرعتها هذه؟» ويقول لها جارفيز لورى: «سيبدو ذلك كما لو كنا نهرب يا عزيزتى. ولا ينبغى أن نوصيهم بزيادة سرعة العربة، لأن هذا ربما يثير شكوكهم». وتقول له لوسى: «انظر إلى الخلف. انظر إلى الخلف. تأكد من أنه لا يتتبعنا أحد». ويقول لها جارفيز لورى: «لا أحد وراءنا في الطريق يا عزيزتى وحتى الآن، ا يتعقبنا أحد» كـ

وفي نفس ذلك الوقت بينما كان اثنان وخمسون من المحكوم عليهم بالإعدام ينتظرون تنفيذ حكم الإعدام فيهم، كانت مدام ديفارج تعقد اجتماعا شريرا مع المرأة فينجانس وجاك ثلاثة في دكان قاطع الأخشاب الذي كان عاملا من عمال إصلاح الطريق من قبل. وقال جاك ثلاثة: «ولكن

السيد ديفارج كما نعرفه إنما هو مواطن صالح موال للجمهورية دون شك في ذلك؟ إيه؟» وقالت المرأة فينجانس بطريقتها في الحماس لكل ما تبديه من ملاحظات: «لا يوجد مواطن أفضل منه في فرنسا». وقالت لها مدام ديفارج: «اسكتى يا صغيرتى فينجانس». ووضعت يدها على شفتى فينجانس ثم استطردت تقول: «استمعا إلى ما أقوله أنا عندما أتكلم. زوجى، أيها المواطنون، موال صالح للجمهورية وهو يحظى بالثقة فيها. ولكن زوجى عنده نقطة ضعف تخصه هو وحده. إنه من الضعف بحيث إنه يلين تجاه هذا الطبيب». فقال جاك ثلاثة: «هذا يستدعى الرثاء» وأخذ يهز رأسه ويقول: «هذا لا يتناسب مع كون ديفارج مواطنا مخلص للجمهورية. هذا شيء يؤسف له.» وقالت مدام ديفارج: «انظروا أنتم، لا يهمنى أنا هذا الطبيب. بالنسبة لى ، سيان عندى أن يرتدى ذلك الطبيب رأسه فوق جسده أو يفقد رأسه من فوق جسده، يستوى عندى هذا وذاك. ولكن كل أسرة إفريموند يلزم إعدامها ومحوها من الوجود، والزوجة والطفلة يجب أن يلحقا بالزوج والأب.» وأخذت مدام ديفارج تفكر قليلا ثم قالت: «أنا لا أستطيع الآن أن أثق بزوجى في هذه المسألة. وليس ذلك لمجرد أننى أشعر منذ الليلة الماضية أننى لا أستطيع أن أفضى إليه بالتفاصيل لمشروعاتى القادمة، ولكن لأنه من الممكن أن يحذرهم أيضا، ومن ثمَّ يمكن لهم أن يهربوا. وبناء على ذلك يلزم أن أتصرف بنفسى. تعال عندى هنا أيها المواطن الصغير». وتقدم بالقرب منها قاطع الأخشاب الذي كان ينظر نحوها بكل الاحترام وكان ينظر إلى نفسه بكل الانقياد تحت ضغط الخوف المميت منها، ووضع يده على قبعته الحمراء. فقالت له مدام ديفارج: «بمناسبة ذكر تلك الإشارات – أيها المواطن الصغير – التي كانت هى تعملها للسجناء، هل أنت مستعد أن تتقدم لتدلى بشهادتك عنها في نفس هذا النهار؟» وصاح قاطع الأخشاب

يقول: «أي ياي ياي، ولم لا؟ في كل يوم، وفي كل حالات الطقس، وفي مختلف الأجواء، اعتبارا من الساعة الثانية حتى الساعة الرابعة، كانت هي دائما تقوم بعمل الإشارات، وكانت الطفلة الصغيرة معها في بعض الأحيان، وفي بعض الأحيان لم تكن الطفلة الصغيرة معها. أنا أعرف هذا الذي أعرفه. لقد شاهدته بعينى رأسى أنا.» وأخذت مدام ديفارج المرأة فنجانس واحد موظفى المحكمة إلى مكان قريب من الباب وشرحت لهما خطتها كما يلى هكذا: «زوجته ستكون الآن في بيتها تنتظر لحظة موته. ستكون في حالة حداد وحزن شديد. وستكون في حالة نفسية تجعلها تشتم وتسب الجمهورية وقوانينها الظالمة. أنا سأذهب إليها». وصاح جاك ثلاثة يقول: «يا لك من امرأة عظيمة! يا لك من امرأة جديرة بالحب!» وصاحت المرأة فينجانس تقول: «آه منك يا رائعة التفكير!» وهجمت عليها تقبلها.

وقالت مدام ديفارج وهي تضع الأشياء الخاصة بأشغال التريكو في يد المرأة فينجانس: «خذى أنت أدوات شغل التريكو هذه. واحتفظ بها كما هى في مكتبى. واحفظى لي مقعدى الخاص بي. اذهبى أنت هناك مباشرة، لأنه من المحتمل أن تكون هنالك حالات إعدام اليوم أكثر من المعتاد». وقالت نائبة مدام ديفارج ومساعدتها المطيعة: «أنا أطيع أوامر رئيستى بكل ارتياح». وقبلتها مرة أخرى ثم قالت لها: «أنت لن تتأخرى كثيرا؟» فقالت مدام ديفارج: «أنا سأكون في ساحة التنفيذ قبل بداية التنفيذ». وقالت المرأة فينجانس: «وقبل وصول عربات نقل المحكوم عليهم بالإعدام، تأكدى أن تكونى موجودة بالساحة يا عزيزتى يا روحى... قبل أن تصل العربات».

ولوَّحت مدام ديفارج بيدها إشارة إلى أنها قد سمعت، ويجوز أنها قد اعتزمت أن تعود في موعد مناسب، ومضت تمشى في الأوحال ثم تنحرف مع انحراف جدار السجن مغيرة اتجاه سيرها. وكان يوجد كثير من النساء في

ذلك الوقت وكان الزمان قد ألقى على كواهلهن يده التي ضعضعت كيان كان منهن، ولكن لم يكن بينهم امرأة رهيبة مخيفة المنظر أكثر من هذه المرأة الملتاثة التي تشق طريقها بينهن متجهة وجهة معينة ي ذهنها. وكانت تضع مسدسا مخبوءا في صدرها، وكان المسدس محشوا بالرصاص. وكان تضع خنجرًا مخبوءا في خصرها، وكان الخنجر محوذا إلى أقصى مدى. وهكذا كانت مدام ديفارج مدججة بالسلاح تشق طريقها في الشوارع.

والآن، لو رجعنا قليلا إلى الوراء وبالتحديد عندما كانت عربة السفر تنتظر أن تستكمل حمولتها، فلقد كان قد تم التخطيط في الليلة الماضية لكل شيء بالنسبة لكل الأفراد. ولقد كانت مشكلة أخذ الآنسة بروس معهم في نفس العربة تشغل بال السيد جارفيز لورى إلى أقصى مدى. ولم تكن المسألة مسألة حمولة زائدة بالنسبة للعربة فقط، ولكن الاعتبار الاهم كان يتصل بطول الوقت الذي يستغرقه فحص الجوازات وتصاريح المرور بالنسبة لعدد كبير من المسافرين مع أفضلية تقليل هذا الوقت عندما يكون المسافرون أقل عددًا حيث إن نجاح هروبهم يتطلب توفير كل ثانية من الدقيقة الواحدة. ولقد كان لورى قد اقترح أخيرا بعد بحث كافة الاعتبارات المتعلقة بالموضوع أن الآنسة بروس والسيد جيرى كرانشر اللذين كان لكل منهما مطلق الحرية في مغادرة المدينة في أي وقت يلزم أن يغادروها في الساعة الثالثة ضمن أفواج النازحين عن باريس باستخدام عربات الأجرة ضمن أي جماعة مسافرة من باريس في الرحلات المشهورة المعروفة المتاحة لكل من يحمل تصريحًا بالخروج من باريس ويريد السفر ويملك أجرة السفر. وحيث إنهما غير مثقلين بأي متاع ذي بال، سيكون من السهل أن يلحقوا بالعربة سريعا دون المخاطرة بأي تأخير عندما يكون التأخير هو مكمن الخطورة. وعندما رأت الآنسة بروس في هذا الترتيب الأمل في أن

يحقق فائدة حقيقية أثناء هذه الظروف الطارئة فلقد تحمست له كل الحماس ووافقت عليه. ولقد كانت هي وجيرى قد شاهدًا بدء رحلة العربة، وكانا قد عرفا حقيقة الشخص الذي كان قد أحضره بارساد، وكانا قد أمضيا حوالى عشر دقائق وهما يعانيان من الحيرة والارتباك، وكانا الآن قد حسما رأيهما سويا على أن يتبعا العربة. وحتى عندما كانت مدام ديفارج تشق طريقها في الشوارع واقتربت من المكان الذي كان يتناقشان فيه لم يكونا قد فرغا تماما من المناقشات.

وكانت الآنسة بروس تقول بكل جدية: «والآن ماذا تعتقد يا سيد كرانشر عن عدم بدء رحلتنا من هذا الفناء؟ إن عربة أخرى قد تحركت من هنا اليوم وهي ربما تثير بعض الشكوك». فقال لها كرانشر: «أنا رأيى يا آنسة هو أن رأيك صواب كل الصواب». فقال الآنسة بروس: «أنا يكاد يمزقنى الخوف والأمل من أجل أغلى الناس علينا لدرجة أننى لا أستطيع التفكير في أي خطة. هل أنت شخصيا تستطيع أن تفكر في أي خطة. ولكنه في النهاية وافق على أنه يجب أن يذهب إلى مكتب البريد، ويستوقف إحدى العربات والجياد لكى يحضرهم إلى الفناء وتأخذ العربة الآنسة كرانشر بالقرب من باب الكارتدرائية بين البرجين. وقال السيد كرانشر وهو متردد يهز رأسة: «تساورنى الشكوك فيما يتعلق بشأن أن أتركك. نحن لا نعرف ما يمكن أن يحدث؟» وردت عليه الآنسة بروس قائلة: «يعلم اللّه أننا لا نعرف. ولكن لا تخف عليَّ أنا. خذنى من عند الكاتدرائية في الساعة الثالثة أو قرابتها قدر إمكانك وأنا متأكدة أن هذه سيكون أفضل من ذهابنا من هنا. أنا أشعر أننى متأكدة من ذلك. هناك! بارك اللّه ليك يا سيد كرانشر! فكِّر -ليس في شأنى، ولكن فكر في الأرواح التي تعتمد علينا نحن الاثنين».

بمثل هذا اليقين، ولأن يدا الآنسة بروس كانتا ممسكتين بيديه، اتخذ السيد كرانشر قراره. وبعد أن أومأ برأسه بضع مرات موافقا على آراء الآنسة بروس، خرج على الفور لكى يغير كل الترتيبات وفقا للتعديل الذي كانت الآنسة بروس قد أدخلته على تلك الترتيبات، وتركها بالمنزل على أن تتبعه هى بعد مضى فترة من الوقت على النحو الذي كانت قد أوضحته له.

وإذ كانت الآنسة بروس ترتجف بسبب وجودها وحيدة في الحجرات الخالية تمامًا، فلقد قررت الآنسة بروس أن تضع بعض الماء البارد في إناء وتغسل به عينيها التي كانت متورمة ومحمرة اللون من كثرة البكاء وتعاقب محاولات مسح الدموع بيديها، وكانت وهى تمش لتحضر الإناء تتلفت حولها لكى تتأكد أنه لا أحد يراقبها، وأثناء لفتة من تلك اللفتات تراجعت وصرخت لأنها رأت شخص يقف في مدخل الصالة.

ونظرت إليها مدام ديفارج ببرود وقالت لها: «زوجة إفريموند: أين هى؟» وعلى الفور، خطر في ذهن الآنسة بروس أن الأبواب كلها كانت مفتوحة في كل الحجرات، وأن هذه الأبواب المفتوحة ستكشف بسرعة هروب لوسى. وكان أول مشاغلها هو أن تغلقها فهرعت إليها. كانت أربعة أبواب مفتوحة على الصالة، وأغلقتها الآنسة بروس جميعا قبل أن ترد على سؤال مدام ديفارج ثم وقفت أمام باب الحجرة التي كانت تنام فيها لوسى. وكانت عينا مدام ديفارج تتابعانها أثناء هذه الحركة السريعة ثم استقرت عيناها على الآنسة بروس عندما انتهت من الحركة. ورأت أمامها السيد لورى لأول مرة كان يلتقى معها ويشعر بيدها القوية. وكانت مدام ديفارج تعرف جيدا أن الآنسة بروس كانت صديقة مخلصة لتلك الأسرة، وكانت الآنسة بروس تعرف جيدا أن مدام ديفارج هى عدوة الأسرة اللدودة. وقالت مدام ديفارج: «لا تقفى في طريقى، لقد جئت من مكان يحتفظون لى فيه بالكرسى الخاص

بى وبأدوات شغل التريكو الخاصة بي، وجئت هنا لكى أكمل واجباتى نحوها. أنا أريد أن أراها». وأشارت مدام ديفارج بيدها إشارة تدل على أنها كانت تريد أن تفسح لها الآنسة بروس الطريق. وقالت لها الآنسة بروس: «أنا أعرف أن نواياك نوايا شريرة. وأنت تعتمدين على هذه النوايا الشريرة. وسأعتمد أنا على نوايای ضد نواياك». وكانت كل منهما تتكلم اللغة الخاصة بها. كانت مدام ديفارج تتكلم باللغة الفرنسية، وكانت الآنسة بروس تتكلم باللغة الإنجليزية. ولم تكن إحداهما تفهم كلام الأخرى، وكانتا متحفزتين كل التحفظ وترقب كل منهما حركات الأخرى، وكانت كل منهما تحاول أن تخمن معنى ومغزى كلمات وحركات الأخرى ونظراتها وما يمكن أن تعنيه كلماتها. وقالت مدام ديفارج: «لن يجديها نفعا أن تخبئ نفسها منى في هذه اللحظة. إن المواطنين الصالحين سيعرفون ما يعنيه هذا الاختباء منِّى. دعينى أقابلها. اذهبى وأخبريها أننى أرغب في أن أقابلها، وتنحى جانبا من أمام هذا الباب ودعينى أذهب إليها!» وبعد أن قالت ذلك صدرت عنها إشارة عنيفة استخدمت فيها كل ذراعها الأيمن.

ولم تغفل إحداهما لحظة واحدة عن النظر في عينى الأخرى. ولم تكن مدام ديفارج قد تحركت من مكانها الذي كانت تقف فيه عندما رأتها الآنسة بروس أول مرة قيد أنملة، ولكنها الآن تحركت للأمام خطوة واحدة، وعند ذلك قالت لها الآنسة بروس: «أنا بريطانية. أنا يائسة. أنا لا أساوى في نظر نفسى قطعة عملة إنجليزية من فئة بنسين. وأنا أعرف أنه كلما طال وقت بقائك هنا كلما ازداد أمل سيدتى الجميلة في النجاة. أنا لن أدع خصلة واحدة من شعرك الأسود فوق راسك لو وضعت أصبعا واحدا من أصابعك على جسمى!» ولكن الشجاعة الفائقة التي أبدتها في كلماتها كانت تلك مشوبة بانفعال عاطفى قبل جعل الدموع تظفر من عينيها. وكانت شجاعة الآنسة

بروس هذه عسيرة الفهم من جانب مدام ديفارج عندما فهمت خطأ أن دموع الآنسة بروس كانت علامة ضعف ولم تكن مصاحبة لفورة حماسية شجاعة، فضحكت مدام ديفارج وقالت: «ها، ها! أنت أيتها الحقيرة الضعيفة! ماذا تساوين!» ثم رفعت صوتها ونادت بصوت عال: «أنت أيها المواطن الطبيب! أنت يا زوجة إفريموند! أنت يا طفلة إفريموند! يا أي شخص فيما عدا هذه الحمقاء البائيسة، أجيبوا نداء المواطنة ديفارج!»

وربما كان الصمت المطبق بعد هذا النداء المثير، وربما كان الهدوء الكامل في ملامح الآنسة بروس قد أوحيا إلى مدام ديفارج أنهم قد هربوا. واندفعت كالسهم الطائش، وفتحت ثلاثة أبواب لثلاث حجرات بسرعة فائقة ونظرت بداخل كل حجرة منها ثم قالت: «هذه الحجرات في حالة فوضى. كان هنا حزم للأشياء بسرعة. وهذه أشياء مبعثرة على الأرض. ولا يوجد أحد في الحجرة التي وراء ظهرك. دعيني ألقى عليها نظرة هي الأخرى!»وقالت الآنسة بروس: «أبدا». وكانت الآنسة بروس قد فهمت ما كانت تطلبه مدام ديفارج منها، كما فهمت مدام ديفارج فحوى رد الآنسة بوس على مطلبها. وقالت مدام ديفارج كما لو كانت تفكر بصوت عال: «لو لم يكونوا وراءك في تلك الحجرة، لكانوا قد هربوا، ومن الممكن تتبُّعهم وإرجاعهم». وقالت الآنسة بروس: «طالما أنت لا تعرفين، كانوا موجودين في هذه الحجرة أو غير موجودين، ستكونين غير متأكدة مما تفعلين، وأنت لن تعرفي ذلك ما دمت أستطيع أن أمنعك من ذلك. وسواء فرفت ذلك أولم تعرفيه، لن تغادري هذا المكان طالما أستطيع أنا الإمساك بك هنا».

وقالت مدام ديفارج: «لقد عشت سنوات طويلة في الشوارع منذ بدء البداية، ولم يوقفني أي عائق. سأمزقك إربا إربا إن لم تتنحي جانب عن هذا الباب». وتحركت مدام ديفارج متقدمة نحو الباب. وبوحي اللحظة أمسكت

الآنسة بروس بخصر مدام ديفارج ولفت حوله ذراعيها وشددت من ضغط ذراعيها على خصر مدام ديفارج. وكان من المستحيل على مدام ديفارج أن تقاوم أو أن تتخلص من بين ذراعى الآنسة بروس أو تضرب أي نوع من الضربات. كانت الآنسة بروس قد أضاف الحب إلى قوتها قوة أخرى عارمة وخارقة للعادة، وأمسكت بخصر مدام ديفارج بقوة متزايدة لدرجة أنها رفعتها من فوق الأرض. وكانت يدا مدام ديفارج تتحرشان وتحاولان أن تفعلا أي شيء ولن تستطيعا أن تفعلا أي شيء سوى إحداث خربشة في وجه الآنسة بروس. ولكن الآنسة بروس كانت قد أخفضت رأسها وكانت تمسك مدام ديفارج بكل قوة وإحكام من خصرها بقوة أكثر من قوة إمرأة تجاهد لكى تنقذ نفسها من الغرق.

وسرعان ما توقفت يدا مدام ديفارج عن ضرباتها الطائشة ومحاولتها مجرد الخربشة. وحاولت أن تحسس بيدها في أحد أجنابها. وقالت لها الآنسة بروس: «إنه تحت ذراعى. وأنت لن تمسكيه في يدك أبدا. أنا أقوى منك. وأنا سأظل ممسكة بك حتى يغمى على إحدانا أو تموت!» ونزلت يدا مدام ديفارج حتى وصلت إلى صدرها، ونظرت الآنسة بروس، ونظرت ورأت ذلك الشيء وعرفته، وخبطت عليه، ولمع وميض، وحدث صوت فرقعة، ووقفت الآنسة بروس وحدها والدخان يحجب بصرها.

ولقد حدث كل هذا الذي حدث في ثانية واحدة. وتلاشى الدخان، وران السكون. تلاشى الدخان في هالواء كما تلاشت روح تلك المرأة الفرنسية الثائرة التي كان جسمها ممدا على الأرض ولا حياة فيه.

وفي بداية خوفها وهلعها من الموقف الذي وجدت نفسها فيه، أزاحت الآنسة بروس الجثة جانبا، وجرت تهبط درجات السلم عساها أن تجد

مساعدة دون جدوى. ولحسن حظها، بدأت تدرك بنفسها العواقب الوخيمة لما فعلته، وراجعت على الفور نفسها، وعدلت من طلب المساعدة من أي شخص آخر، وعادت من حيث أتت. وكان من المفزع أن تذهب عند الباب مرة أخرى، ولكنها دخلت الحجرة بالفعل. وارتدت القبعة وأخذت الأشياء التي تلزمها وارتدت الملابس التي كانت قد أعدتها، وأغلقت الأبواب ونزلت درجات السلم بعد أن كانت قد أغلقت باب الشقة من الخارج بالمفتاح، ونزعت المفتاح ووضعته في حقيبتها، ثم جلست على درجة من درجات السلم بضع لحظات لكى تتنفس وتبكى ثم نهضت واقفة وأسرعت مبتعدة عن المكان.

ولحسن الحظ كانت قبعتها مزودة بما يشبه الحجاب وإلا كان من العسير أن تمشى في الشوارع دون أن يرتاب في هيئتها شخص ما ليستوقفها. ولحسن الحظ أيضا كانت هيأتها من النوع المألوف الذي لا يستوقف الانظار. وكانت تحتاج إلى هذين الاعتبارين لأن آثار أظافر مدام ديفارج كانت واضحة المعالم في وجهها الذي يخفيه الآن حجاب قبعتها.

وعند عبورها فوق القنطرة، رمت الآنسة بروس المفتاح في النهر الذي كانت تمر فوقه. وعندما وصلت الآنسة بروس إلى الكاتدرائية، كان ذلك في موعد مبكر بضع دقائق عن موعد وصول زميلها كرانشر إلى ذلك المكان، فانتظرت وهي تفكر فيما عساه أن يحدث لو خرج المفتاح في شبكة أي صياد. وماذا سيحدث لو عرف الناس شخصيتها وعرفوا ما فعلته؟ وماذا سيحدث لو فتح باب الشقة؟ وفي خضم تزاحم هذه الأفكار في رأسها ظهر أمامها جيرى كرانشر، وأمسك بيدها، ومشى بها بعيدا. وسألته الآنسة بروس: «هل توجد أي ضجة في الشوارع؟» وقال السيد كرانشر وهو ينظر إليها مندهشًا من السؤال ومندهشا من حالة هيئتها: «توجد الضجة

المعتادة». وقالت الآنسة بروس: «أنا لا أسمعك. ماذا تقول؟» وعبثا حاول السيد كرانشر أن يسمعها ما كان يقوله لها وذهبت محاولاته أدراج الرياح إذ لم تستطع الآنسة بروس أن تسمعه على الإطلاق بالغا ما بلغ ارتفاع صوته. وقال السيد كرانشر: «أنا سأعمد إلى الإيماء لها برأسى. وهي على كل حال سترى مثل هذه الإشارات». وسألت الآنسة بروس: «هل توجد ضجة في الشوارع الآن»؟ وأومأ لها السيد كرانشر برأسه فقالت: «أنا لا أسمع أي ضجة». وقال السيد كرانشر: «هل أصابها الصمم في غضون ساعة واحدة؟ ماذا جرى لها؟» وقالت الآنسة بروس: «لقد شعرت كما لو كان هنالك وميض، ودويُّ فرقعة ويبدو لى أن صوت تلك الفرقعة هو آخر شيء أسمعه في حياتى». وقال كرانشر: «أقطع ذراعى إن لم تكن في حالة غريبة. ماذا عساه أن يكون قد حدث لها؟ وماذا أفعل لكى أجعلها تظل متماسكة. هذا هو دوى عجلات عربات المحكوم عليهم بالإعدام! هل تسمعين هذا الدوى يا آنسة؟» وعندما لاحظت أنه يخاطبها قالت: «أنا لا أستطيع أن أسمع أي شيء. أوه أيها الرجل الطيب. كان هنالك صوت فرقعة هائلة ثم أعقبها صمت هائل وسكون رهيب. وهذا السكون الرهيب يبدو أنه قد دام مستمرا دون أن يعتريه أي تغيير، ولم يبدده ولن يبدده أي صوت آخر على امتداد مدة الحياة».

وقال السيد كرانشر وهو ينظر مديرا راسه فوق كتفيه: «لو كانت لا تسمع دوى وضجيج عجلات هذه العربات الرهيبة وهى الآن تقترب من نهاية رحلتها، فالرأى عندى هو أنها بالفعل لن تسمع أي صوت آخر في هذه الدنيا». وبالفعل، لم تسمع الآنسة بروس أي صوت آخر في هذه الدنيا.

وكانت عربات الموت يهدر دوى عجلاتها في شوارع باريس مجوفًا ومزعجًا. ست عربات تدور عجلات كل منها محدثة ذلك الصوت المدوى

في الشوارع التي كانت تمر بها. وعندما كانت عجلات هذه العربات بلونها الأسود تواصل دورانها كانت تنفرج أمامها حشود الناس في شوارع باريس مفسحة الطريق لمرورها ثم ينغلق مسار العربات كما لو كانت تحرث حشود الناس. وكان سكان تلك الشوارع قد تعودوا على مشاهدة ها المنظر كل يوم لدرجة أنه لم يكن يوجد متفرجون في معظم النوافذ. ومن آن لآخر، كان المشاركون في ركوب هذه العربات يحظون بوجود بعض الزائرين لهم الذي جاءوا ليروا المشهد الرهيب وليلقوا على المحكوم عليه النظرة الأخيرة ثم يشير لهم بإصبعه إشارة الواثق من نفسه كل الثقة. وكان بعض الزوار قد أدمنوا رؤية هذا المنظر لدرجة أنهم كانوا يتذكرون اسم الشخص الذي كان يجلس في نفس هذه العربة وتلك في اليوم السابق أو في اليوم السابق لليوم السابق.

وكانت توجد حراسة لعربات نقل المحكوم عليهم بالإعدام مكونة من عدة فرسان يركبون الخيل أمام عربات الموت هذه، وكانت العيون تحدق في بعض أولئك الفرسان، وكان بعض الناس يسألونهم بعض الأسئلة وكانت الأسئلة في معظم الأحيان هي نفس الأسئلة، ثم كان الناس يحتشدون خلف العربة الثالثة. وكان أحد الفرسان يشير بسيفه نحو واحد من الجالسين داخل العربة، وكان حب الاستطلاع يستبد بالجمهور ويتناقشون أي واحد منهم هو المشار إليه، بينما المشار إليه يقف داخل عربة الموتت وهو يمسك بيدها. إنه لا يعبأ، وليس لديه حب استطلاع يدفعه إلى مشاهدة وجوه الناس المحتشدين في الشارع، وهو يتكلم دائما مع الفتاة. وهنا وهناك، على امتداد شارع سانت أونوريه، كانت الصيحات تعلو بالهتافات ضده، ولم يكن يؤثر فيه أي هتاف وهو محتفظ على الدوام بابتسامته الرقيقة فوق شفتيهن وشعره الطويل يرفرف أحيانا حول وجهه.

وعلى درجة من درجات سلم الكنيسة، كان الجاسوس خروف السجن واقفا ينتظر وصول عربات الموت. وهو ينظر إلى العربة الأولى. ليس موجودا فيها. وهو ينظر في داخل العربة الثانية. ليس موجودا فيها. وهو الآن يسأل نفسه بالفعل قائلاً لنفسه: «هل هو قد خذلنى؟» ولم تكد الكلمات تدور في ذهنه حتى ابتهج وهو ينظر بداخل العربة الثالثة. ويقول الرجل الذي يقف وراءه: «من منهم هو إفريموند؟» فيقول الآخر: «هل هو ذلك الذي يضع يده في يد الفتاة؟» فيقول الجاسوس خروف السجن: «نعم». ويهتف الرجل بأعلى صوته قائلًا: «يسقط إفريموند! يسقط إفريموند! إلى الجيلوتين أيها الأرستقراط! يسقط إفريموند!» ويقول له الجاسوس خروف السجن: «اسكت اسكت!» فيقول الرجل: «ولماذا لا تهتف أيها المواطن؟» فيقول له جاسوس خروف السجن: «اسكت اسكت!» فيقول الرجل: «ولماذا لا تهتف أيها المواطن؟» فيقول له جاسوس خروف السجن: «إنه يدفع الثمن. سيتم دفع الثمن خلال خمس دقائق فقط. فلندعه في هدوء». ولكن الرجل يستمر في الهتاف مرددا: «يسقط إفريموند!» واستدار وجه الرجل الذي يفترض أنه هو إفريموند نحوه في نظرة خاطفة. ويشاهد إفريموند عندئذ الجاسوس خروف السجن ويحدق فيه النظر ثم تمضى به عربة الموت في طريقها.

وعقارب الساعة قد انتهى بها الدوران لكى تشير إلى الساعة الثالثة، والناس الذين أفسحوا مكانا لعربات الموت قد تجمعوا الآن وراءها لكى يحظوا برؤية مكان تنفيذ أحكام الإعدام في النهاية. واحتشد الناس وراء العربة الثالثة بعد أن توقفت عجلاتها لأن كل أفراد الحشد يريدون رؤية الجيلوتين. وأمام الجيلوتين، كان عدد من النسوة يجلسن فوق بعض الكراسى كما لو كن يجلسن في حديقة عامة، وهن يمارسان أعمال التريكو بكل ثبات ورباطة جأش. وكانت المرأة فينجانس تقف فوق واحدة من تلك

الكراسى وهى تتطلع هنا وهناك بحثا عن صديقتها. وبعد فترة من الوقت أخذت تصيح بأعلى صوتها منادية: «تريز! من منكم رآها؟ تريز ديفارج!».

وتقول واحدة من المواطنات المطرزات الأخوات الجالسات لمشاهدة الجيلوتين وهى تقطع الرقاب وتطوى الصفحات: «إنها لم تتغيب أبدا من قبل». وهي لن تتغيب الآن. يا تريز!» وتشجعها المرأة قائلة: «بصوت أعلى. أي، بصوت أعلى»، وتصيح المرأة فينجانس بصوت أعلى، وبصوت أعلى من صوتها الأعلى، ولا تستطيع أن تسمع صوتا يرد على ندائها. وتصيح بأعلى صوت تستطيعه وهي ترغى وتزبد، ولا مجيب للنداء. وتضرب المرأة فينجانس على الكرسى بقدمها وهى ترغى وتزبد، ولا مجيب للنداء. وتضرب المرأة فينجانس على الكرسى بقدمها وهى تقول: «هذا حظ سيئ. ها هى ذي العربات قد وصلت! والمواطن إفريموند ستطيح المقصلة براسه في غمضة عين، وهى ليست موجودة هنا! انظرى إلى شغل التريكو الذي يخصها في يدى، والكرسى الخالى المعد لها. أنا أبكى من الغيظ وخيبة الأمل!».

وتنزل المرأة فينجانس على الكرسى لكى تتفرج. وبدأت العربات تفرغ حمولتها وملائكة القديسة جيلوتين يرتدون ثيابهم الكهنوتية كاملة وهم جاهزون مستعدون ليجعلوا هذه الجيلوتين الساكنة تتحرك. ويصدر عن الجيلوتين، وقد بدأت العمل، صوت ارتطام جسم صلب يهبط من على جسم صلب مستقر – وتسقط راس إنسان ليمسك بها بين يديه إنسان وينحيها جانب في جوال والمواطنات والمطرزات الأخوات الجالسات لمشاهدة الجيلوتين يمارسن أعمال التريكو ولا تكاد إحداهن ترفع عينيها لحظة لترى تلك الرأس وهى تنفصل عن ذلك الجسد، وهى تقول لزيملتها: «إحرصى على دقة الإحصاء: «عدى اثنين».

وأفرغت العربة الأولى حمولتها، وأفرغت العربة الثانية حمولتها، وجاء الدور على العربة الثالثة، وقالت إحداهن: «عدى اثنين».

ونزل الشخص المفروض أنه إفريموند من العربة الثالثة، وتم إنزال الفتاة الخياطة بعده مباشرة، وهو لم يكن قد فك يده عن يدها أبدا كما كان قد وعدها من قبل. وهو ينزلها بكل لطف وبكل دقة ويجلسها على الأرض بحيث يكون ظهرها تجاه تلك الآلة الجهنمية التي يرتفع سكينها إلى أعلى ثم ينزل، وهي تنظر في وجهه وتشكره له: «لولاك أيها الرجل الغريب العزيز لما كنت متماسكة مثلما أنا متماسكة الآن. أنا بطبيعة الحال شيء قليل ضئيل، أعانى من مرض في القلب. ولولاك لم أكن لأستطيع أن ارتفع بأفكارى إلى اللّه مالك الملك. أما أعتقد أن اللّه هو الذي أرسلك لكى تأخذ بيدى وتشد من أزرى». وقال لها سيدنى كارتون: «أو تستطيعين أن تقولى إن اللّه هو الذي أرسلك أنت إلىّ أنا. ثبتى نظراتك نحوى أنا يا طفلتى الغالية ولا تهتمّى بأي شيء آخر». فقالت الفتاة الخياطة الصغيرة: «أنا لا أهتم بأي شيء وأنا ممسكة بيدك. ولن أهتم بأي شيء عندما سأترك يدك لو أنهم أسرعوا». فقال لها سيدنى كارتون: «إنهم سيسرعون. لا تخافى!».

ووقفا سويا في الصف المتناقص من حيث عدد المصطفين فيه بسرعة كبيرة، ولكنهما يتحدثان كما لو كان منفردين في خلوة وحدهما. العين في العين، الصوت يناجى الصوت، القلب يدق مع القلب، إنهما فلذة كبد انبثق من رحمها العالم كله، وكل إنسان غيرهما منفصل عنهما كل الانفصال، بعيدا عنهما كل البعد، مختلف عنهما كل الاختلاف، وهُمَا قد أقبلا سويا من ذلك الطريق الطويل المظلم لكى يرتبا شئونهما سويا، ولكى يستريحا على صدر تلك الأم. وقالت له: «أنت تزجى إلى روحى الكثير من الراحة! هل تسمح لى أن أقبلك الآن؟ هل حانت لحظة الفراق؟» فقال لها: «نعم».

وتقبِّلُ شفتيه، ويقبِّل ويبارك كل منهما الآخر بكل خشوع وحنان. ولم ترتعش اليد التي تركها تبتعد عن يده. ولم يكن يؤلمه شيء أكثر من ذلك الهدوء الحلو المضيء في وجه تلك الفتاة المريضة... إنها تتقدم إلى الجيلوتين مباشرة أمامه... التهمت الجيلوتين رقبتها، وتعد واحدة من المواطنات الجالسات المطرزات الأخوات المشاهدات للجيلوتين وهي تعمل قائلة: «اثنان وعشرون!» وأخذ هو يردد صلاته بصوت خافت. وعلا صوت غمغمة أصوات كثيرة، وتلفتت نحو الجيلوتين وجوه كثيرة، وتزاحمت أقدام فوق أقدام، وتحركت أقدام المتفرجين إلى الأمام حتى أصبحت أجسام المشاهدين كما لو كانت قد اندمجت في كتلة واحدة أو كما لو كانوا كتلة ماء تدفعها موجة واحدة ثم انحدروا جميعا عن المكان منصرفين، بعد أن عدت واحدة من المواطنات المطرزات المشاهدات للجيلوتين وهي تعمل قائلة: «ثلاثة وعشرون!»

وقالوا عنه في أرجاء المدينة في تلك الليلة إن وجهه كان أهدأ وأجمل وجه لرجل فصلت الجيلوتين راسه عن جسمه. ولقد كان قد طِلُب من واحدة من اشهر من عانوا آلام تلك المقصلة بجوار تلك المقصلة أن تكتب في ورقة الأفكار التي كانت تدور بذهنها قبل إعدامها تحت المقصلة. ولو كان قد طُلِبَ منه نفس الطلب لو كانوا قد ألهمُوا أن يطلبوا منه ذلك الطلب لكانت كلماته التي يسطرها لهم كما يلى:

«أنا أرى بارساد، وديفارج، والمرأة فينجانسن والمحلفون، والقضاة، والصفوف الطويلة من الطغاة الظالمين الجدد الذين نهضوا وأقاموا نهضتهم فوق حكام الطغاة الظالمين القدامى، أنا أراهم جميعا وهم يعدمون وتفصل رؤوسهم عن أجسامهم بواسطة هذه الآلة الجبارة من آلات الانتقام والغعدام قبل أن تتوقف عن العمل والدوران. أنا أرى بعد ذلك مدينة جميلة وشعبا ذكيا ينبثق ناهضا من أعماق هذه الهوة الجهنمية السحيقة، وفي كفاح أبناء

شعب هذه المدينة الجميلة الأذكياء لكى يكونوا أحرارا حقا، ومن خلال انتصاراتهم وهزائمهم على مدار سنوات طويلة قادمة سيكون في شرور هذا الزمان وفي شور الزمان الذي سبقه، والذي كان منه انبثاق ومولد هذا الشعب الذكى، وسيكون في هذه الشرور كفارة عن نفسها، وستفنى وتتلاشى كل الشرور والآثام في خضم هذا الميلاد الجديد لشعب ذكى مقدام. وأرى أيضا الروح التي ضحيت من أجلها بروحى هادئة مطمئنة مفيدة للآخرين مزدهرة سعيدة في إنجلترا التي لن أراها بعد الآن. أنا أراها وطفلها فوق صدرها وهو يحمل اسمى تخليدا لذكرى. أنا أرى أباها، عجوزا، محنى الظهر، ولكنه متماسك الروح، مخلص لكل الناس في عيادته التي يقدم فيها الشفاء للمرضى من الناس وهو هادئ النفس يعمل في هدوء وسلام. أنا أرى الرجل الطيب العجوز الآخر الذي كان صديقًا صدوقًا مخلصًا لتلك الأسرة على امتداد الزمان ومدار الأيام طوال عشر سنين، وهو يثرى حياتهم بكل ما يستطيع أن يثرى به حياتهم وهو يمر بهدوء ليأخذ مكافأته. أنا أرى أننى أحتل مكانا مقدسا في قلوبهم جميعا وفي قلوب أبنائهم من بعدهم وفي قلوب أحفادهم بعد أبنائهم وفي قلوب كل من سيولد ويأتى إلى الحياة من سلالتهم على مدار الأجيال. أنا أرى ذلك الولد الذي تحمله أمه على صدرها وهو ينجح في أن يشق طريقه إلى الأمام في الحياة التي كانت ذات يوم هي حياتى أنا. أنا أراه رئيسا لقضاة عادلين، ورجال شرفاء، وأراه وهو ينجب طفلا يحمل اسمى، له جبهة أنا أعرفها، ذهبى أشعر، ويأتى إلى هذا المكان لكى يلقى على المكان نظرة ليس فيها مشاعر الناس في هذه الأيام. وأنا أسمعه يقول لابنه قصتى بصوت حان متهدج ويقول له: «إن ما أعمله الآن أفضل بكثير مما قد عملت من قبل، وراحتى الآن هى أفضل وأتم راحة عرفتها طوال حياتى».

الفهرس

الفصل الأول: عربة بريد دوفر	5
الفصل الثاني: الحانة	17
الفصل الثالث: صانع الأحذية	25
الفصل الرابع: بعد خَمْسِ سنوات	35
الفصل الخامس: مساعد المحامى	53
الفصل السادس: مئات من الناس	63
الفصل السابع: سيادة الماركيز	73
الفصل الثامن: وعدان	87
الفصل التاسع: أشغال الإبرة	97
الفصل العاشر: تسعة أيام	111
الفصل الحادى عشر: أصداء وَقْعِ الأقدام	119
الفصل الثاني عشر: الانسياق إلى بؤرة الأحداث	133
الفصل الثالث عشر: بطريقة سِرِّيَة	142
الفصل الرابع عشر: الظل	154
الفصل الخامس عشر: زَهْوُ الانتصار	170
الفصل السادس عشر: طارق بالباب	176
الفصل السابع عشر: ويزداد الظل عُمْقًا	186
الفصل الثامن عشر: الورقة	196
الفصل التاسع عشر: ظلام	217
الفصل العشرون: اثنان وخمسون	229